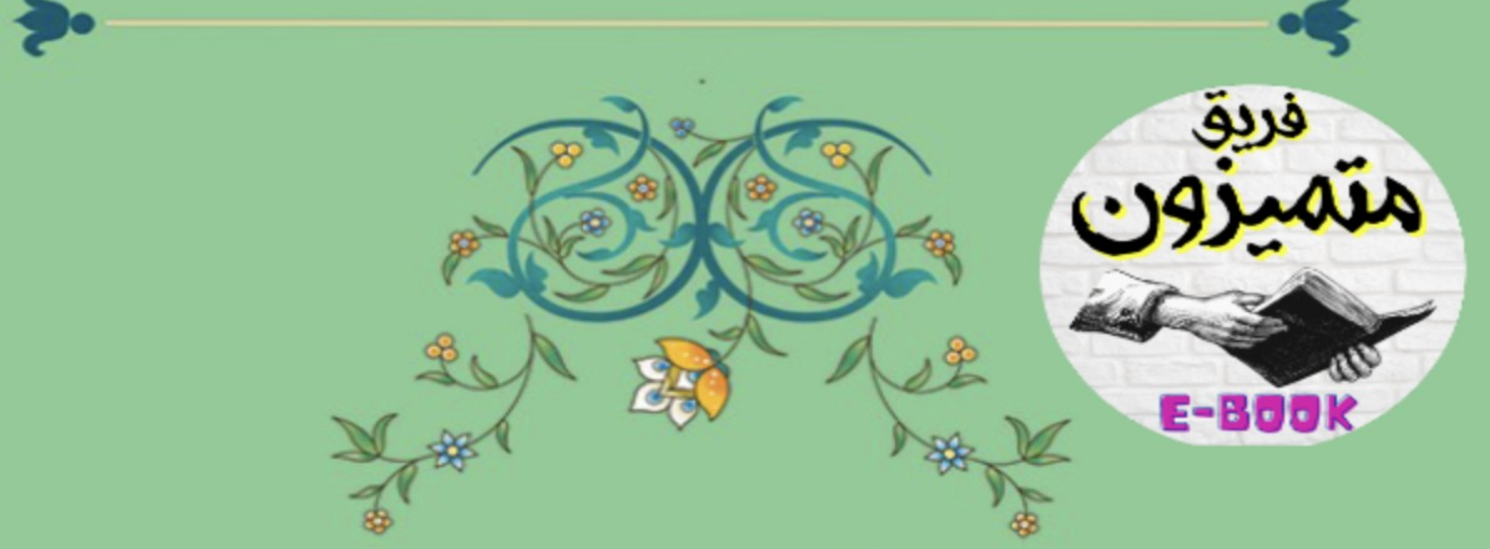


روائع من حياة الصحابة

مُصطَفَى زَهرَان



دراسة

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

روائع من حياة الصحابة

مصطفى زهـران

جيل الصحابة والقرآن

جيل الصحابة ذلك الجيل الذي استقى من النبع الصافي وحده، فكان له في التاريخ ذلك الشأن الفريد، إنه جيل السماء، لقد جعل هذا الجيل القرآن الكريم، والسنة المطهرة منهج تلقٍ للتنفيذ والعمل، لا منهج دراسة ومتعة، كما هو حال كثير من الأجيال التي خلفت ذلك الجيل الفريد.

إن أفراد هذا الجيل الرباني لم يكونوا يقرأون القرآن لقصد الثقافة، والاطلاع، وزيادة الحصيلة الفقهية فحسب؛ بل كان الواحد منهم يتلقى القرآن ليتلقى أمر الله في خاصة شأنه وشأن المجتمع الذي يعيش فيه، وشأن الحياة التي يحياها، يتلقى ذلك كله ليعمل به فور سماعه.

وقد فتح هذا الشعور لهم من القرآن آفاقًا لم تكن لتُفْتح لهم بغيره، ويسر لهم العمل، وخفف عنهم ثقل الأعباء والتكاليف، وحوَّل مسار حياتهم إلى الاتجاه الصحيح، ولو أنهم قصدوا القرآن بشعور البحث، والدراسة، والاطلاع، والثقافة؛ ما كان لهم ما كان.

الجيل الرباني

إن الجيل الذي رباه سيدنا محمد ﷺ كان جيلًا محسنًا يعبدُ الله عز وجل كأنَّهُ يراه، شجاعًا يركل الدنيا بقدمهِ ويمضي، ثبْتَ الخطى في طريقٍ إلى ربه، كريمًا لا يحرص على مال؛ بل ما يعطيه لله أحب لديه مما يستبقيه لنفسه، مقيمًا للصلاة، ينتظم في صفوفها بإيمانٍ وخشوع، ويحافظ على أوقاتها في الصحة، والمرض، والسلم، والحرب.

هذا الجيل الرباني تلقى الحق وصانه وسلَّمه إلى أجيالٍ من بعدهِ في وفاءٍ وفداءٍ لم تعرف الدنيا لهما نظيرًا في تاريخها الطويل، إن الملائكة لتنظر بإعجابٍ إلى هؤلاء الأصحاب، بل إنها لتحفهم وهم يجاهدون، تتنزل عليهم وهم يتهجدون، ما أحسبها وهي ترقب الأرض من قديمٍ رأت جيلًا خيرًا منهم، حاشا أنبياء الله السابقين.

من أجل ذلك كان حديثنا عن هذا الجيل الرباني حديثًا يتسم بحبهم، والإعجاب بهم، بوصف هذا الجيل بالصفوة المختارة من البشر، ولكونهم قدوة لكل مؤمنٍ ومؤمنة، وقد بذلتُ جهدي في تحري الصواب في أخبارهم، والحكم لهم بحسن التأسي واتباع المنهج القويم في حياتهم.

إهداء

- إلى: جبل الصمود يوم الردة، وعملاق الإيمان واليقين، ثاني اثنين، الصدِّيق أبو بكر رضي الله عنه.
- إلى: التَّقِي الورِع، أول من أظهر إسلامه، والذي سهر لينام الناس، الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
- إلى: الرجل الذي تستحي منه الملائكة، الجود الكريم، ذي النورين، عثمان بن عفان رضي الله عنه.
- إلى: بطل خيبر المغوار، أبي السبطين، وأبي تراب، الزاهد الورع، علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
- إلى: أفضل البشر بعد الأنبياء، مصابيح الدجى، ونور الهدى، الصحابة رضوان الله عليهم.
- إلى: أبي رحمه الله، وأمي حفظها الله، وإخوتي.

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعين بهِ، ونستهديه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل الله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ونبيه ورسوله، اللهم إنا نعوذ بك من أن نقول زورًا أو أن نخشى فجورًا أو أن نكون بك ربي من المغرورين، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى.

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، يا رب لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا، فله الحمد كما ينبغي لجلاله، وله الثناء كما يليق بكماله، وله الحمد كما تستدعيه عظمته وكبرياؤه.

إن أصدق الحديث كتاب الله عز وجل، وأحسن الهدي هدي محمدٍ ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالةٍ في النار.

أما بعد

بسم الله القوي، العزيز، وفي سبيلهِ، وعلى بركتهِ، أضع هذا الكتاب الذي أرجوه أن يكون خالصًا لوجه الله تعالى بين يدي شباب الإسلام ورجاله وفتياته، الذين اتضحت في عيونهم الرؤية الواعية لتاريخنا العظيم، فأدركوا أن ابتعاد الأمة عن دينها العظيم، عقيدة، ومنهاج حياة، وهو السبب في كل ما يصيبها من هوانٍ، وتشتتٍ، وتخبطٍ في متاهات العقائد الأرضية المستوردة من هنا ومن هناك، ثم أدركوا من بعد ذلك، أن في العودة إلى الإسلام العظيم، والالتزام الصادق به، والاستقامة الواعية على دربه، هو طوق النجاة الوحيد لهذه الأمة.

وبعد

إن من أسباب زيادة الإيمان، والثبات على الحق، وعلو الهمة في دعوةٍ إلى الله تعالى؛ دراسة سيرة النبي ﷺ وأصحابه، الذين اختارهم الله عز وجل وزراءً لنبيِّه، ومناصرين له في دعوته، فقام صرح الإسلام العظيم على أشلائهم، ورووه بدمائهم الطاهر، فقد هانت عليهم الدنيا في سبيل دينهم، فاستلذوا المكاره، واستسهلوا المصاعب، فضربوا أروع الأمثلة في التضحيةِ والبذلِ والفداء، فكانت لهم يدٌ على كل من جاء بعدهم، وما أنكر فضلهم إلا وضيعًا.

ولا يشك عاقل أن أصحاب رسول الله ﷺ هم خير الخلق بعد الأنبياء والمرسلين عليهم أفضل السلام، وأن الصحابة هم خير القرون، لخير أمةٍ وُجدت على وجه الأرض، فلا شك إن معرفة أحوالهم وأخلاقهم وسيرهم تُضيء الطريق أمام المؤمن الذي يريد أن يسير على طريق الحق.

فالصحابة رضوان الله عليهم نوع فريد من الرجال لم تَعرف البشرية لهم نظيرًا في تاريخها الطويل الممتد عبر الزمن، لمَ لا؟ فقد اختارهم الله واصطفاهم لصحبة خير الأنبياء والرسل، ونشر رسالته من بعده.

فلقد حاز الصحابة رضوان الله عليهم قصب السبق في كل شيء، فهم قمةٌ في التقوى والورع، وآيةٌ في التجرد والإخلاص، ومشعلٌ في العلم والعمل، وقدوةٌ في الدعوة إلى الله، والجهاد في سبيله، فأي

خصلةِ خيرٍ لم يسبقوا إليها؟

لقد حفظ الصحابة الشرع من أهواء أهل الباطل، وحموا الدين من كيد أهل الشرك والباطل، وشهدوا التنزيل وعملوا بما فيه طائعين، كان كل هم لهم رافع راية التوحيد، ورفعة لا إله إلا الله محمد رسول الله فوق أصقاع الدنيا، وقد أنفقوا أموالهم فًي سبيل الله، فما شفى ذلك لهم غليلًا، فأبوا إلا أن يقدموا الأرواح ويسيلوا الدماء ويستعذبوا العذاب في سبيل الله.

فمن هنا كان واجبٌ علينا معرفة أخبارهم وسيرهم ونشرها بين المسلمين؛ عظةً وذكرى لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد، لذلك فإن الكلام عن هؤلاء العظماء واجبٌ محتم علينا في هذا العصر الذي نعيش فيه اضطراب الموازين.

وهذا الكتاب الذي بين أيديكم الآن لنقترب في خشوعٍ وغبطة من أولئك الرجال الأبرار، لنستقبل أروع نماذج البشرية الفاضلة، لنرى عن قربٍ أسمى ما عرفت الدنيا من عظمةٍ ورشد، ولنشهد كتائب الحق وهي تسير في طريق النور بإيمانها لتهدم أوثان الباطل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

(فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)

مصطفى نصر زهران

روائع من زهد وورع الصحابة

عظمة الفاروق

يتعجب المرء من سيرة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فما كان أول الصحابة إسلامًا، ولا كان أفضلهم نفقةً، ولكنه رضي الله عنه غلب الناس بالزهد في الدنيا، والصرامة في أمر الله، وعدم خوفه في الله لومة لائم، وكان يبدو أروع وأبهى ما يكون عندما صار أميرًا للمؤمنين، هنا نلتقي بأعظم آيات التفوق الإنساني، هنا نبصر نبوغ النفس، وبطولة الروح، وإعجاز السلوك، هنا نرى ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا يكاد يخطر بقلب بشر.

أجل، هنا العظائم تتفوق على نفسها، ويزحم بعضها بعضًا، هنا عمر رضي الله عنه حاكم يحمل مسئولياته على نمطٍ فذ، ويعطي البشر جميعًا إلى آخر لحظةٍ في الأبد درسًا في الأمانة، رجلٌ كحاكم لم يحرم نفسه من الطيبات المشروعة للحاكمين فحسب، بل من الطيبات المشروعة للمواطن العاديِّ في كلِ زمان ومكان.

تروي كتب السير والتراجم: إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قام منصرفًا فمشى وراءه أصحاب النبي ﷺ في أثره، فقالوا: ما ترون يا معشر المهاجرين والأنصار إلى زهد هذا الرجل؛ وإلى حليته؟ لقد تقاصرت إلينا أنفسنا منذ فتح الله على يديه ديار كسرى وقيصر، وطرفي المشرق والمغرب، ووفود العرب والعجم يأتونه فيرون عليه هذه الجبة وقد رقَّعها اثنتي عشرة رقعة، فلو سألتم معاشر أصحاب محمد ﷺ وأنتم الكبراء من أهل المواقف والمشاهد مع رسول الله ﷺ والسابقين من المهاجرين والأنصار، أن يغير هذه الجبة بثوبٍ لين يهاب فيه منظره.

فقال القوم جميعًا: ليس لهذا القول إلا علي بن أبي طالب فإنه أجرأ الناس عليه، وهو صهره، أو ابنته حفصة فإنها زوجة رسول الله ﷺ، وهو مُوجب لها لموضعها من رسول الله ﷺ، فكلموا عليًا في ذلك، فقال: لست بفاعل ذلك الأمر، ولكن عليكم بأزواج النبي ﷺ فإنهن أمُهات المؤمنين، فسألوا عائشة وحفصة رضي الله عنهما وكانتا مجتمعتين، فقالت عائشة: إني سائلة أمير المؤمنين ذلك، فقالت لها حفصة: ما أراهُ يفعل وسيبينُ لك ذلك.

فدخلتا على أمير المؤمنين فقربهما وأدناهما، فقالت عائشة: يا أمير المؤمنين، أتأذن لي أن أكلمك؟، قال تكلمي يا أم المؤمنين، قالت: إن رسول الله ﷺ مضى لسبيله إلى جنته ورضوانه لم يرد الدنيا ولم ترده، وكذلك مضى أبو بكر رضي الله عنه على إثره لسبيله بعد إحياء سنن رسول الله ﷺ، وقتل المكذبين، وأدحض حجة المبطلين بعد عدله في الرعية، وقسمه بالسوية، وإرضاء رب البرية، فقبضه الله إلى رحمته ورضوانه، وألحقه بنبيه ﷺ بالرفيق الأعلى، لم يرد الدنيا ولم ترده.

وقد فتح الله على يديك كنوز كسرى وقيصر وديارهما، وحمل إليك أموالهما، ودانت لك أطراف المشرق والمغرب، ونرجو من الله المزيد، وفي الإسلام التأييد، ورسل العجم يأتونك، ووفود العرب يردون عليك، وعليك هذه الجبة قد رقعتها اثنتي عشرة رقعة، فلو غيرتها بثوبٍ لين يُهاب فيه منظرك، ويغدى عليك بجفنةٍ من الطعام، ويُراح عليك بجفنةٍ تأكل أنت ومن حضرك من المهاجرين والأنصار.

فبكى عمر عند ذلك بكاءً شديدًا، ثم قال: سألتك بالله هل تعلمين أن رسول الله ﷺ شبع من خبز بر عشرة أيام، أو خمسة، أو ثلاثة، أو جمع بين عشاءٍ وغداءٍ حتى لحق بالله؟ قالت: اللهم لا يا أمير المؤمنين، فأقبل على عائشة فقال: هل تعلمين أن رسول الله ﷺ، قرب إليه طعام على مائدةٍ في ارتفاع شبرٍ من الأرض، فكان يأمر بالطعام فيوضع على الأرض، ويأمر بالمائدة فترفع؟

قالت: اللهم نعم يا أمير المؤمنين، فقال لهما: أنتما زوجتا رسول الله ﷺ، وأمهات المؤمنين، ولكما على المؤمنين حقٌ، وعليَّ خاصة، ولكن أتيتما تُرغباني في الدنيا، وإني لأعلم أن رسول الله ﷺ لبس جبة من الصوف، فربما حك جلده من خشونتها، أتعلمان ذلك؟، قالتا: اللهم نعم يا أمير المؤمنين، فقال: هل تعلمِين أن رسول الله ﷺ كان يرقُد على عباءةٍ على طاقةٍ واحدة كان مسْحًا – هو الثوب الغليظ – في بيتك يا عائشة، تكون بالنهار بساطًا، وبالليل فراشًا، فندخل عليه فنرى أثر الحصير على جنبه؟

ألا يا حفصة أنت حدثتني أنك ثنيت له المهاد ذات ليلةٍ فوجد لينها فرقد فلم يستيقظ إلا بأذان بلال، فقال لك: يا حفصة ماذا صنعت؟ أثنيت المهاد حتى ذهب بي النوم إلى الصباح؟ ما لي وللدنيا، وما شغلتموني بلين الفراش، يا حفصة أما تعلمين أن رسول الله ﷺ كان مغفورًا له ما تقدم له من ذنبه وما تأخر، أمسى جائعًا، ورقد ساجدًا، ولم يزل راكعًا وساجدًا وباكيًا ومتضرعًا في آناء الليل والنهار إلى أن قبضه الله برحمته رضوانه.

لا أكلَ عمر طيبًا، ولبس لينًا، فله أسوة بصاحبيه، ولا جمع بين أديمين إلا الملح والزيت، ولا أكل لحمًا إلا في كل شهرٍ حتى ينقضي ما انقضى من القوم، فرجعتا فخبَّرتا بذلك أصحاب رسول الله ﷺ، فلم يزل كذلك حتى لَحق بالله عز وجل.

يا خالق هؤلاء الرجال سبحانك، يا ترى ماذا فعل القرآن في نفوس هؤلاء؟! أرجِع البصر أيها القارئ وتأمل حال الخليفة وما يكفيه من الخلافة، بارك الله في دينٍ ربَّاهم ونبيٍّ علَمهم.

عبرة

يا شباب، لقد اعتدنا أن نضع هذا السلوك المعجز لعمر بن الخطاب رضي الله عنه تحت عنوان الزهد أو التقشف، فعمر رضي الله عنه يجوع، ويتقشف في مطعمه وملبسه، ويحمل أهله معه على ذلك بدافعٍ نُسميه زهدًا، ولكن الحقَّ أن وراء الزهد حافزًا أبعد غورًا، وأعمق جذورًا، ذلك هو الاحترام الفريد لمسئوليته، والتفاني الفذ في الإخلاص لتبعاته وواجبه، إنَّ للمسؤولية في ضميره الطاهر الحي قداسة مطلقة، وجميع الاعتبارات والمواقف تتكيف وفق مقتضياتِ هذه المسؤولية، ولا تخضع هي لأي موقفٍ أو اعتبار.

يا سادة، فهِمَ عمر رضي الله عنه من خلال معايشته للقرآن الكريم، ومصاحبته للنبي الأمين ﷺ، ومن تفكره في هذه الحياة أن الدنيا دار اختبارٍ وابتلاء، وعليه فإنها مزرعة للآخرة، ولذلك تحرر من سيطرة الدنيا بزخارفها، وزينتها، وبريقها، وخَضع وانقاد وأسلم نفسه لربه ظاهرًا وباطنًا.

فقد كان يعلم أن هذه الدنيا لا وزن لها ولا قيمة عند رب العزة إلا ما كان منها طاعة لله تبارك وتعالى، وأن الآخرة هي الباقية وهي دار القرار، كانت هذه الحقائق قد استقرت في قلب الفاروق فترفَّع رضي الله عنه عن الدنيا وحطامها وزهد فيها.

الخليفة الزاهد

ضيفنا في هذه السطور، رجل عظيم القدر، رفيع المنزلة، عاش متأسيًا برسول الله ﷺ، جاهد في سبيل الله وأبلى بلاءً حسنًا في كل المشاهد، أنفق كل ماله في سبيل عقيدته، نصر الرسول الكريم ﷺ يوم خذله الناس، وآمن به يوم كفر به الناس، وصدقه يوم كذبه الناس، جهل فعله الكثير من أبناء الأمة، وبخسوه حقه، وهضموه منزلته، ولم يقدروه قدره، رغم أنه أفضل البشر بعد الأنبياء عليهم السلام، وأفضل الصحابة بلا خلاف.

نحن على موعدٍ مع أوَل مدعوٍ إلى الإسلام، شيخ الصحابة وسيدهم، وأفضل أتباع الأنبياء والمرسلين، الصديق الأكبر، والصاحب الأخص لسيد البشر، نحن نلتقي مع خليفة رسول الله أبو بكر الصديق رضي الله عنه، نحن في هذه السطور نطوف في رحاب السيرة الصديقية لنقتطف ثمرةً زكية من بستانها الشذيّ النديّ، فتعالوا بنا لنتجول معًا بين أروقة التاريخ لنتعايش بقلوبنا مع هذا المشهد الماتع.

لله در خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر الصديق رضي الله عنه من إمام عظيم متفوقٍ لم تفلت منه مَزية، ولم تغب عنه فضيلة، فلله دره من خليفةٍ كان ولاؤه لتطبيق هَدْي نبيِّه ﷺ حرفيًا حتى في الظروف التي تجيش فيها العواطف، وهو أرق الناس أفئدة، ومن شاء أن يرى جلالَ الحُكم، وعظمة الحاكم، فلينظر أبا بكر غداة اسْتِخْلافه، إذا خرج من داره حاملًا على كتفيه لفافة كبيرة من الثياب، فقد أراد أن يمضي إلى السوق كعادته للتجارة. وفي الطريق يلقاه الفاروق عمر، والأمين أبو عبيدة رضي الله عنهما فيسألانه: إلى أين يا خليفة رسول الله ﷺ؟ فيجيبهما الصديق: إلى السوق، فقال عمر: وماذا تصنع بالسوق، وقد وُلِّيت أمْر المسلمين؟! قال الصديق: فمن أين أُطْعم عيالي يا عمر؟

لم يُدخل منصب الخلافة على النفس الكبيرة لهذا الرجل العظيم أيَّ زهْوٍ، ولم يُحركَ لها رغبة، أيةُ رغبةٍ في تغيير أسلوب الحياة.

فقال له عمر: انطلق معنا نفرض لك شيئًا من بيت مال المسلمين، وصحبهما هذا الرجل العظيم إلى المسجد حيث نودي أصحاب رسول الله ﷺ، وعرض عليهم عمر رأيه في أن يفرض للخليفة من بيت المال أي بدل تفرغ.

وفعلًا فرضوا له كفافًا بعض شاةٍ كل يوم، وخمسين ومائتي دينار في العام، ثم زيدت بعد ذلك إلى شاة في اليوم وثلاثمائة دينار في العام، وعاش الصديق بهذا الكفاف وهو وأسرته الكبيرة، حتى بعد أن فتح الله عز وجل للمسلمين أبواب الرزق والرغد، وبدأت خيرات الشام والعراق تفدُ إلى المدينة، لم يكن الصديق يلتزم القناعة لمجرد الزهد، بل كانت قناعتهُ جزءًا من فلسفته في الحياة.

عبرة

أيها الأخوة الكرام، هكذا وقف الصحابة في فهمهم الراقي لولاية الدين، وأمانة الحكم يفرضون لإمامهم رزقًا يغتني به عن التجارة بعد إذ صار عاملًا للأمة تملك منه الوقت والجهد والفكر، ومن ثم يقررون معنى في الإسلام بديعًا يفصل الذمة المالية للأمة عن ذمة الحاكم، هذا المعنى الذي لم يعرفه الغرب إلا في عهوده القريبة، إذا ظلت رايةٌ ما لقيصرٍ مشرعة خفاقة يقاتل الناس دونها أزمانًا طويلة.

يا شباب، يظهر من هذه المواقف أيضًا ورع الصديق في المال العام؛ فقد ترك هذا الخليفة العظيم تجارته، وتخلَّى عن ذرائع كسبه اشتغالًا عنها بأمور المسلمين، وقيامًا بوظائف الخلافة، فيضطر إلى أخذ نفقته من بيت المال بما لا يزيد عن الحاجة إلى سد الجوع وستر العورة، ثم هو يؤدي للمسلمين خدمةً هيهات أن تؤدي حقها الخزائن، ولما أشرف على الموت وعنده فضلة من مال المسلمين، وهي ذلك المتاع الحقير؛ يأمر بردها إلى المسلمين ليلقى ربه آمنًا مطمئنًا، نزيهَ القلب، طاهرَ النفس، خفيفَ الحمل إلا من التقوى، فارغ اليدين إلا من الإيمان، إن في هذا لبلاغًا، وإنها لموعظة لقوم يعقلون.

استقامة الرعية من استقامة الراعي

الإسلام عزيزٌ بنفسه، عزيزٌ بأهله، رضيه الله للناس دينًا، وأتم به النعمة على من اعتنقه عن يقين، وأخلص فيه لله رب العالمين، وجاهد في سبيل نصرته جهادَ الواثقين بنصر الله لعبادهِ المرسلين، وجنده المخلصين، ضيفنا في هذه السطور واحد من أولئك الذين أعزهم الله بالإسلام، وأعز الإسلام بهم، فكان رجلًا قد اكتملت فيه أوصاف الرجولة كلها، وبطلًا قد تمت له سمات البطولة في أسمى معانيها، فصنع لنفسه تاريخًا عامرًا بالمآثر الخالدة، زاهيًا بالأمجاد العظائم، زاخرًا بالبطولات النادرة، والمواقف الإنسانية السامية.

نحن على موعدٍ مع الرجل الذي كان يسمع القرآن فيُغشي عليه فيُحمل صريعًا إلى منزله، الرجل الذي كان الشيطان يسلك طريقًا غير طريقه، الرجل الوقَّاف عند كتاب الله، نحن نلتقي مع الجبل الأشم، والعملاق الكبير عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ونحن نعيش في هذه السطور مع أحد المشاهد الربانية لهذا العملاق العظيم، فتعالوا بنا لنتعايش بقلوبنا مع هذا المشهد الرائع العظيم لهذا الجبل الأشم.

اختصم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مـع العباس بن عبد المطلب رضي الله عنهما حول موضوع توسيع المسجد النبوي الشريف، فقد احتاج الفاروق أن يضم أرضًا لتوسيع المسجد، وعارضه صاحب الأرض وهو العباس عم النبي ﷺ في ذلك، فيقول للإمام العادل، والخليفة الأمين: ليحكم بيني وبينك آخرون.

كان أمير المؤمنين عمر يريد أن يوسِّع المسجد، لأنه سمع أن النبي ﷺ في حياته كان يرغب في توسعته، فأراد أن ينفذ رغبة النبي صلوات ربي وسلامه عليه، فكان لا بُدَّ أن يضم هذه الأرض للمسجد، وصاحب الأرض اعترض على ذلك، وكان أمير المؤمنين عمر على رحبٍ في الأمر، لأنه سيجد له عونًا على الحق إن كان محقًّا، وهديًا إلى الصواب إن كان مخطئًا، فهو رضي الله عنه لا يستمع إلا للحق، ولا يريد أن يظلم صاحب الأرض، ولنترك العباس رضي الله عنه يحكي قصته مع الفاروق.

يقول العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه: لقيني أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يومًا، فقال لي: يا عباس لقد سمعت رسول الله ﷺ قبل موته يريد أن يزيد في المسجد، وإنَّ دارك قريبة من المسجد، فأعطِنَا إياها نزدها فيه، وأقطع لك أوسع منها مع التعويض، فقال له العباس: لا أفعل يا أمير المؤمنين، قال عمر: إذًا أغلبك عليها، أنا صاحب الأمر، فأصدر لها أمر استملاك، فأجابه العباس: ليس لك حق في ذلك يا أمير المؤمنين، اجعل بيني وبينك من يقضي بالحق بيننا، فقال عمر: من تختار يا عباس؟ قال العباس: حذيفة بن اليمان.

وبدلًا من أن يستدعي أمير المؤمنين حذيفة رضي الله عنه إلى مجلسه، انتقل عمر والعباس إليه، لماذا؟! لأن القاضي يؤتى ولا يأتي، والعلم يؤتى ولا يأتي، هكذا الأدب، فحذيفة الآن يمثل القضاء، وأحد الخصوم وهو أمير المؤمنين عمر، والآخر هو أحد رعِيَّته مهما علَت مكانته.

وأمام حذيفة جلس عمر والعباس، وقصا عليه الخلاف الذي بينهما، فقال حذيفة: يا أمير المؤمنين سمعت أن نبي الله داود عليه السلام أراد أن يزيد في بيت المقدس، فوجد بيتًا قريبًا من المسجد، وكان هذا البيت ليتيم، فطلبه منه فأبى هذا اليتم، فأراد داود عليه السلام أن يأخذه قهرًا، فأوحى الله إليه أن أنزه البيوت عن الظلم هو بيتي، فعدل داود عليه السلام وتركه لصاحبه.

فنظر العباس إلى عمر، وقال: يا أمير المؤمنين ألا تزال تريد أن تغلبني على ذلك؟ فقال عمر له: لا ورب الكعبة يا عباس، فقال العباس: ومع هذا، فقد أعطيتك الدار يا أمير المؤمنين تزيدها في مسجد رسول الله ﷺ، أنا سوف أعطيها لك من عندي لوجه الله تعالى، أما أن تغلبني عليها فلا تستطيع، وحذيفة هو القاضي بيننا، فبكى عمر من ذلك.

عبرة

يا أيها الأخوة الكرام، لو بحثنا في سيرة حياة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لوجدنا أن أبغض شيءٍ إلى نفسه الكِبر والتكبُّر، فقد كان يمقت استعلاء الناس؛ ذلك لأن الكبرياء لله وحده، وقد كان يراقب نفسه مراقبةً شديدة، ويقف لها بالمرصاد، ويذلها حتى لا تطمع أو يركبها الغرور، فعندما يكون الإنسان حرًّا، فإنه ينطلق في تعامله مع الناس من منطلقٍ واقعي، منطلقٍ إنساني، منطلقٍ فيه عدل، وفيه إنصاف، وفيه حقوق، وفيه واجبات، والحياة أخذ وعطاء.

يا شباب، إن الاستجابة لله وللرسول الأعظم صلوات ربي وسلامه عليه هي الحياة الحقيقية، وهي تُقدم على حظوظ النفس وشهواتها ورغباتها، لأن سبحانه هيَّأ لعبادهِ المؤمنين منازلَ في دار كرامته لم تبلغها أعمالهم، فلهذا رأينا من أصحاب رسول الله هذه النماذج البشرية الفريدة.

أتعصيني يا ابن الخطاب؟

لله عباد دانوا له بالخضوع والطاعة، وأخلصوا له في القول والعمل، وروَضُوا أنفسهم على أنواعٍ من العبادات والمجاهدات، ليبلغوا بها عند الله تعالى أعظم الدرجات، وقد وصفهم رب العزة سبحانه في أواخر سورة الفرقان بأوصافٍ ما أجملها! وما أعظمها! فقد قال: (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ٦٣ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا٦٤) (الفرقان: ٦٣، ٦٤).

ضيفنا في هذه السطور، واحد من أولئك الأبرار الذين أحبوا الله فأطاعوه وعبدوه، فأحبهم قبل أن يحبوه، فلقد كان من أشد الناس حرصًا على اتباع النبي ﷺ في سكناته وحركاته وكلماته، لقد كان يحب الرسول ﷺ حبًا جمًّا؛ يلازمه في أكثر المواطن، ولا ينسى تلك المواطن ولا ما فعله النبي ﷺ فيها، وكان يحاكيه في أفعاله كلما مر بها، تجسيدًا للحب ووفاءً بالعهد.

نحن على موعدٍ مع رجلٍ كان كأبيهِ عظيمَ الخشية من الله، شديد المراقبة له في السر والعلن، كان زاهدًا في كل شيءٍ حتى القضاء، فقد عرضوا عليه منصب القضاء أكثر من مرة، وهو يرفضه مع أنه جديرٌ به، ولكنه كان عازفًا عنه، نحن نلتقي مع المؤمن التقي عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

كان رضي الله عنه لا يحب أن يتولى وظيفةً فيها شبهة أو فتنة، ولذلك لم يرضَ أن يكون قاضيًا عندما عرض عليه أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه ذلك، ولقد كانت وظيفة القضاء في دولة الإسلام من أرفع مناصب الدولة والمجتمع، فقد كانت تضمن لشاغلها ثراءً واسعًا، وجاهًا عظيمًا، ومجدًا كبيرًا، ولكن ما حاجة عبد الله بن عمر رضي الله عنهما بمثل هذه المناصب، وهو الورع للثراء، وللجَاه وللمجد؟

فقد دعاه يومًا أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، وطلب منه أن يشغل منصب القضاء في دولة الإسلام، وقال: يا عبد الله، إنك من أفقه المسلمين بدين الله، وأوسعهم رواية لحديث رسول الله ﷺ، فاعتذر عبد الله بن عمر عن ذلك، وثابر على اعتذاره، وقال: يا أمير المؤمنين لا أقضي بين اثنين، فقال عثمان: كان أبوك يقضي بين الناس في عهد أبي بكر، فما يمنعك أنت؟ فقال عبد الله: اعذرني يا أمير المؤمنين. قال عثمان: أتعصيني يا ابن الخطاب؟ فأجاب عبد الله بن عمر: كلا ورب الكعبة يا أمير المؤمنين، لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: القضاة ثلاثة: قاض يقضي بجهل فهو في النار، وقاض يقضي بهوى فهو في النار، وقاض يجتهد ويصيب فهو كفاف، لا وزر، ولا أجر، وإني لسائلك بالله يا أمير المؤمنين أن تعفيني.

وقد أعفاه عثمان رضي الله عنه، بعد أن أخذ عليه العهد ألا يخبر بهذا أحدًا، ذلك أن عثمان يعلم مكانة ابن عمر في أفئدة الناس، وأنه ليخشى إذا عرف الأتقياء الصالحون عزوفه عن القضاء أن يتابعوه في ذلك، وينهجوا نهجه، وعندئذٍ لا يجد الخليفة تقيًّا يعمل قاضيًا.

عبرة

يا شباب، لقد كان ابن عمر رضي الله عنهما مثل أبيه ذا نفسٍ سامية، وهمةٍ عالية، وروحٍ شفافة، وبصيرةٍ نافذة ترى ما لا يراه الناظرون، وكان إيمانه يريه من نفسه ما هي جديرة به وموفقة إليه، فيستقبل في اليقظة ما يراه في المنام، فلولا مخافة ربه لزاحم الناس على الدنيا ولكان من الظافرين، بل إنه رضي الله عنه لم يكن بحاجةٍ إلى أن يزاحم، فقد كانت الدنيا تسعى إليه وتطارده بطيباتها ومغرياتها.

يا إخوة، لم يكن تخلِّي عبد الله بن عمر رضي الله عنهما تعطيلًا لوظيفة القضاء، بل آثر ابن عمر الجهاد في سبيل الله على أي مناصب، وكانت الدنيا قد فتحت على المسلمين في هذا الوقت وفاضت الأموال بين الناس، فخشيَ ابن عمر على نفسه حب الدنيا، وكان هذا مثلًا في الزهد والورع، وعزوفًا عن المناصب الكبرى، وقهرَ فتنتها وإغرائها.

إذا أنا مت فاجعله في كفني

ضيفنا في هذه السطور، عملاق متواضع في الله، خشن العيش، خشن المطعم، شديد في ذات الله، يرقع الثوب بالأدم، يحمل القربة على كتفيه مع عظيم هيبته، يركب حمارًا عريًا، والبعير مخطومًا بالليف، كان قليل الضحك لا يمازح أحدًا، كان نقش خاتمه: "كفى بالموت واعظًا".

نحن علي موعدٍ مع المحدث الملهم، الموفَق المسدَد الذي نطق بالحق وبه حكم، وبه عدل، إنه الشخصية المهيبة التي تملأ القلوب بالتوقير والإجلال، إنه الأواه الأواب، البكَّاء التواب، الخليفة العظيم عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

كان الفاروق عمر رضي الله عنه نفحة من نفحات العظمة الإسلامية التي أرادها الله بشير خيرٍ للمسلمين وللعالم في فترة خلافته، فقد كانت جيوشه تدك معاقل كسرى وقيصر، وهو هنا في الساعاتَ الأخيرة من الليل يطوف في شوارع المدينة لينظر أحوال الناس، لقد كان له اهتمام عجيب بمشاكل الناس، وممارسة فذة خارقة لمسؤولية الحاكم، ورحمة بالشعب من الضعفاء والفقراء.

فلقد كان يعسُ في الليل والناس نيام، يتفقد المنقطعين والمعوزين والبائسين، ففي ليلةٍ من الليالي العمرية في المدينة، مر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه متسترًا كعادته ليتعرف أخبار رعيته، فرأى عجوزًا فسلم عليها، وقال لها: ما فعل عمر؟ قالت: لا جزاه الله عني خيرًا يا بني، قال عمر: ولمَ يا أمة الله؟ قالت: لأنه والله ما نالني من عطائه منذ وُلي أمر المؤمنين دينار ولا درهم، فقال عمر: وما يدري عمر بحالك، وأنت في هذا الموضع؟ قالت: سبحان الله، والله ما ظننت أن أحدًا يلي عمل الناس، وهو لا يدري ما بين مشرقها ومغربها، فبكى عمر.

ثم قال: واعمراه! كل أحدٍ أفقه منك حتى العجائز يا عمر، ثم قال لها: يا أمة الله بكم تبيعينني ظلامتك من عمر؟ فإني أرحمه من النار، قالت: لا تهزأ بنا يرحمك الله، قال عمر: لست بهزاء بكِ يا أمة الله، ولم يزل بها حتى اشترى ظلامتها بخمسة وعشرين دينارًا.

وبينما هو كذلك، إذ أقبل علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما، فقالا: السلام عليكم يا أمير المؤمنين، فوضعت العجوز يدها على رأسها، ثم قالت: واسوأتاه، أشتمت أمير المؤمنين في وجهه!

فقال لها عمر: لا بأس عليك رحمك الله، ثم طلب رقعةً يكتب فيها فلم يجد، فقطع قطعة من ثوبه وكتب فيها: بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اشترى عمر من فلانة ظلامتها منذ ولي إلى يوم كذا وكذا بخمسة وعشرين دينارًا، فما تدعي عند وقوفه في المحشر بين يدي الله تعالى فعمر منه بريء، وقد شهد على ذلك علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود، وقد رفع عمر الكتاب إلى عبد الله بن عمر، وقال: إذا أنا مت فاجعله في كفني، حتى ألقى به ربي.

عبرة

أيها الأخوة الكرام، تلك هي رحمة عمر، رحمة القوي الحازم العادل، بمن يستحق الرحمة، رحمة الحاكم الناصح لأمته ودينه، فلقد رأينا كيف تفوَّق بمسؤولياته على كل خوالج النفس، ورغبات الأهل،

فلننظر كيف باشر مسئوليته تجاه الناس الذين استخلفه الله عليهم، وهنا نلتقي مثلما التقينا من قبل، وكما سنلتقي من بعد مع رجلٍ هو نسيج وحده، إنه يرى مسؤوليته مباشرةً عن كل رجلٍ في سربه، وعن كل امرأةٍ في بيتها، وعن كل رضيعٍ في مهده.

يا شباب، أحيانًا الإنسان يفعل مثل هذا، يفعل هذا استعراضًا، يفعل هذا تمثيلًا، يفعل هذا لينتزع إعجاب الناس، لكن هذا الخليفة العظيم حينما فعل هذه المواقف المتواضعة كان يحرص فيها على طاعة الله عز وجل، وعلى خدمة الخلق، فقد كان رضي الله عنه يرى أنه مسؤول عن ما يصيب الإنسان أو الحيوان داخل الدولة الإسلامية.

كدت أن تهلكني

من العظماء رجال لا يستطيع اللسان أن يُعبر عن مآثرهم ولا عن جوانب العظمة فيهم إلا على استحياءٍ يصحبه شعور بالقصور والتقصير، وذلك لأن العظمة في الرجال تتفاوت في مراتبها ودرجاتها كتفاوت الكواكب والنجوم في عليائها، ولا يعرف لهذا التفاوت قدر على وجه التحديد ولا على وجه التقريب إلا كما يعرف رجال الفلك من الظواهر الفلكية التي تبدو لأعينهم من بعيد، فيحكمون على ما يرونه بالظن والتخمين لا على وجه التحقيق واليقين، لأن الأعين مهما أبصرت فلن تبصر ما وراء الظواهر من أسرار، ولا ما يترتب على وجودها من آثار.

إن مظاهر العظمة تعرف ولا توصف، مثلها في ذلك كمثل الجمال، فإنه وصف مُركب من جملة خصائص وسمات روحية وعقلية وجسدية متشابكة يدل كل منها على الآخر، ثم يدل الجميع أن هذا الكائن جميل وعظيم ونفيس ولطيف إلى آخر هذه الأوصاف التي يُعبر قائلها عن إعجابه بما يراه ببصره وبصيرته.

ضيفنا في هذه السطور، أعظم رجال البشر على الأطلاق بعد الأنبياء، إنه إنسان قد اجتمعت فيه أوصاف الإنسانية المهذبة، ومؤمنٌ جمع في أقواله وأفعاله وأحواله كلها شعب الإيمان مجتمعة، لقد شهد له رسول الله بالصدِّيقية؛ وهي أعلى مراتب البشر بعد النبوة، أعلم الصحابة، وخير الصحابة، إنه ثاني اثنين، إنه رفيق درب الرسول في أعظم رحلة في تاريخ البشر، إنه الصدِّيق أبو بكر رضي الله عنه.

لقد كان الصديق رضي الله عنه قدوةً في ورعه وزهده يأسر القلوب ويبهر الألباب، فالزهد في نظره دعوة عملية للإسلام، ومن شدة يقظة الصديق وروعه لم يطق أن تستقر في جوفه لقمة يشك في مأتاها مجرد شك، لأنه يعلم أن من نبت جسمه من الحرام فالنار أولى به، ويعلم أنه من لم يطب مطعمه لا يكون مجاب الدعوة، ونحن في هذه السطور نعيش مع مشهدٍ من أعظم مشاهد الزهد والورع، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد الرائع.

كان لأبي بكر الصديق رضي الله عنه مملوك يغل عليه، فأتاه ليلة بطعامٍ فتناول الصديق منه لقمة، فقال له المملوك: كنت تسألني كل ليلةٍ عن الطعام من أين، ولم تسألني ًالليلة عن هذا الطعام الذي أكلت منه؟، قال الصديق: حملني على ذلك الجوع، من أين جئت بهذا؟ قال المملوك: مررت بقومٍ في الجاهلية، فرقيت لهم فوعدوني، فلما أن كان اليوم مررت بهم، فإذا عرس لهم فأعطوني.

قال الصديق: إن كدت أن تهلكني، فأدخل يده في حلقه فجعل يتقيأ، وجعلت اللقمة لا تخرج، فقال المملوك له: إن هذه لا تخرج إلا بالماء يا خليفة رسول الله ﷺ، فدعا الصديق بطستٍ من ماءٍ فجعل يشرب ويتقيأ حتى رمى بها، فقال له المملوك: يرحمك الله، كل هذا من أجل هذه اللقمة، قال الصديق: لو لم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها.

عبرة

يا أيها الأخوة الكرام، هذا مثالٌ على ورع أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حيث كان يتحرى الحلال في مطعمه ومشربه، ويتجنب الشبهات، وهذه الخصلة تدل على بلوغه رضي الله عنه درجات عُليا

في التقوى، ولا يخفى أهمية طيب المطعم والمشرب والملبس في الدين وعلاقة ذلك بإجابة الدعاء.

يا شباب، لم يكن الصديق رضي الله عنه يلتزم القناعة لمجرد الزهد، بل كانت قناعتهُ جزءًا من حياته، فهو يُقدس اللقمة الحلال، ويحاذر أن يدخل جوفه كسرة فيها شبهة حرام، وكان أيضًا يرى أن الحلال ليس من الكثرة بحيث يتسع للإسراف، فقد كان ليُؤْثر أن يشد على بطنه الحجر كما فعل معلمه ورسوله وحبيبه ﷺ، على أن تدخل أمعاءه لقمة فيها شبهة، وعلى هذا يجب أن يكون الصديق رضي الله عنه قدوتنا في عدمِ مساس الحرام.

الخليفة يمشي في الأسواق

ما أكثر الرجال الذين يُقتدى بأفعالهم في تاريخنا الإسلامي الناصع، وما أجلُّ الرجال الذين يتأسى بأقوالهم في حضارتنا الإسلامية، وعلى رأس هؤلاء أبو السبطين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، الذي نشأ في بيت النبوة ينْعم بأخلاف وتربية ابن عمه النبي ﷺ، فقد أكسبته هذه الفترة التي عاشها في هذا البيت من الصفات الخلقية ما تكونت بها شخصيته الفتية القوية، التي لا تدين إلا لله، ولا تنتصر إلا الحق، ولا تسعى إلا في الخير.

فكان كلما تعاظمت مسؤولياته، تألقت فضائله ومزاياه، وتلك أصدق دلائل العظمة الإنسانية، وأوثق براهينها، فحيث تثقل المسؤوليات كالجبال، وحيث تفرض خلال احتدامها وجيشانها توتُرًا قاسيًا على الإرادة والفكر، تجد الفضائل الطارئة فرصتها للانكماش والتقهقر، أما الفضائل الأصلية الجليلة فلا شيء يشحذ تفوقها واقتدارها مثل هذا المجال.

لقد كتب علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن تكون حياته موكبًا موصولًا من المسؤوليات الجسام، التي جعلت حياته عرَضًا مستمرًا لفضائله المتألقة، وعظمته السامقة، إن إحساسه وإيمانه بالمسؤولية لعجيبان، فلقد كان أمير المؤمنين رضي الله عنه في أثناء خلافته يمشي في أسواق الكوفة، فيرشد الضال، ويعين الضعيف، ويلتقي الشيخ المسن فيحمل عنه حاجته، ويتحرج أصحابه مما يرون، فيقتربون منه فيقولون له: يا أمير المؤمنين، ولكنه لا يدعهم يتمون حديثهم بل يتلو عليهم قول الله تعالى: (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) (القصص: ٨٣).

ولقد ذكر شيخ المؤرخين ابن كثير رحمه الله: أن رجلًا جاء إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: يا أمير المؤمنين إن لي إليك حاجة، رفعتها إلى الله تعالى قبل أن أرفعها إليك، فإن قضيتها حمدت الله عز وجل وشكرتك، وإن لم تقضها حمدت الله عز وجل وعذرتك، فقال علي: اكتب حاجتك على الأرض، فإني أكره أن أرى ذل السؤال في وجهك، فكتب: إني محتاج، فقال علي: علي بحلة فأتى بها، فأخذها الرجل فلبسها، ثم أنشأ يقول:

كسوتني حلة تبلى محاسنها فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا إن نلت حسن ثنائي نلت مكرمة ولست أبغي بما قد قلته بدلا إن الثنا ليحيي ذكر صاحبه كالغيث يحيي نداه السهل والجبلا لا تزهد الدهر في خير توقعه فكل عبدٍ سيجزى بالذي عملا

فقال علي: علي بالدنانير، فأتى بمئة دينار فدفعها إليه، فقال الأصبغ: يا أمير المؤمنين، حلة ومئة دينار، قال أمير المؤمنين: نعم، لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: أنزلوا الناس منازلهم، وهذه منزلة هذا الرجل عندي.

عبرة

يا أيها الإخوة الكرام، إن أسعد الرعاة من سعدت به رعيته، وإن أشقى الرعاة عند الله عز وجل من شقيت به رعيته، فهذا الموقف الجليل لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الوقوف عند حاجات المحتاجين، والاهتمام بأمورهم ورعاية مشاعرهم، فلقد اعتاد رضي الله عنه دائمًا أن

يتصرف تصرف القدوة، فهو في كل حركاته، وقراراته، وأعماله يلتزم واجبات القدوة، وكانت أفعاله وخطواته رضي الله عنه، تُشكل طريقًا عامًا للأجيال المقبلة على طول الزمن وعرضه.

يا شباب، إن مدرسة النبي ﷺ مدرسة تربوية سامية عالية، تربَّى فيها الصحابة على حسن الأخلاق، فلقد امتلأت عيونهم وقلوبهم وآذانهم وكل جوارحهم بأحسن الأخلاق، وقد فاضت الأخلاق النبوية على من حولها فروَت النفوس وطيب السلوكيات، وطابت بها وزكت الأرواح والضمائر والأخلاق، ولقد رأينا في هذا المشهد الرائع كيف هذبت الأخلاق النبوية قلوب الصحابة.

بئس الوالي أنا

كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتحمل مسؤوليته كاملة، ويشعر شعورًا عميقًا بثقل أعبائها، وكان يتحمل المسؤولية قبل توليه الحكم، وبعد أن أصبح أميرًا للمؤمنين، وقد كان يُبدي رأيه صريحًا حتى للرسول ﷺ والقرآن ينزل، إلى أن تناول عمر مسئولياته، يبدو أروع وأبهى ما يكون عندما صار حاكمًا للمسلمين، هنا نلتقي بأعظم آيات التفوق الإنساني، هنا نبصر نبوغ النفس، وبطولة الروح، وإعجاز السلوك.

كان عمر حاكمًا يحمل مسؤولياته على نمطٍ فذّ، ويعطي البشر جميعًا إلى آخر لحظة في الأبد درسًا في الأمانة أي درس، وقدوة في الذمة أي قدوة، فلم تكن سنوات الفتح مزدهرةً دومًا، فالفتح حياة كاملة، والحياة فيها يُسرٌ وعُسر، الفتح ليس مجرَد انتصار في مواجهة عدوٍ ما عسكريًا أو اقتصاديًا أو في أي مجالٍ منافسة وإبداع، إنه أيضًا في مواجهة الكوارث، والأزمات الطبيعية، التي تكون بمثابةِ امتحانٍ لصلابة مجتمعٍ ما، فقد مرَ المسلمون في عهد الفاروق عمر بامتحاناتٍ عسيرة، كان علامةَ فارقةَ في ذلك العهد، وترك علامةَ فارقةَ في الفقه العمريّ.

بل لقد ترك علامةً فارقةً حتى على وجه عمر، ففي عام الرَمادة كان هذا العام حافل بالمنجزات للفاروق، فلقد شارك الناس المحنة، ولم يفرق بينه وبينهم بدعوى أنه أميرهم، فقد أصاب الناس عام الرمادة شدة ومجاعة، فغلا فيها السمن، وكان عمر يأكله، فلما قل، قال: لا آكله حتى يأكله الناس، فكان يأكل الزيت.

من ينظر لموقفه هذا يجد أنه قد فعل ذلك بروح المسؤولية التي حبَبت إليه أن يكون أول من يجوع إذا جاع شعبه، وآخر من يشبع إذا شبعوا، والتي فرضت عليه أن يعاني كل ما يعانيه الناس من عملٍ وشظف.

وإنه رضي الله عنه ليصور هذا الضمير القوي في فلسفةٍ حكيمة فيقول: كيف يعنيني شأن الناس، إذا لم يصبني ما يصيبهم، وهكذا رأينا أمير المؤمنين يلتزم أكل الزيت، حين أصابت المسلمين أزمة شديدة في اللحم والسمن، ويدمن ابن الخطاب أكل الزيت حتى تئن أمعاؤه وتقرقر، فيضع كفَه على بطنه، ويقول: أيها البطن لتمرننَّ على الزيت، ما دام السمن يُباع بالأواقي.

لقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أكثر الناس إحساسًا بهذا البلاء، وتحملًا لتبعاته، فقد ضرب رضي الله عنه من نفسه القدوة والمثل في هذه الأزمة، فيذكر ابن سعد في الطبقات: أن عمر بن الخطاب أتى بخبزٍ مفتوت بسمنٍ عام الرمادة، فدعا رجلًا بدويًا فجعل يأكل معه، فجعل البدوي يتبع باللقمة الودك في جانب الصحفة، قال له عمر: كأنك مقفر من الودك، فقال الرجل: أجل يا أمير المؤمنين، ما أكلت سمنًا ولا زيتًا، ولا رأيت آكلًا له منذ كذا وكذا إلى اليوم، فحلف عمر لا يذوق لحمًا ولا سمنًا، حتى يحيا الناس أول ما أحيوا.

وقد تأثر عمر في عام الرمادة حتى تغيَّر لونه رضي الله عنه، ولقد كان عمر رجلًا عربيًا يأكل السمن واللبن كما ذكرنا، فلما أمحل الناس حرَّمهما على نفسه، ليكون قدوة لغيره من الحكَّام على مر

الزمان، فكان في هذا العام إذا أمسى أتى بخبزٍ قد سرد بالزيت، إلى أن نحروا يومًا من الأيام جزورًا فأطعمها الناس، وغرفوا له طيبها، فأتى به، فإذًا قدر من سنام ومن كبد.

فقال عمر: هل هذا لي؟ قالوا: نعم يا أمير المؤمنين، من الجزور التي نحرنا اليوم، قال عمر: بخ بخ، بئس الوالي أنا إن أكلت طيبها وأطعمت الناس كراديسها – أي رءوس العظام، ارفع هذه الجفنة، هات لنا غير هذا الطعام، ثم قال: أتى بخبز وزيت، فجعل يكسر بيده، ويثرد ذلك الخبز، ثم قال: ويحك يا رفأ اسم غلامه وكان على بيت المال احمل هذه الجفنة حتى تأتي أهل بيت يثمغ مكان قريب من المدينة، فإني لم آتهم منذ ثلاثة أيام، فأحسبهم مقفرين، فضعها بين أيديهم.

عبرة

يا شباب، إن قوله بئس الوالي أنا إن أكلت طيبها يرسم الصورة الكاملة المضيئة لروح المسؤولية التي كانت تسيطر على تصرفات ذلك الحاكم المنقطع النظير، إنه رجل يرى نفسه واحدًا من الناس، آثره الله عليهم بمزيدٍ من التبعة والواجب حين ولَّاه أمرهم، واستخلفه عليهم، ولم يُؤثره بامتيازٍ يجعل الحكم كلأً مباحًا، وقنصًا بواحًا.

لقد أخذ عمر بن الخطاب رضي الله عنه على نفسه وأهله بحالٍ من الزهد حتى قد ساوى نفسه بفقراء ومساكين المسلمين، وهو في نفس الوقت أمير المؤمنين، فلم تدعه نفسه إلى لذيذ العيش، ونعيم الدنيا، ولم يهتم إلا بشيءٍ واحد فقط، ألا وهو رفع المعاناة عن المسلمين.

يا أخي الكريم، ليس في الإسلام إيمان بلا عمل، فالإيمان والعمل قرينان كما قال رب العزة سبحانه: (فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (الأنعام: ٤٨).

فالإيمان بالله يتبعه عبادة ظاهرة لله، وذلك مع سلوكٍ طيب مع الناس، فلا يمكن أبدًا لمؤمن يصلي ثم تراه يتكبر على الناس، ويمشي مغرورًا مختالًا، ويرفع صوته هكذا بلا ضابط، ولقد كان رسول الله ﷺ معروفًا بالصادق الأمين قبل أن يبعثه الله للناس، وكان بعد بعثته قدوة للمؤمنين في الحلم والرفق والكرم والأمانة والصدق والقوة والشجاعة.

أميرنا فقير

إن أيةَ تجارة قد تخسر وقد تربح، ولكن من أراد التجارة الرابحة التي لا تخسر أبدًا فعليه أن يتاجر مع الله عز وجل، واعلم يا أخي أن ثباتك على الحق يثمر لك كل خيرٍ في الدنيا والآخرة.

ضيفنا في هذه السطور من هذا الصنف من البشر، زهد في الدنيا الفانية، ونظر إلى طلابها بعين الحقارة، وسلك منهج السابقين بالحث والنذارة، ورغب عن الدنيا مع تقلد الولايات، وقيامه فيها برعايته العهود والأمانات.

نحن على موعدٍ مع رجلٍ وجدت في كل الفضائل العظيمة لهذا الإنسان الطيب الطاهر أخًا وصديقًا كبيرًا، وحين نسعى للقاء عظمته ورؤيتها علينا أن نكون من الفطنة؛ بحيث لا نُشغل عن هذه العظمة وندعُها تفلت منا وتتنكر، فحين تقع العين عليه في الزحام، لن ترى شيئًا يدعوها للتلبث والتأمل، ستجد العين واحدًا من أفراد الكتيبة النامية أشعث أغبر، ليس في ملبسه ولا في شكله الخارجي ما يُمَيزه عن فقراء المسلمين بشيء، نحن نلتقي مع الصحابي الجليل سعيد بن عامر رضي الله عنه.

وأسوق تلك القصة على وجه السرعة إلى كل راعٍ استرعاه الله رعية صغرت أم كبرت لكي يتعلم أن الولاية تكليفٌ لا تشريف، وأنها أمانة، وأنها يومَ القيامة خزيٌ وندامة، والآن نعيش سويًا مع هذا المشهد المهيب.

كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يطالب من أهل الأمصار أن يرفعوا له أسماء فقراء كل مدينة، فجاء إليه وافد مدينة حمص، فقال عمر لهم: اكتبوا لي أسماء فقرائكم حتى أقضي حاجتهم، فكتبوا له ما أراد من أسماء الفقراء، فوجد اسم الصحابي الجليل ولي مدينة حمص سعيد بن عامر الجمحي رضي الله عنه، فقال عمر: من سعيد هذا؟ قال القوم: أمُيرنا سعيد بن عامر يا أمير المؤمنين، قال عمر: أميركم سعيد من الفقراء، أين عطاؤه، أين رزقه؟!

قال القوم: يا أمير المؤمنين لا يمسك عنده شيئًا، والله يا أمير المؤمنين إنه لتمر عليه الأيام الطوال ولا يوقد في بيته نار، فبكى عمر رضي الله عنه حتى بللت دموعه لحيته، ثم عمد إلى ألف دينار فجعلها في صرة، وقال: أقرئوه مني السلام، وقولوا له بعث إليك أمير المؤمنين هذا المال لتستعين به على قضاء حاجاتك.

فلما ذهب الناس إلى أميرهم سعيد أعطوه الصرة، وقالوا له: هذا المال أرسله أمير المؤمنين إليك، فنظر فيها فإذا هي دنانير فجعل يبعدها عنه، وهو يقول إنا لله وإنا إليه راجعون، فسمعت

زوجته كلامه، فقالت: يا سعيد أمات أمير المؤمنين؟ قال سعيد: بل أعظم من ذلك بكثير، قالت: أأصيب المسلمون في معركة؟ قال سعيد: بل أعظم من ذلك، قالت: وما أعظم من ذلك؟ قال سعيد: الدنيا أتتني، الفتنة دخلت عليَّ لتفسد آخرتي، قالت: فاصنع فيها ما شئت، قال: هل عندك عون؟ قالت: نعم، قال: فأخذه فصره صررًا، ثم جعلها في مخلاة، ثم اعترض جيشًا من جيوش المسلمين فأمضاها كلها.

قالت امرأته: رحمك الله لو كنت حسبت منها شيئًا نستعين به، فقال لها: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: لو اطَلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى أهل الأرض لملأت ريح مسك، وإني والله ما كنت لأختارك عليهن، فسكتت.

عبرة

هكذا أيها الإخوة، يكون المسلم الذي لا يتعلق قلبه بحطام الدنيا الفانية، بل يتطلع دومًا وأبدًا إلى النعيم المقيم في جنات الخلود التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فلا مناصب تغير المؤمنين ولا مال، يا أخي الكريم ما عند الله لا ينفد أبدًا، ما عند الله خير مما في يد العباد، فكن بما في يد مولاك أوثق بما في يدك، فمن الذي سأله فما أعطاه؟ ومن الذي دعاه فما لباه؟، ومن الذي طلب منه فما أعطاه؟

يا أيها الإخوة الكرام، أي حظ من الهدى ناله هذا الطراز من البشر؟ هل تستطيع الأرض أن تحمل فوق ظهرها عددًا كثيرًا من البشر في وقتٍ واحد إلا هذا الجيل الفريد؟ فهذا سعيد بن عامر رضي الله عنه كان عطاؤه وراتبه كبيرين بحكم عمله على ولاية حمص، ولكنه كان يأخذ فقط منه ما يكفيه وزوجه، ثم يوزع بقيَّة هذا المال على بيوت الفقراء، يا أخي نعم، توسع على نفسك وأهل بيتك في النفقة وخذ من طيبات الحياة، ولكنه يجيب دائمًا بأن يردد: ما أنا بالمتخلف عن الرعيل الأول في شيء.

اتق الله في نفسك

مهما كتبنا عن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه فإننا لا نوفيه حقه من إجلالٍ وتعظيم، فهو صحابي تقي نقي زاهد، جاهد في سبيل الله بنفسه وماله بإخلاصٍ تام، ولم يبتغ من دنياه قليلًا ولا كثيرًا، ولقد ظل محمودَ السيرة، عظيم الشأن عند المؤمنين جميعًا، لم يبغضه واحد منهم ولم يعب عليه شيئًا فيما نعلم حتى لقيَ ربه، فقد كان رضي الله عنه لا تستطيع الدنيا أن تصل إلى قلبه بحالٍ من الأحوال، فهو إن كان يعيش على الدنيا بجسدهِ إلا أنَّ روحه تسرح في جنة الرحمن؛ فهو لا يريد سواها.

فهذا الفاروق عمر يرسل له بأربعة آلاف درهم وأربعمائة دينار، وقال لرسوله: انظر ما يصنع، فقسَمها أبو عبيدة، فلما أخبر الرسول عمر بما صنع أبو عبيدة بالمال، قال: الحمد لله الذي جعل في الإسلام من يصنع هذا.

نعم يا إخوة لم يكن ذلك عجيبًا من أبي عبيدة، فقد بلغ من قوة إيمانه بالله ونصحه لدينه، والأمانة على أمة محمد ﷺ مبلغًا طمحتْ إليه نفوسٌ كبيرة عند الله.

وبعد أن فتح المسلمون بيت المقدس في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، دخل عمر على أبي عبيدة بن الجراح في دارٍ كان قد اتخذها لنفسهِ بعد أن سلَّم أهل القدس على أمان عمر، وأبو عبيدة إذ ذاك أمير الجيوش الإسلامية على جبهة الشام، فما وجد عنده إلا حصيرًا، وسادة، وقطيفة يتغطى بها إذا نام، ووجد عنده صحيفة فيها زيت وملح، ومعها كسرة خبز، وجرة ماء.

فاستحيا عمر من أبي عبيدة، وقال له: اتق الله في نفسك يا أبا عبيدة فإن الله أحل لك أكثر من هذا، وأنت أمير القوم، فقال أبو عبيدة: ليس لي عند الله، وعند المسلمين إلا ما يظلني، ويسد جوعي، ويروي ظمئي، أما الشارة يا عمر فهي الإسلام.

فبكى عمر بكاءً شديدًا حتى أقبل عليه أبو عبيدة يسأله: أن يخفف عن نفسه، ويرفق بها، فقال عمر: دعني أبكي يا أبا عبيدة، فإنما بكائي محبة لرسول الله الذي أخرج رجال مثلك.

عبرة

يا شباب، لقد عاش أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه عازفًا عن الحياة الدنيا وزينتها راغبًا عنها، وإنما كان ذلك إيمانًا منه بأن الدار الآخرة هي خير وأبقى للمؤمنين، فهل الحياة يا أخي إلا دقائق وثوان تمُر سراعًا؟!، والكيس فيها من دان نفسه وعمل لما بعد تلك الحياة إلى حياةٍ أخرى سرمدية.

يا أيها الإخوة الكرام، المراقبة هي دوام علم العبد وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه واستدامته لهذا العلم، واليقين هو المراقبة وهو ثمرة علمه بأن الله تعالى رقيب عليه، سامع لقوله ناظر إليه، وهو سبحانه مطلع على عمله كل وقتٍ وكل لحظةٍ، وكل نفسٍ، وكل طرفةِ عين.

يا شباب، لقد كان الصحابة الكرام هم أعلم الخلق بالله، وأعرف البشر بدين الله عز وجل، كانت نظرتهم إلى الدنيا هي النظرة الأكمل والأصوب، جعلوها مزرعة للآخرة، وعرفوا أنها ظل زائل،

وعارية مسترجعة، وأن الآخرة خير وأبقى، فقد رباهم رسول الله على ذلك فكانوا هم أول من استجاب للحق.

اللهم لا تخيب ظني فيه

كان أسلوب عمر بن الخطاب رضي الله عنه في اختيار ولاته ومعاونيه، أسلوب يجمع أقصى غايات الحذر والدقة والأناة، ذلك أنه كان يؤمن أن أي خطأ يرتكبه والٍ في أقصى الأرض سيسأل الله عنه اثنين عمر أولًا، وصاحب الخطأ ثانيًا، ومعاييره في تقييم الناس واختيار الولاة مرهفة ومحيطة وبصيرة، أكثر ما يكون البصر حدة ونفاذًا، فكيف كان عمر يباشر مسؤوليته تجاه وُلاته ومعاونيه في الحكم؟

لقد كان يباشرها على طريقته التي لا تتغير، والتي لا نرى في نماذجها مهما تتكاثر أدنى تفاوت، وكان يختارهم في حرصِ من يختار مصيره، إنه يعدُ نفسه مسؤولًا عن كل غلطةٍ يرتكبها أحد ولاته، علم بها عمر أم لم يعلم، ومن ثمَّ فهو يقلب وجهه، ويعمل فكره، ويستخير ربه، ويستشير صحبه، ويستأنى قبل أن يختار عامله ومعاونه، وكان يقول لأصحابه: أرأيتم إذا استعملت عليكم خير من أعلم، ثم أمرته بالعدل، أيبرئ ذلك ذمتي؟، فيقول أصحابه: نعم، فيقول: أيما عامل لي ظلم أحدًا، وبلغتني مظلمته فلم أغيرها فأنا ظلمته.

ضيفنا في هذه السطور أحد ولاة عمر الأبرار، ومن المؤمنين الذين صدقوا الله في أقوالهم وأفعالهم ونياتهم، وأخلصوا لله دينهم، ووهبوا دنياهم لخالقهم ومولاهم؛ فجعلوها مزرعة لآخرتهم، وجعلوا ذكر الله فيها جنتهم، فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، نحن على موعدٍ مع الزاهد العابد التقي سعيد بن عامر رضي الله عنه، ونحن في هذه السطور نعيش مع مشهدٍ عظيم لهذا الرجل الزاهد العظيم.

انطلق أمير المؤمنين كعادته يتقصَّى أحوال الولاة خوفًا من أن تدخل الدنيا إلى قلوبهم أو أن يكون هناك مظلمة واحدة في أي بلدٍ من بلاد المسلمين، فلما قدم عمر حمص، وكانت يومئذٍ توصف بأنها الكوفة الثانية، وسبب هذا الوصف: كثرة تمرُّد أهلها واختلافهم على ولاتهم، ولمَّا كانت الكوفة في العراق صاحبة السبق في هذا التمرُّد، فقد أخذت حمص اسمها، وعلى الرغم من ولع الحمصيين بالتمرُّد فقد هدى الله قلوبهم لعبده الصالح سعيد بن عامر رضي الله عنه فأحبوه وأطاعوه، ولقد سأله عمر يومًا فقال: إن أهل الشام يحبونك؟، فأجابه سعيد قائلًا: لأني أعاونهم وأواسيهم.

بيد أنه مهما يكن حب أهل حمص لسعيد فلا مفرَّ من أن يكون هناك بعض التذمر والشكوى منه، على الأقل لتثبت حمص أنها لا تزال المنافسة القوية لكوفة العراق، فسأل عمر أهلها كيف وجدتم أميركم؟ فشكوه إليه وذكروا أربعًا من أفعاله، فقال عمر: فجمعت بينه وبينهم، ودعوت الله ألا يخيب ظني فيه؛ فقد كنت عظيم الثقة به، فلما أصبحوا عندي هم وأميرهم.

قلت: ما تشكون من أميركم؟، قالوا: لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار، فقلت: ما تقول في ذلك يا سعيد؟ فسكت قليلًا ثم قال: والله إني كنت أكره أن أقول ذلك، أمَّا وإنَّه لا بُدَّ منه فإنه ليس لأهلي خادم، فأقوم في كل صباحٍ فأعجن لهم عجينهم، ثم أتريث قليلًا حتى يختمر، ثم أخبزه لهم، ثم أتوضأ وأخرج للناس.

قال عمر: فقلت لهم: وما تشكون منه أيضًا؟ قالوا: إنه لا يجيب أحدًا بليل، قلت: وما تقول في ذلك يا سعيد، قال: إني والله كنت أكره أن أعلن هذا أيضًا، فأنا قد جعلت النهار لهم، والليل لله عز وجل.

قلت: وما تشكون منه أيضًا؟ قالوا: إنه لا يخرج إلينا يومًا في الشهر، قلت: وما هذا يا سعيد؟ قال: ليس لي خادم يا أمير المؤمنين، وليس عندي ثياب غير التي عليَّ، فأنَا أغسلها في الشهر مرة وأنتظرها حتى تجف، ثم أخرج إليهم في آخر النهار.

قال عمر: وما تشكون منه أيضًا؟ قالوا: تصيبه من حينٍ إلى حين غشية فيغيب عمَّن في مجلسه، فقلت: وما هذا يا سعيد؟ قال: شهدت مصرع خُبَيب بن عديّ رضي الله عنه وأنا مشرك، ورأيت قريشًا تُقطِّع جسده وهي تقول له: أتحب أن يكون محمدٌ مكانك؟ فيقول: والله ما أحب أن أكون آمنًا في أهلي وولدي، وأنَّ محمدًا ﷺ تشوكه شوكةٌ، وإني والله ما ذكرت ذلك اليوم وكيف أنِّي تركتُ نصرته إلا ظننت أن الله لا يغفر لي، وأصابتني تلك الغشية.

انتهت كلمات سعيد، التي كانت تغادر شفتَيه مبللة بدموعه الورعة الطاهرة، لم يتمالك عمر نفسه ونشوته فصاح من فرط حبوره: الحمد لله الذي لم يُخيِّب ظني به، وعانق عمر سعيدًا، وقبَّل جبهته المضيئة العالية.

عبرة

يا شباب، كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يُعطي الولاية لمن يريدها، بل كان يعطيها لمن يهرب منها، ولمن امتلأ قلبه خوفًا من الله، وحبًا لمن حوله من البشر، وزهدًا في الدنيا، ورغم ذلك كان رضي الله عنه كعادته يتقصَّى أحوال الولاة خوفًا من أن تدخل الدنيا إلى قلوبهم أو أن يكون هناك مظلمة واحدة في أي مصر من الأمصار، فكان يذهب بين الحين والآخر إلى بلدٍ من البلدان يتفقد أحوال الناس.

يا أيها الإخوة الكرام، أيُّ حظٍ من الهدى ناله هذا الطراز الفريد من الخلق؟ وأيُّ معلم كان رسول الله ﷺ؟ وأيُّ نور نافذ كان كتاب الله وما زال؟ وأيُّ مدرسة ملْهمة ومعلمة كانت مدرسةً الإسلام؟ ولكن هل تستطيع الأرض أن تحمِلَ فوق ظهرها عددًا كثيرًا من هذا الطراز مرة أخرى؟ إنه لو حدث هذا مرةً أخرى لما بقيت أرضًا؛ بل كانت تصير فردوسًا، أجل تصير الفردوس الموعود، ولمَّا كان الفردوس لم يأتِ زمانه بعد، فإن الذين يمرُون بالحياة ويعبرون الأرض من هذا الطراز المجيد سيمرون حتمًا إلى فردوس السماء، وهم قليلون دائمًا ونادرون، وسعيد بن عامر رضي الله عنه واحد من هذا الطراز.

يا شباب، إن الرسول ﷺ هو الذي غرس فيهم صدق الزهد في هذه الدار، وعظمة الرغبة في الآخرة الباقية، وذلك بسنته وسيرته وحاله في حياته ﷺ، ولقد سار على هذا المنهج هؤلاء الأخيار، وواصلوا العبادة لله بالليل والنهار، وتعطرت مناجاتهم نسائم الأسحار، واستقاموا على ذات الدرب الذي خطَّه لهم نبينا الكريم، فيا ليتنا يا شباب نعي هذا الدرس، ونملأ ألسنتا وأعيننا وجوارحنا وقلوبنا بطاعة ربنا حتى نكون مثل هؤلاء الصفوة الكرام!

التقي الورع

أصحاب النبي ﷺ كالنجوم الزاهرة، والكواكب النيرة، إذا نظرت في كل جانبٍ من جوانب سيرهم رأيت فيه شعاعًا قد اقتحم قلبك وملك عليك مشاعرك، ووجدت فيه ما يهديك إلى رشدٍ تنتظره، ويدفعك إلى خيرٍ ترجوه، وقد فضَّل الله بعضهم على بعض، كما فضَّل النبيين بعضهم على بعض، وهذا التفضيل يتفاوت بحسب تفاوتهم في الإخلاص والسَبْق إلى الإسلام، وغير ذلك مما خصَّهم به من قدراتٍ وملكات، فلا يستوي من سارع إلى الإسلام دون أن يتردد في قبوله لحظةً بمن كانت له فيه كبوة أو كبوات، وكلًا وعد الله الحسنى.

ضيفنا في هذه السطور، صاحب الشجاعة النادرة، والبلاغة الآسرة، والزهد الصادق، والتقوى العظيمة، لأنه أخذ الدين من منابعه، وأترع قلبه وعقله وجوارحه بنور هذا الدين، حيث عاش مع رسول الله وتربى على يديه، وفدى رسول الله بنفسه، وبذل وجاهد وجالد حتى تسابقت إليه الفضائل والمناقب. نحن على موعدٍ مع التقي الذي تربَى في حقل الإسلام، وسُقيَ بماء الوحي، فكان زهرة يانعة طاب ريحها وملأ أرجاء الكون كله، وما زلنا نشم عطر سيرته حتى يومنا هذا، وسيظل هذا العبير ينشر عطره عبر العصور والأزمان على أرجاء الكون ليعلم البشر كيف استطاع الحبيب ﷺ أن يُربِّي أصحابه ليكونوا نجومًا في سماء الدنيا تضيء للناس طريقهم إلى الله عز وجل، نحن نلتقي مع أبي السبطين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

إن حياة أبي تراب علي بن أبي طالب رضي الله عنه تتفجَّرَ عظمةً وجلالًا وإعجازًا، فمن عظمة نفسه وعلو همته، تتداح رحابٌ ليس لها أبعاد تتلألأ عليها بطولاتٌ وتضحيات، عظائمٍ وأمجاد، تكاد تحسبها لولا صدْق التاريخ أحلامًا وأساطير، مسلمٍ عظيم، يفجرُ الدنيا من حواليه ذمةً، واستقامةً، وطهرًا، وذُرًا سامقة، وغاياتٍ بعيدة، عظمة لن تكُف عن توكيد ذاتها ما دام صاحبها حيًّا يمارس العظائم، ويصوغ المكرمات.

لقد عاش رضي الله عنه في خلافته، يلبس الخشن من الثياب، ويتعفف عن أموال المسلمين، قال أبو سعيد الأزدي: رأيت عليًا في السوق وهو يقول: من عنده قميص صالح بثلاثة دراهم؟

فقال رجل: عندي يا أمير المؤمنين، فجاء به، فأعجبه، فأعطاه ثم لبسه، فإذا هو يفضل عن أطراف أصابعه، فأمر به لقطع ما فضل عن أصابعه، وقد عوتب في لباسه الرخيص، فقال: مالك واللبوس؟ إن لبوسي هذا أبعد من الكبر، وأجدر أن يقتدي به المسلم.

ودخل عليه رجل في أيام البرد، فوجده يرتعد من البرد، وهو يلبس دثارًا باليًا، فقال له: يا أمير المؤمنين إن الله قد جعل لك ولأهل بيتك في هذا المال، وأنت تصنع بنفسك ما تصنع؟ فقال علي: ما أرزؤكم من مالكم، وإنها لقطيفتي التي خرجت بها من المدينة.

وهذا يدل على روحه وطبيعته وطراز الحياة التي يحبها رضي الله عنه.

وكان رضي الله عنه يُخرِج كل ما كان في بيت المال لمستحقيه، حتى إذا فرغ بيت المال، يأمر رضي الله عنه أن تُنضح أرضه، ويُغسل بالماء، حتى إذا تم ذلك، قام فصلَّى فوق أرضه المغسولة ركعتين.

لقد كانت هذه الصلاة في بيت المال، بعد أن نضح أرضه بالماء، رمزًا لمعنًى جليل، كان إيذانًا بعهدٍ جديد، تسيطر فيه الآخرة على الدنيا، ويسترد الورع والتُقى نفوذهما على الدولة، وعلى المجتمع، وعلى الأنفس والأفئدة جميعًا.

عبرة

يا أيها الإخوة الكرام، مع عظمة علمه رضي الله عنه، وعلو فضله كان زاهدًا في الدنيا، فالدنيا عنده، ليست محلًا للتنافس، ولا ميدانًا للتسابق في تحصيل الشهوات، فالدنيا حلالها حساب، وحرامها عذاب، فكيف لا يزهد فيها، فأيُّ حياةٍ زهيدة تلك التي عاشها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ليتنا نتأسى بأفعاله، ونقتدي بأقواله، لقد كانت لا تعرف نفسه الكبرياء أو التعالي، حقًّا لقد رضي الله عنه، ورضي هو عن ربه، فاستحق السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة.

يا شباب، لو إننا نجحنا في غرس الخوف من الله والمراقبة له سبحانه في قلوبنا أولًا، وفي قلوب من حولنا ثانيًا؛ لأنزل الله علينا كثيرًا من البركات والتوفيق والسداد في أعمالنا وأحوالنا، ولرفع عنَّا الكثير من البلاء والمِحن، لو خفنا من ربنا حقًّا لجعلنا دينه أغلى وأعز علينا من دمائنا ونفوسنا، ولنا في علي بن أبي طالب رضي الله عنه القدوة الحسنة.

روائع من كرم وبذل الصحابة

إنـي لأحب أن يغفر الله لي

إنَّ الإطلالة على سير هؤلاء العمالقة العظماء؛ تمد المرء بتجارب جليلة، يتعلم منها مرضاةَ الله ورسوله، وما يصلح أحواله من زاده لميعاده، فهم كالنجوم يهتدي بها الإنسان في طريقِ سيره إلى ربه جل وعلا، فيعيش الإنسان حياته لله، ويخوض غمار التجارب لربه، فهو يعمل لله، ويعيش مع الله، ويحيا بحب ربه.

ضيفنا في هذه السطور عملاق من هذا الصنف من البشر، رجلٌ ذو خلق من معدن العظمة والامتياز، لم يخلق رجلًا كسائر الرجال، أحبه رسول الله ﷺ حبًا لا يُعبر عنه لسان، ولازمه ملازمة الصاحب الذي يعز على أحدهما أن يفارق الآخر في ليلٍ أو نهار، لم يجد الرسول ﷺ في الناس - كل الناس- أقرب إليه في الخلق والمثل العليا من هذا الرجل، فقد كان طرازًا فريدًا في شأنه كله، نحن على موعدٍ مع الشيخ العظيم أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

فلله درك يا أبا بكر، فكل حياتك مواقف تعجز عن وصفها الكلمات، بل تعجز عن وصفها المجلدات؛ فقد كان مدرسةً في عدله، وكرمه، وزهده، وخوفه من ربه، وفي اتباعه لسنة نبيه ﷺ، وفي قول الحق لا يخشى في الله لومة لائم، وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه فوق كل ذلك وقافًا عند كتاب الله عز وجل، فلا يقدم شيئًا ولا يؤخره إلا إذا كان موافقًا لأمر الله عز وجل.

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في حادثة الإفك وفيه قالت: لمَّا أنزل الله في براءتي، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد الذي قاله في عائشة، فأنزل الله: (وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (النور: ٢٢).

فقال أبو بكر: بلى والله، إني لأحب أن تغفر لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها عنه أبدًا.

هنا نطَّلع على أفقٍ عالٍ من آفاق النفوس الزكية، التي تطهرت بنور الله، أفق يشرق في نفس أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أبي بكر الذي مسَّه حديث الإفك في أعماق قلبه، والذي احتمل مرارة الاتهام لبيته وعرضه، فما كاد يسمع دعوة ربه إلى العفو، وما كاد يلمس وجدانه ذلك السؤال الموحى: (أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ لَكُمْ)؟ حتى يرتفع على الآلام، ويرتفع على مشاعر الإنسان، ويرتفع على منطق البيئة، وحتى تشف روحه وترف وتشرق بنور رب الكون، فإذا هو يُلبي داعي الله في طمأنينة وصدق، ويقول:

بلى والله يا رب، أحب أن تغفر لي، ويعيد إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، ويحلف: والله لا أنزعها منه أبدًا، وكان ذلك في مقابل ما حلف من قبل لا أنفعه بنافعة أبدًا، بذلك يمسح الله على ألم ذلك القلب الكبير، ويغسله من أدرن المعركة، ليبقى أبدًا نظيفًا طاهرًا زكيًّا مشرقًا بالنور.

عبرة

يا أيها الأخوة الكرام، لقد دل هذا الموقف الفريد للصديق رضي الله عنه على أنه أفضل الناس بعد النبي ﷺ، فقدٍ وصفه الله بصفاتٍ عجيبة فيٍ هذه الآية، دلالة على علوٍ شأنه في الدين، فهذا الموقف لا يتحمَّله إلا أُولي العزم من البشر، رجل تُتهم ابنته الشريفة العفيفة أم المؤمنين، من رجلٍ هو من قرابته وينفق عليه، فلا أقل من أن يقطع عنه المال الذي كان يعطيه له، فهو لا يستحقه.

لأنه يقول غير الحق، وناكر للجميل، فيعاتبه ربه، ويرغبه في الاستمرار في الإنفاق على الرجل المشارك في نشر حديث الإفك، أما فعله فحسابه وعقابه شيء، وأجرك من الإنفاق عليه شيء آخر، يا أخي إن الموقن بأن ما عند الله أوثق مما في يدك، إن الله يخاطبك، بل يخاطبنا جميعًا في صورة الصديق رضي الله عنه: (أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ لَكُمْ)

ما تصنعون بالدنيا؟!

لقد توقفت كثيرًا قبل أن أكتُب كلمة واحدة عن هذا الصحابي الجليل المُثابر الأواب، وسألت نفسي قائلًا: ما الذي تستطيع أن تكتبه عن رجلٍ كان النبي ﷺ أستاذه ومعلمه وقدوته، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أباه، ولذلك فإنني أعتذرُ مقدمًا عن التقصير في حق هذا العَلم الذي سطَّر على جبين التاريخ صفحات وصفحات من النور والعلم والاستقامة والتواضع والورع والجود والعبادة وحسن الاتباع.

ضيفنا في هذه السطور، صحابي سيرته تمتزجُ بأجزاءِ النفس لطافةً ودلالًا، وتُحيي القلوب وتسكب عليها حسنًا وجلالًا، جَذبته يد العظمة إلى ذروة الكمال في البشر، إذا قرأت سيرته عرفت أنه نادرة عصره، ووحيد دهْرِه، نحن نلتقي مع العابد المؤمن، الإمام القدوة، سيد النجباء الأبرار عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

إن المزايا التي تأخذ الأبصار إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لكثيرة، فعلمه، وتواضعه، واستقامة ضميره، ونهجه، وجوده، وورعه، ومُثابرته على العبادة، وصدق استمساكه بالقدوة، وسنجد أيضًا فيه حيثما نلقاه المُثابر الأوَّاب الذي لا ينحرف عن نهجهِ قيد شعرة، ولا يندُ عن بيعةٍ بايعها، ولا يخيس بعهدٍ أعطاه، كل هذه الفضائل والخصال، صاغت ابن عمر منها وبها شخصيته الفذة.

وحياته الطاهرة الصادقة خير دليل، لقد تعلَّم من أبيه عمر خيرًا كثيرًا، وتعلم مع أبيه من رسول الله ﷺ الخير والعظمة كلها، لقد أحسن كأبيه الإيمان بالله وبرسوله ﷺ، ومن ثمَّ كانت متابعة خُطى الرسول أمرًا يبهر الألباب، فهو ينظر ماذا كان رسول الله ﷺ يفعل في كل أمرٍ فيحاكيه في دقةٍ وإخبات.

لقد كان جوده، وزهده، وورعه، يعملون معًا في فنٍ عظيم، ليشكلوا أروع فضائل هذا الإنسان العظيم، فهو رضي الله عنه يعطي الكثير لأنه جوَّاد، ويعطي الحلال الطيب لأنه ورع، ولا يبالي أن يتركه الجود فقيرًا، لأنه زاهدٌ في هذه الدنيا الفانية! وقد كان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما من ذوي الدخول الرغيدة الحسنة، إذ كان تاجرًا أمينًا ناجحًا، وكان راتبه من بيت المال وفيرًا، ولكنه لم يدَّخر هذا العطاء لنفسه قط، إنما كان يرسله إلى الفقراء والمساكين والسائلين.

يُحدثنا أيوب بن وائل الراسبي عن واحدةٍ من مكرماته، فيخبرنا أن ابن عمر جاءه يومًا أربعة آلاف درهم وقطيفة، وفي اليوم التالي رآه أيوب بن وائل في السوق يشتري لراحلته علفًا دينًا، فذهب أيوب بن وائل إلى بيت عبد الله وسألهم، أليس قد أتى لأبي عبد الرحمن بالأمس أربعة آلاف درهم، وقطيفة؟ قالوا له: بلى، قال: فإني رأيته اليوم بالسوق يشتري علفًا لراحلته، ولا يجد معه ثمنه، قالوا: إنه لم يبِت بالأمس حتى فرقها جميعًا، ثم أخذ القطيفة وألقاها على ظهره، وخرج ثم عاد وليست معه، فسألناه عنها، فقال: إنه وهبها لفقير!!

فخرج ابن وائل يضرب كفًا بكف، حتى أتى السوق فصعد مكانًا عاليًا وصاح في الناس قائلًا: يا معشر التجار، ما تصنعون بالدنيا، وهذا ابن عمر تأتيه آلاف الدراهم فيوزعها، ثم يصبح فيستدين

علفًا لراحلته!!

ألا إن من كان محمد ﷺ أستاذه، وعمر أباه لعظيم وكفءٍ لكل عظيم، إن جود عبد الله وزهده وورعه هذه الخصال الثلاث كانت تحكي لدى عبد الله صدق القدوة، وصدق المثل، فما كان لمن يمعن في التأسِّي برسول الله ﷺ، حتى إنه ليقف بناقته حيث رأى الرسول يومًا يقف بناقته، ويقول: لعل خُفًا يقع على خُفِّه، والذي يذهب في بر أبيه وتوقيره والإعجاب به إلى المدى الذي كانت شخصية عمر تفرضه على الأعداء، فضلًا عن الأقرباء، فضلًا عن الأبناء.

أقول: ما كان ينبغي لمن ينتمي لهذا الرسول ﷺ، ولهذا الوالد أن يصبح للمال عبدًا، ولقد كانت الأموال تأتيه وافرة كثيرة، ولكنها تمر به مرورًا، وتعبر داره عبورًا، ولم يكن جوده سبيلًا إلى الزهو، ولا إلى حسن الأحدوثة، ومن ثم فقد كان يخصُّ به المحتاجين والفقراء، وقلَّما كان يأكل طعامًا وحده، فلا بُدَّ من أن يكون معه أيتام أو فقراء، وطالما كان يعاتب بعض أبنائه حين يولمون للأغنياء، ولا يأتون معهم بالفقراء، ويقول لهم: تدعون الشباع، ولا تدعون الجياع!!

عبرة

يا شباب، لقد كان الفقراء في المدينة يعرفون عبد الله بن عمر رضي الله عنهما بجوده وكرمه وعطفه وحنانه، فكانوا يجلسون في طريقه كي يصحبهم معه إلى داره فيطعمهم ويعطيهم ما يردون، فكانوا يحفُون به كما تحف أفواج النحل بالزهور والرياحين لتأخذ منها رحيقها، فقد كان ابن عمر مثل أبيه ذا نفسٍ سامية، وهمةٍ عالية، وروحٍ شفافة، وبصيرةٍ نافذة ترى ما لا يراه الناظرون.

لقد كان المال بين يديه خادمًا لا سيدًا، وكان وسيلة لضرورات العيش لا للترف، ولم يكن ماله له وحده؛ بل كان للفقراء فيه حق معلوم، بل حق متكافئ لا يتميز فيه بنصيب، ولقد أعانه على هذا الجود الواسع زهده، فما كان عبد الله يتهالك على الدنيا، ولا يسعى إليها، بل كان لا يرجو منها إلا ما يستر الجسد من لباس، ويُقيم الأود من طعام.

يا شباب، إن من يعملون لدنياهم ليشبهون ما يقوم به بعض المسئولين من المسلمين الذين يقدمون المعروف لكبار الناس ممن يرجون نفعهم في الحياة الدنيا ولا يريدون ببذل المعروف لوجه الله تعالى والدار الآخرة، بينما يقبضون معروفهم عن ضعفاء الناس الذين لا يرجون منهم نفعًا دنيويًا، وإن كان هؤلاء يختلفون عن أهل الجاهلية بكونهم مسلمين ولهم أعمال صالحة أخرى.

إن الذي ينظر في بذل المعروف إلى الكسب الأخروي لا يُفرِّق في ذلك بين كبراء الناس وضعفائهم، ولا بين أصحاب المسؤولية ومن هم خلْوٌ منها لأنه لا ينتظر منهم وهو يبذل لهم المعروف أن يبادلوه بمثله، وإنما ينتظر الأجر والرفعة في الآخرة، وذلك هو الفلاح الأكبر.

طلحة الخير

منَ المؤمنين رجال أسلموا لله عز وجل حين ظهر الإسلام وتعمق في قلوبهم حب الله ورسوله، فصدقوا ما عاهدوا الله عليه، وجاهدوا في الله حق جهاده حتى انتصر الحق على الباطل، وكان من هؤلاء طلحة بن عُبيد الله رضي الله عنه، وقد عرف طلحة بالجود والكرم، حتى لُقِّب بطلحة الخير، وطلحة الفياض، وكان رجلًا نقيَ القلب، صافي النفس، وكان تاجرًا واسعَ التجارة عظيمَ الثراء، وكان رغم ذلك في جميع المشاهد والغزوات في مقدمة الصفوف يبتغي وجه الله، ويفتدي راية رسوله.

وكان طلحة يعيش وسط الجماعة المسلمة، يعبد الله مع العابدين، ويجاهد في سبيله مع المجاهدين، ويرسي بساعديه مع سواعد إخوانه قواعد الدين الجديد الذي جاء ليُخرج الناس؛ جميع الناس من الظلمات إلى النور، فإذا قضى حق ربه، راح يضرب في الأرض؛ يبتغي من فضل الله، مُنمِّيًا تجارته الرابحة، وكانت ثروته كلها في خدمة الدين الذي حمل مع رسول الله ﷺ رايته، وما أكثر ما كان يخرج من ثروته مرةً واحدة، فإذا الله الكريم يردها إليه مضاعفة.

ففي ذات يوم جاء لطلحة بن عبيد الله رضي الله عنه في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه مال من حضرموت حوالي سبعمائة ألف درهم، فبات رضي الله عنه ليلته يتململ، فقالت زوجته أم كلثوم بنت الصديق رضي الله عنهما : ما لك يا أبا محمد؟ قال طلحة: تفكرت منذ الليلة، قالت أم كلثوم: فيما يا أبا محمد، قال طلحة: المال الذي عندي، قد كثر حتى أهمَّني وأكربني، فما ظن رجل بربه يبيت وهذا المال كله في بيته، قالت أم كلثوم فأين أنت عن بعض أخلائك، فإذا أصبحت فادع بجفان وقصاع فقسمه، فقال طلحة لها: رحمك الله، إنك موفقة بنت موفق، فلما أصبح دعا طلحة بجفان، فقسمها بين المهاجرين والأنصار.

ومرة أخرى باع أرضًا له بثمنٍ مرتفع، ونظر إلى كوْمة المال ففاضت عيناه من الدمع، ثم قال: إن رجلًا تبيت هذه الأموال في بيته لا يدري ما يطرق من أمر، لمغرور بالله، ثم دعا بعض أصحابه وحمل معهم أمواله هذه، ومضى في شوارع المدينة وبيوتها يُوزعها، حتى أسْحر وما عنده منها درهم.

ويروى عن طلحة أيضًا أنه جاءه مال من العراق يُقدر بأربعمائة ألف إلى خمسمائة ألف دينارًا، فكان لا يدع أحدًا من بني تميم عائلًا إلا كفاه مؤونته ومؤونة عياله، وكان يزوج أياماهُم، ويخدم عائلهم، ويقضي دين غارمهم، ولقد قضى على صبيحة التميمي ثلاثين ألف درهم.

عبرة

يا شباب، لقد أنفق طلحة بن عُبيد الله رضي الله عنه ماله كله في سبيل الله تعالى، وهو بهذا يُعدُّ من أعظم المتصدقين، وإن المتأمل ليعجب كيف تصدق طلحة بكل هذا المال، ألا خطر بباله احتياج أهله للمال، ثم ألا خطر بباله احتياجه إلى المال في المستقبل، بلى، كان يخطر بباله ذلك كأي بشر، ولكنه وأمثاله من الصالحين يُرتِّبون الأمور حسب أولوياتها، وقد رأى بثاقب بصره الموجه من إيمانه القوي أن حاجة المسلمين أولى من حاجته وحاجة أهله المستقبلية.

وقد ساعده على تقرير هذا القرار الذي يُعدّ كبيرًا في حياة الناس قوة ثقته بالله عز وجل بأن الرزق بيده، وعظيم أمله بأنه تعالى لن يضيع أولياءه، ثم ساعده على ذلك ما أخذ به نفسه وأهله من حياة الزهد والتقشف، فليس عنده وأمثاله من النفقة الضرورية إلا اللباس ويكفيهم منه القديم، والطعام ويكيفهم كمية من التمر والشعير وإن قل ذلك، فهذه النفقة هي التي تدخل في عداد الضروريات، أمَّا ما عدا ذلك فإنه أمر كمالي تقدم عليه حاجة المسلمين العامة الماسةَ آنذاك، لقد كان طلحة يحمل همَّ دولة الإسلام الفتيَّة، وفقراء المسلمين.

ما رأينا قوم مثل الأنصار

حياة النبي ﷺ وأصحابه الكرام مليئة بالنماذج والأمثلة الرائعة التي يظهر فيها أثر الأخوة والحب، والعطاء والإيثار، فقد ربى النبي ﷺ أصحابه على أن المسلمين جميعًا إخوة، وأكد على ذلك في جميع مواقف السيرة، ولقد ضرب الصحابة أروع أمثلة الإيثَار وأجملها، ومن يتأمل في قصص إيثارهم يحسب ذلك ضربًا مِن خيال، لولا أنه منقولٌ لنا عن طريق الإثبات، ونحن في هذه السطور مع مشهدٍ من مشاهد الإيثار يعجز البيان عن وصفه.

لمَّا غنم النبي ﷺ أموال بني النضير دعا ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: يا ثابت ادع لي قومك، فقال ثابت: الخزرج يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: بل كل الأنصار يا ثابت. فدعا ثابت الأوس والخزرج، فتكلم رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم ذكر الأنصار وما صنعوا للمهاجرين، وإنزالهم إياهم في منازلهم وأموالهم، وآثرتهم على أنفسهم، ثم قال: يا معشر الأنصار إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله عليّ من بني النضير، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في منازلكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتهم، وخرجوا من دوركم؟

فتكلم سعد بن عبادة، وسعد بن معاذ رضي الله عنهما فقالا: يا رسول الله، بل تقسم جميع المال في المهاجرين، ويكونون في دورنا كما كانوا، ونادت الأنصار: رضينا وسلمنا يا رسول الله، بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا؛ ونؤثرهم بالغنيمة، ولا نشاركهم فيها يا رسول الله.

فقسم رسول الله ﷺ ما أفاء الله عليه، وأعطى المهاجرين، ولم يعط أحدًا من الأنصار شيئًا إلا رجلين، كانا محتاجين هم: سهل بن حنيف، وأبا دجانة رضي الله عنهما، وأعطى سعد بن معاذ سيف ابن أبي الحقيق، وكان سيفًا له ذكر عندهم.

وقد عرف المهاجرون لإخوانهم الأنصار فضلهم، فقالوا يا رسول الله: ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل، ولا أحسن بذلًا من كثير، لقد كفونا المؤنة، وأشركونا في المهَنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله، فقال رسول الله ﷺ: لا، ما أثنيتم عليهم، ودعوتهم الله لهم.

عبرة

يا أيها الإخوة الكرام، لقد صغر حجم المال في أعين الأنصار رضوان ربي عليهم، بل لعله كان منعدمًا، لدرجة أنهم لا يرون لأنفسهم حقًّا في أموالهم الشخصية، ويعطونها للآخرين بطيب نفسٍ قل أن يوجد مثله في حياة البشر، وهنا نذكر مقاسمتهم لأموالهم بينهم وبين المهاجرين، بصرف النظر عن حالة الأنصاري الذي ينفق، وقدر الله عز وجل ذلك وذكره في كتابه واصفًا الأنصار بصفة الإيثار، قال: (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (الحشر: ٩).

حتى الفقير من الأنصار يا إخوة كان ينفق في سبيل الله، ويؤثر غيره على نفسه وهو محتاج، وهذا ما طبع عليه الأنصار بشهادة رب العالمين لهم، لقد كانت حالة الأنصار فقيرة على خلاف ما يتوقع

الكثيرون، والقارئ للسيرة يظن أن الأنصار كانوا أغنياء لكثرة عطاء الأنصار وكرمهم، مع أن حالة المدينة الاقتصادية كانت منخفضة جدًّا، وليس أدل من ذلك مواقف الجوع الكثيرة التي مرت بها المدينة، ومن أشهرها حصار الأحزاب في أواخر العام الخامس الهجري، فقد كان معظم الأنصار فقراء.

يا شباب، لقد حققت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار أهدافها من تكافلٍ اجتماعيّ لم يُرَ ولم يعرف له مثيل في التاريخ، وقت إذهاب وحشة الغربة للمهاجرين، ومؤانستهم عن مفارقة الأهل والعشيرة، ومن نهوضٍ وقوة للدولة المسلمة الجديدة في المدينة المنورة، وقد نجحت وقويت هذه المؤاخاة بفضل الله عز وجل لأن النبي ﷺ أقامها على الإيمان والعقيدة والإخاء، وجعلها واقعًا عمليًا، من إيواءٍ وتكافلٍ ونُصرة، ومن ثمَّ ظهرت هذه الصور والأمثلة الرائعة من الحب والإخوة والإيثار بين المهاجرين والأنصار.

لقد زادني غيركم.. الدرهم بعشرة

ضيفنا في هذه السطور، رجلٌ حليمٌ كريم، رحيمٌ حييٌّ سخيّ، عقولٌ رشيد، نقي السريرة، يألف الناس ويألفونه، ويجدون فيه صفاء الروح ولين الجانب، وسلامة الفطرة، وحسن الحديث، وبراءة الصدر من الحقد والحسد والضغينة، وسائر ما يعكر صفو الإيمان، أحبه الله ورسوله، وأحبه المسلمون، لقد كان رجلًا استثنائيًا، فهو ثالث أعظم مخلوق الله بعد الأنبياء، وهو ثالث العشرة المبشرين بالجنة، وهو الإنسان الوحيد في تاريخ البشرية الذي تزوج من ابنتيّ نبيٍّ مرسل، وهو ثالث الخلفاء الراشدين، وهو الرجل الذي تستحي منه الملائكة، وهو رفيق رسول الله ﷺ في الدنيا وفي الجنة.

نحن على موعدٍ مع صنفٍ من الرجال الأطهار يندر وجوده في كل العصور والأزمان، ذلكم الرجل الذي إذا جاءت سيرته وجدنا بين ثنايا سطورها ريح الحياء والتواضع، والجود والكرم والخشية، لقد كان رضي الله عنه من الأغنياء الذين أغناهم الله عز وجل، وكان صاحب تجارة وأموال طائلة، ولكنه استخدم هذه الأموال في طاعة الله عز وجل وابتغاء مرضاته وما عنده، وصار سباقًا لكل خيرٍ يُنفق ولا يخشى الفقر، نحن نلتقي مع ذي النورين عثمان بن عفان رضي الله، ومما أنفقه رضي الله من نفقاته الكثيرة كان هذا الموقف الرائع.

عن ابن عباس قال: أصاب الناس قحط في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فلما اشتد بهم الأمر، جاءوا إلى أبي بكرٍ رضي الله عنه، وقالوا: يا خليفة رسول الله ﷺ، إن السماء لم تمطر، والأرض لم تنبت، والناسُ في شدة شديدة، وقد توقع الناس الهلاك فما تصنع؟، فقال الصديق: انصرفوا، واصبروا، فإني أرجو الله ألا تمسوا حتى يفرج الله الكريم عنكم. فلما خرجوا جاءت قافلة من الشام، فيها ألف بعيرٍ موسوقة بُرًّا وزيتًا ودقيقًا، فأناخت بباب عثمان بن عفان رضي الله عنه، فجعلها في داره، فجاء التجار إلى باب عثمان، فقرعوا عليه الباب، فخرج إليهم عثمان في ملأ من الناس، فقال: ما تشاؤون؟ قالوا: الزمان قد قحط، والسماء لا تمطر، والأرض لا تنبت، والناس في شدة شديدة، وقد بلغنا أنه جاءت إليك قافلة من الشام، فبعنا حتى نوسع على فقراء المسلمين.

قال عثمان: ما تريدون؟، قالوا: إنك لتعلم ما نريد، قال عثمان: حبًا وكرامة ادخلوا فاشتروا، فدخل التجار، فإذا الطعام موضوع في دار عثمان، قال عثمان: كم تربحونني يا معشر التجار على شرائي من الشام؟ قالوا: درهم بدرهمين، قال عثمان: أعطيت زيادة على هذا، قالوا: نزيدك الدرهم بأربعة، قال عثمان: بعتها بأكثر من ذلك، قالوا: نزيدك الدرهم بخمسة، قال عثمان: لقد زادني غيركم الدرهم بعشرة، فقالوا له: يا أبا عمرو من الذي زادك، وليس في المدينة تجار غيرنا؟! قال عثمان: إن الله أعطاني بكل درهم عشرة، أعندكم زيادة؟ قالوا: اللهم لا، قال عثمان: أشهدكم أني بعتها لله عز وجل، ولرسوله ﷺ، فهي صدقة لوجه الله على الفقراء والمساكين. قال ابن عباس رضي الله عنهما: رأيت رسول الله ﷺ من ليلتي في المنام وهو على برذون أبلق عليه حُلّة من نور، في رجليه نعلان من نور، وبيده قصبة من نور، وهو مستعجل، فقلت: يا رسول الله، قد اشتد شوقي إليك وإلى كلامك فأين تبادر؟ قال: يا ابن عباس، إن عثمان قد تصدق بصدقة، وإن الله قد قبلها منه وزوَّجُه عروسًا في الجنة، وقد دعينا إلى عرسه.

عبرة

يا أيها الإخوة الكرام، هل يفتح الله تعالى آذان عُبَّاد المال، ومحتكري قوت العباد شحًا وجشعًا إلى صوت هذه العظمة العثمانية حتى تدلف إلى قلوبهم فتهزها هزة الأريحية والعطف، وتوقظ فيها بواعث الرحمة والإحسان بالفقراء والمساكين، والأرامل واليتامى وذوي الحاجات من أهل الفاقة والبؤس، الذين طحنتهم أزمة الحياة، واعتصرت دماءهم شرابًا لذوي القلوب المتحجرة من الأثرياء؟ فما أحوج المسلمين في هذه المرحلة من حياتهم إلى نفحةٍ عثمانية في إنفاق الأموال على الفقراء والمساكين والمحتاجين؛ تسري بينهم تعاطفًا ومؤاساة وبرًا وإحسانًا.

يا شباب، لقد كان نهج عثمان بن عفان رضي الله عنه في الحياة هو أن الله تعالى أعطانا الدنيا لنطلب بها جنات الفردوس، لا لنركن إلى الدنيا، فالدنيا تفنى، والآخرة تبقى، والعاقل من آثر ما يبقى على ما يفنى، وقد بذل ذو النورين من أمواله الكثير في سبيل نصرة الإسلام.

محرر العبيد

لأبي بكر الصديق رضي الله عنه نواحٍ متعددة من العظمة، قد يشارك في كثيرٍ منها كثيرٌ من عظماء الصحابة، ولكن ما يمتاز به عن كثيرٍ منهم خصالًا جعلته في الذروة من عظماء الإسلام، تجعل مثلي يخجل أن يتكلم عن مثله، فماذا يقول المرء عن رجل لو وزن إيمانه بإيمان الأمة لرجح إيمانه، بكل ما فيه من محاسن، نذكر هذا الموقف منها: خرج أبو بكر من عند رسول الله ﷺ ولم يكن عمره في الإسلام سوى بضعة أيام، وعاد وهو يقود الكتيبة الأولى من كتائب هذه الأمة، فعاد وقد أدخل في دين الله ستة من العشرة المبشرين بالجنة، يأتي يوم القيامة، وهم في صحيفة حسناته، وبعضنا يعيش عشرين عامًا وثلاثين عامًا وستين عامًا، وما هدى الله على يديه رجلًا واحدًا.

ليس هذا فحسب، بل يمر يومٌ من الأيام على بلال رضي الله عنه وأرضاه وهو يُعذب في رمضاء مكة، وبه من الجَهد ما به، وهو يقول: أحدٌ أحد، فيقول: ينجيك الله الواحد الأحد، ويذهب ويرى أنها فرصة لا تُعوض لإنقاذ هؤلاء الضعفاء، لئلا يُفتنوا في دينهم، فيُصفي تجارته، ويصفي أمواله، ويأتي أمية بن خلف، ويقول: أتبيعني بلالًا؟ قال: أبيعكه فلا خير فيه، فيعطيه خمس أواق ذهبًا، فيأخذ هذه الخمس، ويقول: والله لو أبيت إلا أوقية واحد لبعتك بلالًا، فقال: ووالله لو أبيت يا أمية إلا مائة أوقية لأخذته منك.

لأن لأبي بكر رضي الله عنه موازين ومقاييس ليست لهذا ولا لغيره من البشر.

فيقول أبوه: إن كنت ولا بُدَّ منفقًا أموالك فأنفقها على رجالٍ أشداء ينفعونك في وقت الشدائد، فيقول: يا أبتاه إنما أريد ما أريد، فماذا يريد أبو بكر رضي الله عنه إذًا، إنه يريد ما عند الله ويريد وجه الله، والدار الآخرة، فيقول أناس: ما أعتق بلالًا إلا ليدٍ كانت له من بلال، يعني لمعروفٍ أسداه بلال إليه، فأراد أن يكافئه بذلك، فيتولى الله سبحان وتعالى الرد من فوق سبع سماوات: (وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ١٩ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ)(الليل: ١٩ - ٢١).

لقد كان المجتمع المكي يتندر بأبي بكر رضي الله عنه الذي يبذل هذا المال كله لهؤلاء المستضعفين، أما في نظر الصديق، فهؤلاء إخوانه في الدين، فكل واحد من هؤلاء لا يساويه عنده مشركو الأرض وطغاتها، وبهذه العناصر وغيرها تُبنى دولة التوحيد، وتصنع حضارة الإسلام الرائعة.

عبرة

يا أيها الإخوة الكرام، لم يكن الصديق رضي الله عنه يقصد بعمله هذا محمدةً ولا جاهًا، ولا دينًا، وإنما كان يريد وجه الله ذي الجلال والإكرام،، لقد كان من أعظم الناس إنفاقًا لماله فيما يُرضي الله ورسوله.

يا أخي الكريم، لقد كان هذا التكافل بين أفراد الجماعة الإسلامية الأولى قمةً من قمم الخير والعطاء، وأصبح هؤلاء العبيد بالإسلام، أصحاب عقيدة وفكرة يناقشون بها وينافحون عنها، ويجاهدون في سبيلها، وكان إقدامه أبي بكر رضي الله عنه على شرائهم، ثم عتقِهم دليلًا على عظمة هذا الدين ومدى تغلغله في نفسية الصديق رضي الله عنه ، وما أحوج المسلمون اليوم إلى أن يحيوا هذا المثل الرفيع،

والمشاعر السامية ليتم التلاحم والتعايش والتعاضد بين أبناء الأمة التي يتعرَّض أبناؤها للإبادة الشاملة من قِبل أعداء العقيدة والدين.

يا شباب، في هذه المحاورة بين أبي بكر وأبيه نُدرك لونًا من ألوان الفرق بين نظرة أهل الجاهلية ونظرة المسلمين بالنسبة لوجوه إنفاق المال، وبذل المعروف، فوالد أبي بكر ينظر إلى مستقبل الحياة الدنيا، فيشير على ولده بأن يضع المعروف فيمن يستطيعون نفعه في مستقبل حياته، وهذا مبلغ علمه، فهو حتى الآن لا يؤمن بالآخرة، وبالتالي فإنه لا يتصوَّر معروفًا يُبذل في الدنيا ليجني باذله نفعه في الآخرة، ولهذا فإن بذل المعروف في ضعاف الناس لا يرجو نفعهم في الدنيا يُعدُّ في نظره ونظر أهل الجاهلية من ضعف الرأي وضآلة التفكير.

بينما يجيبه أبو بكر بقوله: يا أبت إنما أريد ما أريد فإذا كان أهل الجاهلية يريدون قبض ثمن معروفهم في الدنيا فإنه لا يريد ذلك، وإنما يريد في الحياة الآخرة طلبًا لرضوان الله تعالى والدرجات العُلى في الجنة، وحينما يحشر الخلائق يوم القيامة وتوزن الأعمال، ويكون الحساب، يذكر العاملون للدنيا فقط أنهم قد خسروا كل شيء، ويوقنون بأن الذين عملوا للآخرة كانوا أكملُ عقلًا وأسد رأيًا منهم.

روائع من تضحيات الصحابة

حامل راية الحق

إن لله رجالًا لهم في الدنيا والآخرة شأن عظيم، لا يستطيع المرء أن يُعبر بلسانه ولا بقلمه عن مآثرهم ولا عن جانب من جوانب العظمة فيهم، مهما أوتي من طلاقة اللسان، وفصاحة البيان، إلا على استحياءٍ يصحبه شعور بالقصور والتقصير، لأن الأعين مهما أبصرت فلن تحيط ما وراء الظواهر من أسرار، ولا ما يترتب على وجودها من آثار.

ضيفنا في هذه السطور عملاق من هذا الصنف من البشر، رجل أحب الله ورسوله، وأحبه الله ورسوله، وأحبه المؤمنون؛ لما تميَّز به من خُلق فاضل، وسلوك نبيل، فكان بالمكارم على قمة صرح الرجولة الشامخ، نحن على موعدٍ مع فتى الخزرج وسيدها سعد بن عبادة رضي الله عنه، ونحن في هذه السطور نتجول بين أروقة التاريخ لنرى هذا المشهد البطولي الفريد، فتعالوا بنا لنعيش سويًا مع هذه اللحظات الرائعة من حياته.

كان سعد بن عبادة رضي الله عنه زعيم الخزرج قد أسلم مبكرًا، وشهد بيعة العقبة، وقد عاش رضي الله عنه إلى جوار رسول الله ﷺ جنديًا مطيعًا، ومؤمنًا صدوقًا، ولعل سعد بن عبادة رضي الله عنه ينفرد بين الأنصار جميعًا بأنه حمل نصيبه من تعذيب قريش الذي كانت تُنزله بإخوانه المهاجرين في صحراء مكة، فلقد كان طبيعيًا أن تنال قريش بعذابها أولئك المستضعفين الذين يعيشون بين ظهرانيها، ويقطنون مكة، أما أن يتعرض لهذا العذاب رجل من المدينة، وهو ليس مجرد رجلٍ عادي، بل زعيمًا كبيرًا من زعمائها وسادتها، فتلك مِزيَة لسعد بن عبادة رضي الله عنه أنه تحمل العذاب مثل إخوانه المهاجرين.

وذلك بعد أن تمت بيعة العقبة سرًا، وأصبح الأنصار يتهيبون السفر، علمت قريش بما كان من مبايعة الأنصار، واتفاقهم مع رسول الله ﷺ على الهجرة إلى المدينة حين يقفون معه ومن ورائه ضد قوى الشرك والظلام، فجن جنون قريش لذلك، فراحت تطارد المسافرين حتى أدركت سعد بن عبادة رضي الله عنه، فأخذه المشركون، وربطوا يديه إلى عنقه بشراك رحله، وعادوا به إلى مكة، حيث احتشدوا حوله يضربونه وينزلون به ما شاؤوا من العذاب.

سعد بن عبادة من يصنع به هذا زعيم الخزرج المطاع، الذي طالما أجار مستجيرهم، وحمى تجارتهم، وأكرم وفادتهم حين يذهب إلى المدينة ذاهب؟ لقد كان الذين اعتقلوه والذين ضربوه لا يعرفونه ولا يعرفون مكانته في قومه، ولكن أتراهم كانوا تاركيه لو عرفوه؟!

ألم ينالوا بتعذيبهم سادة مكة الذين أسلموا؟، إن قريشًا في تلك الأيام كانت في أعلى درجة الجنون، وهي ترى كل مقدرات جاهليتها تتهيأ للسقوط تحت معول النور، فلم تعرف سوى إشفاء أحقادها نهجًا وسبيلًا، أحاط المشركون كما ذكرنا بسعد بن عبادة ضاربين ومعتدين.

ولندع سعد بن عبادة يحكي بقيَّة قصة تعذيبه: يقول سعد: فوالله إني لفي أيديهم إذ طلع عليَّ نفر من قريش، فيهم رجل وضئ أبيض، فقلت في نفسي: إن يك عند أحد من القوم خيرٌ، فعند هذا الرجل، فلما دنا مني رفع يده فلكمني لكمة شديدة، فقلت في نفسي: لا والله، ما عندهم بعد هذا من خيرٌ، فوالله إني لفي أيديهم يسحبونني إذ أوى لي رجل ممن كان معهم، فقال الرجل: ويحك يا رجل! أما بينك وبين

أحد من قريش جوار؟، قلت: بلى، كنت أجير لجبير بن مطعم في تجارته، وكنت أجير للحارث بن حرب بن أمية، وأمنعهم ممن يريد ظلمهم ببلادي. فقال الرجل: يا رجل اهتف باسم الرجلين، واذكر ما بينك وبينهما من جوار، ففعلت، وخرج الرجل إليهما، فأنبأهما أن رجلًا من الخزرج يضرب بالأبطح وهو يهتف باسميهما، ويذكر أن بينه وبينهما جوارًا، فسألاه عن اسمي، فقال: يقول سعد بن عبادة، فقالا: صدق والله، وجاءا فخلصاني من أيديهم.

خرج سعد بعد ذلك من مكة بعد هذا العدوان الذي صادفه، ليعلم كم تتسلح قريش بالجريمة ضد قوم عُزَّل، لا شيء إلا أنهم يدعون الناس للخير والحق والسلام، وعبادة الله عز وجل، ولقد شحذ هذاً العدوان الدامي عزم سعد وقرر أن يتفانى في نصرة دين الله ورسوله ﷺ.

عبرة

يا أيها الإخوة الكرام، لقد أظهر الكفار شراستهم وانتقامهم حينما ظفروا بواحدٍ من مسلمي المدينة، ولم يخلصه منهم إلا معرفته باثنين من أشرافهم كان يحمي تجارتهما إذا قدموا المدينة، وهكذا كانت حياة المشركين في مكة حيث يتزعَّمهم مجموعة من الطغاة، كانوا يعدُّون أنفسهم سادة البلد، يحترم بعضهم بعضًا غاية الاحترام، ويحفظوا حقوق بعضهم بعض، ومبادئهم التي يرجعون إليها ويقدسونها تخضع لمصالحهم الشخصية، فهذا سعد بن عبادة قد قبضوا عليه بتهمة التآمر على مقدساتهم التي يعظمونها، وعذبوه من أجل ذلك، ثم أفرجوا عنه حالًا حينما تدخل رجلان منهم كان له معروف سابق عليهما.

وهكذا الطغاة في كل زمنٍ يرفعون شعارات وهمية يعدونها مبادئ سامية، يدعون إليها بحماس، ويدافعون عنها بقوة، ويحملون الناس على اعتناقها، ومن خالفهم فيها كان مصيره السجون والتعذيب والتشريد، ثم يكون هؤلاء الطغاة هم أول من ينقض أنظمة هذه المبادئ إذا خالفت منافعهم الشخصية، والحق عندهم ما رأوه وقرروه ولو كان ذلك مجاملة لواحدٍ منهم، وقد يغيرون المبادئ التي كانوا يقدسونها إذا فقدت بعض مفعولها، وينتحلون مبادئَ أخرى يرون أنها تحقق لهم قدرًا أكبر من التضليل، واستغلال غفلة العقول، والحقيقة الكبرى أن مبادئ هؤلاء المقدسة إنما هي مصالحهم الخاصة، فمن أجلها يشرَعون، ومن أجلها ينقضون ما شرعوا، ومن أجلها يوالون، ومن أجلها يعادون.

نـهايـة عشاق الشـهادة

ليست الرجولة قوةَ البدن أو ضخامة الصوت أو كثرة المال، بل الرجولة مواقف وأخلاق، بذل وعمل، سعي وجد، كفاح وتضحية، صبر وثبات، الرجولة إيجابية وتأثير في حياة الناس، إنها روح تغلي في قلب صاحبها، تدفعه دومًا إلى المعالي فلا يقنع بالدون يومًا، فهو لا تثقله قيود الشهوات والسيئات، فإن الرجل العظيم السمين العاري عن الإيمان لا يزن عند الله يوم القيامة جناح بعوضة، وأما المؤمنون فإنهم يوزنون بما في قلوبهم من إيمان، فالرجل قد يكون ضئيل الجسم وهو عند الله أثقل في الميزان من الجبال.

ضيفنا في هذه السطور من الصنف من الرجال الأبطال، فهو عملاق بذل نفسه في سبيل ربه، فضَّل الوفاء بالعهد ولو شق على النفس حتى إهلاكها، بذل نفسه في طلب الشهادة ومرضاة ربه، نحن على موعدٍ مع المؤيد بالثبات والنصر، المستشهد بتستر، بعد حزنه لتغيبه عنه في كل المواطن والساحات، تنسَّم بالروائح، فجاد بالجوارح، وفاز بالمنائح، إنه بطل الأنصار الشهيد الأسطوري البراء بن مالك رضي الله عنه.

نحن في هذه السطور نعيش بقلوبنا وأرواحنا مع أعظم مشاهد البطولة والتضحية يوم فتح تستر، إنه المشهد الختامي في حياة هذا العملاق الأسد، فتعالوا بنا لنطوف بين صفحات التاريخ لنرى هذا المشهد الإيماني الذي يُكتب بحروفٍ من ذهب في أسطع صحائف النور.

أمَا آن لعاشق الشهادة أن يبلغ غايته؟ أما آن لقصة البراء بن مالك أن تُنهى بالشهادة؟ بلى، لقد آن أن يحقق البراء ما يتمنى، لقد كان البراء في شوقٍ إلى تحقيق أمنيته الكبرى، وحنينٍ إلى اللحاق بنبيه الكريم صلوات ربي وسلامه عليه، وها هي موقعة تستر الطاحنة تجيء ليلاقي المسلمون جيوشَ فارس الجرارة، ولتكون عيدًا للبراء، نعم عيدًا وأي عيد.

لقد احتشد أهل الأهواز والفرس في جيشٍ كثيف لمحاربة المسلمين، وقد كتب الفاروق إلى سعد بن أبي وقاص في الكوفة ليرسل إلى الأهواز جيشًا، وكتب إلى أبي موسى الأشعري بالبصرة ليرسل جيشًا إلى الفرس، وقد قال في رسالته لأبي موسى: أن اجعل أمير الجند سهيل بن عدي، وليكن مجزأة بن ثور السدوسي، والبراء بن مالك رضي الله عنهما في الجيش.

والتقاء القادمين من الكوفة بالقادمين من البصرة ليواجهوا جيش الأهواز وجيش الفرس في عدة معارك ضارية، فما زال المسلمون يحررون المدن، ويطهرون معاقل الفرس، والهرمزان يفر أمامهم من مكانٍ إلى آخر حتى بلغ مدينة تستر واحتمى بها، كانت تستر أقوى مدن الفرس تحصينًا، بل كانت من أحصن مدن الأرض في ذلك الوقت، وقد كان حول تستر سور كبير عال يحيط بها إحاطة السوار بالمعصم، يقول المؤرخون عنه: إنه أول وأعظم سور بُنِيَ على ظهر الأرض، وقد حفر الهرمزان حول السور خندقًا عظيمًا يتعذر اجتيازه، وحشد وراءه خيرة جنود فارس.

اجتمعت القوات الإسلامية حول خندق تستر، وظلت القوات الإسلامية ثمانية عشر شهرًا لا تستطيع اجتيازه، وخاضت مع جيوش الفرس خلال تلك المدة الطويلة أكثر من ثمانين معركة.

وقد كان الأخوان العظيمان البراء وأنس بين الجنود المؤمنين، فصرع البراء وحده في المبارزة أكثر من مئة مقاتل، ولقد كان البراء من نخبة الأبطال المغامرة، الذين دخلوا من مخرج الماء وهم يتسابقون إلى الموت، وتم تدفق المسلمون إلى تستر، فاقترب بعض الصحابة من البراء، والقتال دائر، ونادوه قائلين، أتذكر يا براء قول الرسول عنك: رُب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره، منهم البراء بن مالك؟، قال: نعم، قالوا: يا براء أقسم على ربك اليوم، ليهزهم وينصرنا، فرفع البراء ذراعيه إلى السماء ضارعًا إلى ربه داعيًا: اللهم امنحنا أكتافهم، اللهم اهزمهم، اللهم انصرنا عليهم، اللهم ألحقني اليوم بنبيك.

وألقى البراء على أخيه أنس الذي كان يقاتل قريبًا منه نظرة طويلة، كأنه يودعه، واندفع المسلمون في استبسالٍ لم تألفه الدنيا من قبل إلا من سواهم، ووسط شهداء المعركة، كان هناك البراء تعلو وجهه ابتسامة هانئة كضوء الفجر، وتقبض يمناه على حثية من ترابٍ مضخمة بدمه الطهور، وسيفه ممدد إلى جواره، فلقد بلغ المسافر داره.

عبرة

يا أيها الإخوة الكرام، لقد انتدب الأبطال لمغامرة الدخول من مخرج الماء وهم يتسابقون إلى الموت، فإما الظفر، وإما الشهادة، وإن دخول هؤلاء الأبطال وهم يسبحون في الماء يعرضهم لنار العدو، ولكنهم قوم أَلِفوا حياة الأهوال، وأصبحت الشهادة أمنية غالية لهم، فهم يتعرضون لمواطنها، والظاهر أن الأعداء لم يتوقعوا من المسلمين الجرأة على اقتحام مدينتهم من ذلك المدخل الخطير، لأن الإقدام على ذلك أشبه بالانتحار، فكان دخول المسلمين منه مفاجأة مذهلة لهم أطارت صوابهم ومزقتهم شر ممزق.

ولقد كان في هذه المغامرة العظيمة نهاية بطلين من أعظم أبطال الإسلام، وهما البراء بن مالك، ومجزأة بن ثور؛ حيث رماهما الهرمزان، ولكن النهاية جاءت بعد انتصار المسلمين، وبعد أن قدَّم كل واحدٍ منهما سجلًا حافلًا من التضحيات والنكاية بالأعداء، حيث قتل كل واحد منهما في تلك الأيام مئة من الأعداء مبارزة مع من قتلا أثنا الالتحام، وهكذا قدم أولئك الأبطال تضحياتٍ ضخمة في تلك المعارك التي استمرت عام ونصف تقريبًا، وقدَّموا في غيرها الكثير، وأصبح المسلمون يتفيئون ظلالها، ويعيشون ثمراتها قرونًا عديدة، وهم ملوك الدنيا وقادة الأمم، وإن هذا الملك العريض الضخم الذي يتكون إلا بالتضحيات والدماء، لا يجوز أبدًا أن يفرط فيه الوارثون، فيضعفوا عن حمايته، ويستسلموا لأعدائهم الذين يتربصون بهم الدوائر.

يا شباب، إن السر في عظمة المقاتل الذي يقاتل في سبيل إعلاء كلمة لا إله إلا الله؛ أنه أحرص على الموت من حرص أعدائه على الحياة، وكان هذا هو السر في عظمة هذا البطل المغوار، فإن من يرى البراء وهو يقاتل لا يستطيع أن يصدق نفسه من أول وهلة، فهو يرى رجلًا لا يقاتل من أجل الفوز والنصر فحسب، بل يقاتل من أجل الفوز بالشهادة، فهو يبحث عن الجنة أينما كانت، وكيفما كان الطريق إليها شاقًا وصعبًا وشعاره في ذلك الله والجنة، لذا يجب علينا أيها الإخوة شعارنا دائمًا الله والجنة.

الفتى المُنعَّم وحبه لله ورسوله

هذا الفتى هو درة فتيان قريش، وأوفاهم بهاءً، وكان أعطر أهل مكة، ولعله لم يكن بين أهل مكة من ظفر بتدليل أبويه مثلما ظفر به هذا الفتى المدلل المنعم، فهل يُعقل أن يتحول مثل هذا النموذج إلى أسطورة من أساطير الإيمَان، والفداء لدينه، والصبر على الأذى في سبيله، وأن يكون أول سفير للإسلام، وأن يكون أول من وضع أساسًا لدولة الإسلام في المدينة؟ وهل يُعقل أنه عندما يموت هذاً الفتى المنعم لم يجدوا له شيئًا يُكفن فيه إلا غطاءً إذا وضع على رأسهِ تعرت رجلاه، وإذا وضع على رجليه برز رأسه.

نعم على موعدٍ مع واحدٍ من أولئك الذين شرح الله صدورهم للإسلام، وعمَّق في قلوبهم جذور الإيمان واليقين، وأمدَّهم بقوةٍ خارقة للعادة في خدمة الدعوة، ونُصرة الدين حتى أتاهم اليقين، نحن نلتقي مع بطلٍ من أبطال الإسلام الغُر الميامين، إنه الفتى المنعم مصعب بن عمير رضي الله عنه، ونحن نعيش في هذه السطور مع مشهدٍ من أعظم مشاهد الصبر والتضحية.

لقد سمع الفتى ذات يوم من أهل مكة أن محمدًا بن عبد الله يقول: أنَّ الله أرسله بشيرًا، ونذيرًا، وداعيًا إلى عبادة الله الواحد الأَحد، وكان الناس في مكة لا حديث يشغلهما إلا رسول الله ﷺ ودعوته، وكان مصعب من أكثر الناس استماعًا لهذا الحديث، ولقد سمع أن الرسول ﷺ ومن آمن معه، يجتمعون بعيدًا في دار الأرقم بن أبي الأرقم، فلم يطل به الانتظار، بل قرر أن يذهب ذات مساءٍ إلى دار الأرقم ليسمع عن هذا الدين بنفسه.

لم يكد مصعب يسمع القرآن من رسول الله ﷺ حتى آمن وأسلم مكانه، ويبسط يمينه لمبايعة رسول الله ﷺ على الإسلام ليصبح أحد جنود هذه الدعوة المباركة، قرر مصعب أن يكتم إسلامه خوفًا من بطش أمه حتى يقضيَ الله أمرًا، وظل يتردد على دار الأرقم، ويجلس إلى رسول الله ﷺ، وهو قرير العين بإيمانه، وبتفاديه غضب أمه التي لا تعلم عن إسلامه حتى الآن شيئًا، ولكن مكة في تلك الأيام، لا يُخفى فيها سر خاص بهذه الدعوة الجديدة، فكانت عيون قريش وآذانها على الطريق وراء أي أحدٍ دخل في هذا الدين.

ولقد أبصر به عثمان بن طلحة وهو يدخل دار الأرقم خفية، ثم مرة أخرى وهو يصلي كصلاة محمد ﷺ، فسابق ريح الصحراء إلى أم مصعب خناس بنت ملك، حيث ألقى عليها النبأ الذي طار بصوابها، ووقف مصعب أمام أمه وعشيرته وأشراف مكة المتجمعين حوله يقول لهم في يقين الحق وثباته عن صحة نبأ إسلامه.

وبعد تعذيب مصعب تعذيبًا مريرًا، قررت أمه حبسه في الدار، وأحكمت عليه إغلاقها، وظل رهين محبسه ذاك فترة من الزمان، حتى خرج بعض المؤمنين مهاجرين إلى أرض الحبشة، فاحتال لنفسه حين سمع النبأ، وغافل أمه وحراسه، ومضى إلى الحبشة مهاجرًا بدينه، ويمضي مصعب في الحبشة مدة ثم يعود إلى مكة، وقد تغيَّر حال مصعب تمامًا من الترف إلى شدة الفقر.

فلقد خرج يومًا على بعض المسلمين وهم جلوس حول رسول الله ﷺ، فما إن بصروا به حتى حنوا رؤوسهم، وغضوا أبصارهم، وذرفت بعض عيونهم دمعًا على حال الفتى المنعم، فلقد رأوه يرتدي

جلبابًا مرقعًا باليًا، وقد عاودتهم صورته الأولى قبل إسلامه، حين كانت ثيابه كزهور، ولقد قال رسول الله على هذا المشهد:

لقد رأيت مصعبًا هذا، وما بمكة فتى أنعم عند أبويه منه، ثم ترك ذلك كله، حبًا لله ورسوله ﷺ!! لقد منعته أمه حين يئست من رده إليها كلما كانت تفيض عليه من نعمة، وأبت أن يأكل طعامها إنسان هجر اللات والعزى وحاقت به لعنتها، حتى لو كان هذا الإنسان ابنها.

ولقد كان آخر عهدها به حين حاولت حبسه مرة أخرى بعد رجوعه من الحبشة، فآلى على نفسه لئن هي فعلت ليقتلن كل من تسعين به على حبسه، وكانت تعلم صدق عزمه إذا هم وعزم، فودعته باكية، وودعها باكيًا.

لقد كشفت لحظة الوادع عن إصرار عجيب على الكفر من جانب الأم، وإصرار أكبر على الإيمان من جانب الفتى، فحين قالت له وهي تخرجه من بيتها: اذهب لشأنك، لم أعد لك أمًا، اقترب منها وقال: يا أماه إني لك ناصح، وعليك شفوق، فاشهدي أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، فأجابته غاضبة: قسمًا بالثواقب لا أدخل في دينك، فيُزرى برأيي، ويضعف عقلي.

عبرة

يا شباب، لقد خرج مصعب من النعمة الوارفة التي كان يعيش فيها، مؤثرًا الشظف والفاقة، وأصبح الفتى المتأنق المعطر، لا يُرى إلا مرتديًا أخشن الثياب باليًا، يأكل يومًا، ويجوع أيامًا، لكن روحه المتأنقة بسمو العقيدة، وبنور الله، جعلت منه إنسانًا آخر يملأ الأعين جلالًا، والأنفس روعةً، وفي يومِ أُحد تُنهى قصة هذا الفتى المؤمن شهيدًا كما أراد.

يا أيها الإخوة الكرام، هكذا يقف الكفار في مواجهة المسلمين، فيقومون بتشويه سمعتهم، وإسقاط مكانتهم في المجتمع بكل الطرق التي يرونها مؤثرة، وهم لعدم إيمانهم بالله واليوم الآخر لا يتورعون عن مأثم ولا يخشون عقوبةً على أعمالهم السيئة، فلذلك يبيحون لأنفسهم الكذب والتزوير ويضللون الرأي الَعام بأقوالٍ وأخبارٍ مختلقة، يقصدون منها إضعاف معنوية المسلمين، وهكذا شأن الكفار والمنافقين في حربهم مع المؤمنين في كل زمن، وقد لا يملك المسلمون من وسائل المقاومة إلا الصبر والزهد في الدنيا، وانتظار الفرج، فإذا تحققت فيهم هذه الصفات كما توافرت لدى الصحابة رضوان الله عنهم فإنهم جديرون بنصر الله والتمكين.

أشد حبًا لله

إن الإنسان لا يستطيع أن يعيش حاضره، ولا أن يدرك مستقبله إلا بعد أن يأخذ الدروس والعبر من ماضِيه، ونحن أمة قد امتن الله عليها بباقة عطرة من الرجال الأفذاذ الأتقياء الذين يُندر وجودهم في أيةِ أُمة على مدى العصور والأزمان، وإني والله كلما قلّبت الصفحات في سِيرِ الصحابة والعظائم كنت أتعجب وأقول في نفسي: كيف لأمةٍ عندها كل هذه الذخائر من العظائم أن تكون في ذيل الأمم؟! وكيف لا يعلم شبابنا وفتياتنا تلك الأخبار لتكون لهم قدوةً ونورًا يضيء لهم الطريق إلى الله عز وجل؟! بل وليقتدوا بهم في أفعالهم وأقوالهم، فإن التشبه بالرجال فلاح.

ومن الصحابة الأخيار رضوان ربي عليهم الذين تذوقوا حلاوة الإيمان فسرت في نفوسهم محبة الله ورسوله، وتغذوا بلبان الإسلام فعاشوا سعداء في حياتهم، وسينالون بإذن الله حُسن الثواب في الدار الآخرة، كما حازوا قصبات السبق في الدنيا فهم السابقون الأولون إلى الإسلام.

ضيفنا في هذه السطور من هؤلاء الفائزين بالرضوان، هذا البطل فتى من أكرم فتيان مكة نسبًا وأعزهم أمًا وأبًا، نحن على موعدٍ مع الفتى الأسد في براثنه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .كان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه من أكرم فتيان مكة نسبًا، وأعزهم أصلًا، وقد كان سعدًا حين أشرق نور النبوة في سماء مكة في ريعان الشباب، وقد كان كثير البر بوالديه، شديد الحب لأمه، ولقد تفتحت زهرة شباب سعد على شمس الإسلام، ونور الحقيقة الإلهية الكبرى، فانقاد لها لا يلوي على شيء، فأسرع إلى موكب النور، حتى كان ثالث ثلاثة أسلموا من الرجال، وكان لإسلامه قصة نترك للبطل توضيحها وبيانها لشباب الأمة.

قال سعد: رأيت في المنام قبل أن أُسلم بثلاث ليال كأني غارق في ظلمات بعضها فوق بعض، وبينما كنت أتخبط في لججها لجة هي أعمق الماء- إذ أضاء لي قمر فرأيت نفرًا قد سبقوني إلى ذلك القمر، رأيت زيد بن حارثة، وعلي بن أبي طالب، وأبا بكر الصديق رضي الله عنهم، فقلت لهم: منذ متى أنتم هاهنا؟! فقالوا: الساعة.

ثمَّ إني لما طلع عليَّ النهار بلغني أن رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام مستخفيًا، فعلمت أن الله أراد بي خيرًا، وشاء أن يخرجني بسببه من الظلمات إلى النور، فمضيت إليه مسرعًا حتى لقيته في شعب جياد -أحد طرق مكة- وقد صلى العصر، فسألته عن الإسلام فشرح لي، فأسلمتُ، فما تقدمني أحدٌ سوى هؤلاء النفر الذين رأيتهم في الحلم.

لكن إسلام سعد بن أبي وقاص لم يمر سهلًا هينًا، وإنما تعرض الفتى المؤمن لتجربة من أقسى التجارب قسوةً وأعنفها عنفًا، حتى بلغ من قسوتها وعنفها أن أنزل الله سبحانه في شأنها قرآنًا.

فلنترك لسعد الكلام ليقص علينا خبر هذه التجربة القاسية.

قال سعد: وما إن سمعت أمي بخبر إسلامي حتى ثارت ثائرتها، وكنت فتى برًّا بها محبًا لها، فأقبلت عليَّ تقول: يا سعد ما هذا الدين الذي اعتنقته فصرفك عن دين أمك وأبيك، والله لتدعنَّ دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت، فيتفطّر فؤادك حزنًا عليَّ، ويأكلك الندم على فعلتك التي فعلت، وتُعيِّرك الناس بها أبدَ الدهر!

فقلت: لا تفعلي يا أماه، فأنا لا أدع ديني لأي شيء، لكنها مضت في وعيدها، فاجتنبت الطعام والشراب، ومكثت أيامًا على ذلك لا تأكل ولا تشرب، فهزل جسمها ووهن عظمها وخارت قواها، فجعلت آتيها ساعة بعد ساعةٍ أسألها أن تتبلَّغ بشيءٍ من الطعام أو قليلٍ من الماء، فتأبى ذلك أشد الإباء، وتقسم ألا تأكل أو تشرب حتى تموت أو أدع ديني، وأرجع لعبادة اللات والعزى.

عند ذلك قلت لها: يا أماه إني والله لشديد حبي لك، لكن حبي لله ورسوله لأشد، ووالله يا أماه لو كان لك ألف نفس فخرجت منك نفسًا بعد نفسٍ ما تركت ديني هذا لشيء، فلما رأت الجد مني أذعنت للأمر، وأكلت وشربت على كرهٍ منها، فأنزل الله فينا قوله عز وجل: (وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَى ثُمَّ إِلَى مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (لقمان: ١٥).

عبرة

يا أيها الإخوة الكرام، إن موقف سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه من أمثلة الثابت على هذا الدين رغم التعرض للمِحَن، وقد ظهر بهذا إيمان سعد القوي حيث ثبت على دينه، ولم يخضع لهذا الابتلاء الذي جعله في خيارٍ بين طاعة الله، وطاعة أمه، فاختار ما عند الله عز وجل ، وأنه يؤلِمني أشد الألمِ حينما أرى مؤمنًا يَسْتَجيب لأبٍ فاسِقٍ ويطيعه، ويعصي الله عز وجل ، هذا ليس بِرًا إنما معصِيةٌ وضَعْفًا، فسعد حاولت أمه كثيرًا أن تصرفه عن هذا الدين فلم تفلح، فاستخدمت آخر ورقَةٍ رابحة بيدها، وهي حياتها، فقالت له: يا سعد، إني سأصوم عن الطعام، ولن أفطر حتى تكفر بمحمد أو أن أموت، وظل سعد على إيمانه كالجبال الرواسي.

يا شباب، إن الإسلام يشد المسلمين إلى الآخرة لتهون عليهم الحياة الدنيا، فإذا عرفوا الهدف وطبَّقوه انتصروا على أعدائهم، لأن وصولهم إلى هذا الهدف يستدعي تسابقهم إلى العيش في سبيل الله تعالى، والموت في سبيله، أما أعداؤهم فإن أهدافهم دنيوية قريبة، وإن الوصول إليها يستدعي تنافسهم على البقاء، والمنطق الطبيعي في ذلك أن يحاول كل واحدٍ منهم أن يدرأ الخطر عن نفسه ويتقي بغيره، بينما المنطق بالنسبة للمسلمين الذين يعرفون الهدف السامي أن يفدي كل واحدٍ منهم إخوانه بنفسه ليسبقهم في الوصول إلى الهدف.

ومن هنا كان المسلمون الحقيقيون المدركون لأهداف دينهم المطبقون لمناهجه لا يمكن أن يُغلبوا بشكلٍ نهائي، وإنما قد يصابون بانتكاساتٍ مؤقتة بسبب أخطاءٍ يرتكبونها، ثم يعودون لمحاولة بلوغ الأهداف السامية، كما كان الحال مع أصحاب رسول الله ﷺ.

التحدي العظيم

كان النبي ﷺ يدعو إلى الله على بصيرةٍ فيُشخص الداء ويصف الدواء، ويهدي إلى الحق بالحجة البالغة، والخلق الفاضل، والسلوك النبيل، فلقيَ من أول دعوته من التف حوله وآمن به من غير كبوةٍ أو معارضة، كأنهم كانوا معه إلى الإسلام على موعدٍ، فما إن دعاهم إليه حتى اعتنقوه، وأشربوا حبه، وتوغلوا فيه برفقٍ حتى فقهوا تعاليمه، وتخلّقوا بأخلاقه، فكانوا أئمة يهدون بأمر الله إلى الصراط السوي بالخلق الفاضل والسلوك القويم.

ونحن على موعدٍ مع رجلٍ من هؤلاء الرجال، رجل كان يرعى الغنم، فجاء الإسلام فصنع منه قمة تضيء سماء الكون، بل أصبح معجزة من معجزات هذا الدين العظيم، ومن معجزات هذا الرسول الكريم ﷺ يوم أن استطاع بإذن الله أن يصنع من كل صحابي قرآنًا يمشي بين الناس، يراه الناس فيرون الإسلام من خلاله، فلقد نسخ النبي ﷺ عشرات النسخ من المصحف، بل مئات، بل ألوفًا، ولكنه لم ينسخها بمدادٍ من الحبر على صفحات الورق، ولكنه نسخها بمدادٍ من النور على صفحات القلوب.

وذلك شأن الإيمان إذا عمُقت جذوره، وقويَ سلطانه على النفس، إنه يمد صاحبه بيقين لا يهين، وهمة لا تلين، وأمل لا يخبو، ودافع لا يتوقف، وعزم لا يخور، فهو يملك الدنيا ولكنها لا تملكه، ويجمع المال ولكنه لا يستعبده، وتحيط به النعمة ولكنها لا تُبطره، وينزل به البلاء ولكنه لا يقهره، لا تزيده الشدائد إلا عزيمة مع عزيمته، وقوة إلى قوته، كالذهب الأصيل لا تزيده النار إلا نقاءً وصفاءً، وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه من هذا الصنف من البشر.

يا إخوة حينما يكون الإيمان بالله تعالى قويًا يحمل صاحبه على تحمل الصعاب، واقتحام المخاطر من أجل نصرة هذا الدين العظيم الذي آمن به، وخالطت محبته شغاف قلبه، فتبرز قوة الإيمان وتتفوق رغم قلة العدد، وضعف الإمكانات المادية على كثرة العدد، ووفرة القوة المادية للعدو، وإن من أبرز المواقف التي تدل على قوة الإيمان، موقف الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يومًا إن صدع بالقرآن، فنجده يتحدى صناديد قريش وهم في عزهم ودولتهم وسطوتهم، وهو الرجل الضعيف من ناحية العشيرة، وهو الضعيف من ناحية الجسم، فبرغم ذلك يجهر بالقرآن أمامهم في المسجد، ولم يكن يستطيع الجهر به آنذاك إلا رسول الله ﷺ لقلة عدد المسلمين، وشدة بطش الكفار بهم.

فقد اجتمع يومًا أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: والله ما سمعت قريش القرآن يُجهر به قط، فمن برجلٍ من المسلمين يُسمع القوم كتاب الله؟ فقال عبد الله بن مسعود: أنا، قالوا: إنا نخشاهم عليك يا عبد الله، إنما نريد رجلًا له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه، قال: دعوني، فإن الله سيمْنعُني.

فغدا ابن مسعود رضي الله عنه حتى أتى المقام في الضحى، وقريش في أنديتها، فقام عند المقام ثم قرأ سورة الرحمن رافعًا بها صوته، وزعماء قريش مشدوهون، لا يُصدِّقون أعينهم التي ترى، ولا آذانهم التي تسمع، ولا يتصوَّرون كيف من كان يرعى الغنم لأحدهما أن يتحدى بأسَهم وكبرياءهم عند المقام، فتأمَّلوه قائلين: ماذا يصنع ابن أم عبد وهكذا كان يعرف ابن مسعود في الجاهلية؟ إنه ليتلوا

بعضَ ما جاء به محمد، فقاموا إليه وجعلوا يضربون وجهه، وهو ماض في قراءته حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ.

ثم عاد إلى أصحابه مُصابًا في وجهه وجسده، فقالوا له: هذا الذي خشيناه عليك، فقال: ما كان أعداء الله أهون عليَّ منهم الآن، ولئن شئْتم لأُغادينهم بمثلها غدًا، قالوا: حسبك، فقد أسمعتهم ما يكرهون!!

عبرة

يا شباب، إذا عظم ذكر الله سبحانه وتعالى في قلب المؤمن هان عنده كل شيء، فقد هان هؤلاء الكفار على ابن مسعود على الرغم من شراستهم وتحزبهم ضد دعوة الحق، فتحداهم بما يكرهون، وذلك لأن وجود الإيمان بالله عز وجل في قلبه كانت نسبته عالية جدًّا، بينما كان وجود هيبة الكفار في قلبه ضئيلًا جدًّا، فأقدم على ذلك، وبهذا نعلم أن الرهبة من أعداء الإسلام تتضخم في قلب المسلم بقدر تضاؤل وجود الإيمان بالله تعالى في قلبه، بينما تتضاءل رهبته منهم بقدر قوة إيمانه بالله تعالى وهيمنة هذا الإيمان على مشاعره وسلوكه.

يا أيها الإخوة الكرام، إن رجل العقيدة يتحرك بتلك العقيدة ليُعلِّم الكون كله درسًا عظيمًا في العمل لهذا الدين، والدعوة إلى الله في أشد المواقف، يا إخوة هذا رجل كان يرعى الغنم، فجاء الإسلام فصنع منه قمةً تضيء سماء الإسلام، بل أصبح من معجزات هذا الدين الذي جعل من راعي الغنم قرآنًا يمشي بين الناس فيرون الإسلام من خلاله، نعم ذلك هو شأن الإيمان إذا عمقت جذوره في القلوب، وقوى سلطانه على النفس.

الصابر المحتسب

الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، وهو مع النصر، والنصر معه، والمصابرة من خصال الأخيار يتواصون بها إذا ما اشتد الأمر، وادلهم الخطب ووقع المكره، والحق مع المصابرة جنبًا إلى جنب، والله مع الصابرين يشد من أزرهم ويرفع من شأنهم في الأولين والآخرين، ويعمهم بصلواته، ويتغمدهم برحمته، ويهديهم سواء السبيل.

وقد كان الصبر من أخص خصائص أصحاب النبي ﷺ، فما وهنوا يومًا لما أصابهم في سبيل الله، وما ضعفوا عن تأدية واجب، وما استكانوا لعدو، وما خضعوا إلا للحق، وما طلبوا دنيا ولا سعوا إليها، ولا حسدوا أحدًا عنده منها شيء، فهم أخيار أبرار، نعيمهم في الدنيا الذكر بالقلب والعقل واللسان، والجهاد في سبيل الله، يتلون كتاب الله عز وجل آناء الليل وآناء النهار، ويتدبرون آياته ويتفقهون فيه.

يجلسون عند رسول الله ﷺ كالنجوم الزاهرة حول الشمس الساطعة، يأخذون عنه العلم والقدوة، ويستمدون منه الرشد والحكمة، ويعملون بما يشير به عليهم دون تقصيرٍ أو إبطاء، ويجاهدون معه في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، ويطلبون الشهادة في مواطنها ببسالةٍ واقتدار، فمنهم من ينالها، ومنهم من يموت على فراشه، فيأخذ أجرها بالنية.

ضيفنا في هذه السطور رجل دلف الإسلام إلى قلبه مع أول نسمات الدعوة المحمدية، كان من أشهر مشاهير الصحابة، أخبار صبره تملأ رحب صحائف التاريخ، كان من العبيد المستضعفين، فجعل منه الإسلام أسطورة من أساطير الإيمان، نحن على موعدٍ مع الصابر المحتسب خباب بن الأرت رضي الله عنه.

كان خباب رضي الله عنه ممن اختصهم الله عز وجل برحمته، فوهبه عقلًا متفتحًا، وقلبًا واعيًا، وحصافة متميزة، ولما بزغت شمس الرسالة المحمدية تضيء الدنيا كلها سرعان ما أصابت أنوار النبوة قلب خباب ليخرج من ظلام الجاهلية، ليعيش في نور الإسلام، ويغدو ممن يعبدُ رب الأنام، ويترك عبادة الأوثان والأصنام.

وقد اشتهر خباب في مكة بحسن صناعة السيوف، فكان يعمل في دكانٍ من دكاكين مكة، ولم يلبث مدة من الزمن حتى عرفه الغادي والرائح والكبراء والعامة، وأحبه كل من كان يشتري منه السيوف؛ لِمَا كان عليه من الإتقان في عمله، والصدق في معاملته، والوضوح والصراحة في قوله وفعله.

ولهذا لما بدأ الخيط الأبيض من نور الإسلام يظهر واضحًا، وتتلاشى من أمامه أكداس الظلام؛ تمسَّك بهذا الخيط العظيم حتى وصل إلى منبع النور ومطلعه، والتقى الهادي البشير ﷺ، وسرعان ما نفذ النور إلى قلبه، فمدَّ يده وبايع الصادق المصدوق ﷺ بيعة النجاة، ونطق بها من أعماق روحه وحناياه تُردد معه، وجوارحه تقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وسرعان ما أضاءت هذه الشهادة روحه ونفسه وكيانه فاصطبغ بصبغة الإسلام، وصارت حركاته وسكناته تعمل بمضمون الإيمان.

لم تخف هذه الظاهرة اللطيفة المنيفة على أحدٍ ممن كان حول خباب، وخصوصًا مولاته أم أنمار التي ارتابت من الإشراقات التي لاحظتها على خباب، وكان قد بلغها أنه ودَّع أصنامها وأوثان قريش وداعًا أبديًا غير مأسوفٍ عليه، ولما سألت خبابًا عن حقيقة ما بلغها لم يكتم أمره، وإنما قال لها: يا سيدتاه لقد آمنت بالله ربًا، وبمحمدٍ رسولًا، ورضيت بالإسلام دينًا، شرقت سيدته بكلماته حتى كاد أن يغشى عليها مما سمعته من ألفاظ التوحيد، وثارت ثائرتها وانهالت عليه تلكمه وتضربه وتشتمه شتمًا قبيحًا.

ثم إنها أعلمت أخاها سباع ابن عبد العزى، وكان سيئًا شرسَ الخلق، فكان يتفنن في تعذيب خباب ويرهقه ويسبه، ويعمد إلى الحجارة المحماة فيلصق ظهره بها، ويترك الحديد المحمي على جسده دون أن يستطيع أن يقوم، وكانوا يأخذون بشعره فيجذبونه جذبًا شديدًا، ويلوون عنقه ليًا عنيفًا تكاد روحه تزهق منه.

كانت أم أنمار تُبدعُ في تعذيب فتاها خباب بن الأرت، وكانت شديدة الحقد على النبي ﷺ الذي أخرج فتاها خبابًا من الظلمات إلى النور، فقد كان رسول الله ﷺ يألفُ خبابًا ويأتيه في دكانه، وزاد من غيظ هذه المرأة الحاقدة أنها رأت رسول الله ﷺ يمر بدكان خباب ويحادثه، وخباب يكلمه باحترام وتوقير، ويعي الكلمات المحمدية، فطار صوابها وثارت ثائرتها، وأقسمت باللات والعزى لتذيقنَّ خبابًا مرارة العذاب وقسوته، فكانت تأتي بالحديد المحمي من الموقد، وتضعه على رأسه حتى يُدخن ويُغمى عليه ويفقد صوابه.

ولكنه لم تلن له قناة ولم يواتها على ما تشتهيه من رده إلى غياهب الشرك وظلماته، بل كان يدعو عليها، فاستجاب الله عز وجل لدعاءه؛ فأصيبت بصداع أرقها وأزعج من حولها، حتى نصح لهم الأطباء أنه لا شفاء لها من آلامها ومرضها إلا إذا كويت بالحديد المحمي في النار، فكان عذابها مضاعفًا، إذ كانت تتلقَّى آلام الصداع وحرارة الكي وشدته، وبهذا استجيبت دعوة خباب رضي الله عنه في مولاته الظلوم الغشوم، وذاقت حرارة العذاب الذي كانت تذيقه لفتاها المؤمن المستسلم للحي القيوم سبحانه وتعالى.

لقد أخذ المشركون يعذبون خبابًا ومن آمن من المستضعفين حتى عِيل صبر الكفرة من ثبات هؤلاء المؤمنين، الذين هانت عليهم نفوسهم في سبيل الله رب العالمين، وفي سبيل نصرة رسوله المبعوث رحمة للعالمين.

عبرة

يا أيها الإخوة الكرام، لقد كان حظ خباب رضي الله عنه من العذاب كبيرًا، ولكن صبره وتضحيته من أجل الحق كانت أكبر وأعظم بكثير، لقد كانوا يقاومون إيمانه بالعذاب، وكان يقاوم العذاب بالصبر والتضحية، فقد كان المشركون يذيقونه أنواعًا من التنكيل، ويأخذون بشعر رأسه فيجذبونه جذبًا، ويلوون عنقه تلوية عنيفة، وأضجعوه مرات عديدة على فحم ملتهب، لقد حوَّلوا كل الحديد الذي كان عنده يُصنع منه السيوف إلى قيودٍ وسلاسل يُحمى عليها في النَّار حتى تستعر وتتوهج، ثم يطوقون بها جسده ويديه وقدميه، ورغم كل هذا العذاب ظل على دينه، يا شباب لقد لامس الإيمان شغاف قلبه، حتى قام لينفض غبار الجاهلية، ويصدع بكلمة الحق لا يصُدُّه صاد.

يا أخي الكريم، إن محمدًا صلوات ربي وسلامه عليه لم يجمع أصحابه على مغنم عاجل أو آجل، بل إنه أزاح الغشاوة عن الأعين، فأبصرت الحق الذي حجبت عنه دهرًا، ومسح الرَان عن القلوب، فعرفت اليقين الذي فطرت عليه، وحرمتها الجاهلية منه، إنه وصل البشر بربهم فربطهم بنسبهم العريق، وسببهم الوثيق، وكانوا قبلًا حيارى محسورين، إنه وازنَ للناس بين الخلود والفناء، فآثروا الدار الآخرة على الدنيا الزائلة، وخيَّرهم بين أصنامٍ حقيرة، وإله عظيم، فازدروا الأوثان المنحوتة، وتوجهوا للذي فطر السموات والأرض.

السماء تستقبل البطل

إن القلب إذا امتلأ بالتوحيد ونور الإيمان واليقين فإن الله يُسخر الكون كله من أجل هذا الإنسان، وكان عباد بن بشر رضي الله عنه من هذا النوع من البشر، فقد ظل عباد في كل لحظة من حياته يتعايش مع آيات القرآن حتى عُرف بين الصحابة بالإمام، وصديق القرآن، فقد ملأ القرآن عليه حياته وأدخل عليه السعادة بكل معانيها كيف لا وهو كلام الرحمن، ومع تلك الرقة التي اكتسبها من آيات القرآن كان أسدًا ضاريًا في ميدان القتال والشرف والرجولة، فها هو يشهد المشاهد كلها، وكان مقاتلًا بارعًا، له من المواقف المشرفة ما يتناسب مع مكانة وقدر رجلٍ يحمل كتاب الله عز وجل .

فقد كان رضي الله عنه شديد الولاء والحب لله ولرسوله ولدينه، وكان هذا الولاء يستغرق حياته كلها وحِسَّه كله، فمنذ سمع النبي ﷺ يقول مخاطبًا الأنصار الذين هو منهم: يا معشر الأنصار، أنتم الشعار، والناس الدثار، فلا أوتين من قبلكم، فمنذ أن سمع عباد هذه الكلمات من رسوله الكريم، ومعلمه وهاديه إلى الله، وهو يبذل روحه وماله وحياته في سبيل الله وفي سبيل رسوله ﷺ، في مواطن التضحية والموت يجيء دومًا أولًا، وفي مواطن الغنيمة والأخذ يبحث عنه أصحابه في جهد ومشقة حتى يجدوه، وهو دائمًا: عابد تستغرقه العبادة، بطل تستغرقه البطولة، جواد يستغرقه الجود، مؤمن قويَ نذر حياته لقضية الإيمان.

وفي حروب الردة، بعد وفاة رسول الله ﷺ حمل عباد بن بشر رضي الله عنه مسئولياته كسيدٍ للأنصار في استبسالٍ منقطع النظير، ففي معركة سهل عقرباء اليمامة التي واجه فيها المسلمون جيشًا من أقسى وأمهر الجيوش تحت قيادة مسيلمة الكذاب، وقد أحس عباد بالخطر الذي يُحدق بالمسلمين من هذه الفتن العمياء، وكانت تضحيته، وعُنفُوانه يتشكلان وفق المهام التي يلقيها عليه إيمانه، ويرتفعان إلى مستوى إحساسه بالخطر ارتفاعًا يجعل منه فدائيًا لا يحرص على غير الموت والشهادة.

وقبل أن تبدأ معركة اليمامة بيوم، رأى في منامه رؤيا لم تلبث أن فُسرت في أرض المعركة، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال لي عباد بن بشر: يا أبا سعيد رأيت الليلة كأنَّ السماء قد فرجت لي، ثم أطبقت عليّ، والله إني لأراها إن شاء الله الشهادة، فقلت له: خيرًا والله رأيت.

فلما اشتدت المعركة، وكانت الكرة على المسلمين، حتى دخل المرتدون إلى خيمة قائد الجيش خالد بن الوليد رضي الله عنه، هنا أحس عباد بن بشر أن مسؤولية المعركة كلها إنما تقع على كاهل الأنصار وحدهم، هنالك اعتلى ربوة عالية وراح يصيح بالأنصار: يا معشر الأنصار، يا معشر الأنصار، أحطموا جفون السيوف، وتميزوا من الناس.

ثم نزل من على الربوة، وقد لبَّى نداءه أربعمائة رجل من أسود الأنصار، منهم أبو دجانة والبراء بن مالك رضي الله عنهما، حتى ردوا المرتدين إلى حديقة الموت، بعد أن قاتلوا أشد القتال يومئذ، فلمَّا تحصن جيش مسيلمة بالحديقة، قاتل البطل القتال اللائق به كرجلٍ مؤمن من الأنصار حتى استشهد رضي الله عنه، ولم يُعرف من كثرة الجروح، إلا من علامة كانت في جسده.

لقد صدقت رؤيته التي رآها في منامه بالأمس، ألم يكن قد رأى السماء تفتح حتى دخل فيها، ثم عادت السماء فطويت عليه، ثم أغلقت؟ وقد فسرها هو بأن روحه ستصعد إلى بارئها في أرض المعركة؟ ولقد صدقت رؤياه، وقد تفتحت أبواب السماء لتستقبل هذا الصحابي المجاهد، الذي قالت عنه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: ثلاثة من الأنصار لم يجاوزهم في الفضل أحد: سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وعباد بن بشر رضي الله عنهم.

عبرة

يا أيها الإخوة الكرام، لقد ارتفع عباد إلى مستوى واجباته كمؤمن من الأنصار، فقد بايع رسول الله ﷺ على الحياة لله، والموت في سبيله، وعندما رأى المعركة الضارية تتجه لصالح الأعداء، تذكر كلمات رسول الله ﷺ للأنصار: يا معشر الأنصار أنتم الشعار، فلا أوتين من قبلكم، وهكذا نزفت دماء هذا الصحابي الجليل التي طالما امتزجت بحب القرآن، وتعطرت بمحبتها لله ورسوله ﷺ، ليلحق صاحبها بحبيبه ﷺ الذي كان لا يغيب عن باله لحظة واحدة، وهكذا هم المؤمنين دائمًا.

يا شباب، لقد كان هؤلاء الصحابة الأماجد الذين استشهدوا وشرفت بهم بطاح اليمامة، والذين بقوا على الحياة بعدما أبلوا بلاءً عظيمًا، هم الصخرة الصلبة التي تحطمت أمامها أحلام طغاة الكفار، ومن ورائهم شياطين الجن الذين زينوا لهم ركوب الضلالة، وأعوانهم الذين روَّجوا بضاعتهم الدنيئة أمام عوام الناس وبسطائهم.

الصحابي الذي أجيزت وصيته بعد موته

هذا الرجل تفرَّد بين الرجال بمكرمة جليلة رفعته عاليًا في سماء العبادة والزهد والتُقى والشجاعة والبطولة، رجل يمتلك من سحر البيان وجزالة الألفاظ وروعة العبارات ما يسرق الألباب من رؤوس ذويها، وما يخطف القلوب من أولى النُهى، وهو أحد السابقين للإسلام في المدينة، إذ ما كاد يستمع إلى آيات الذكر الحكيم يُرتلها الداعية الشاب مصعب بن عمير رضي الله عنه بصوته الشجي وجرسه الندي حتى أسر القرآن سمعه بحلاوة وقعه، وملك قلبه برائع بيانه، وخلب لبه بما حفل به من هدي وتشريع، فشرح الله صدره للإيمان، وأعلى قدره، ورفع ذكره بالانضواء تحت لواء نبي الإسلام.

ضيفنا في هذه السطور، مؤمنٌ عميق الإيمان، تقيٌّ صادق التقوى، شديد الخشية من ربه، عظيم الحذر من كل ما يغضب الله عز وجل، كان يبحث عن الشهادة في مظانها، ففي كل عراكٍ يقول في نفسه: لعلي أنال الشهادة هنا، ظل يتلهَّف شوقًا لليوم الذي يلقى الله فيه شهيدًا في سبيل إعلاء كلمة الحق حتى فاز بها.

نحن على موعدٍ مع رجلٍ من الرجال النجباء الذين صهرهم الإسلام ونقَّاهم، وهو أحد الذين تخرجوا من مدرسة المحمدية، وتشربت قلوبهم مبادئه، فكانوا من الصفوة المختارة التي مدحها رسول الله ﷺ وأثنى عليها.

نحن نلتقي مع صحابي جليل جمع أغصان الألفاظ، وثمار المعاني، تلذ لكلامه الأسماع، وتطرب من جزالته القلوب، هو سيد من سادات الخزرج المرموقين، وجه من وجوه يثرب المعدودين، وكان إلى جانب ذلك ذكي الفؤاد، حاضر البديهة، رائع البيان، جهير الصوت، إذا خطب أسر السامعين، إنه خطيب الأنصار الرجل الذي أوصى بقضاء دينه بعد موته، ثابت بن قيس رضي الله عنه.

لقد كان ثابت مؤمنًا عميق الإيمان، تقيًا صادق التقوى، شديد الخشية من ربه، عظيم الحذر من كل ما يغضب الله عز وجل، وإذ به في يوم من الأيام يقول للحبيب ﷺ: يا رسول الله إني أخشى أن أكون قد هلكت، قال رسول الله: لمَ يا ثابت؟ قال: قد نهانا الله عن أن نحب أن نحمد بما لم نفعل، وأجدني أحب الحمد، ونهى الله عن الخيلاء، وأجدني أحب الجمال، ونهى الله أن نرفع أصواتنا فوق صوتك، وأنا امْرُؤٌ جهير الصوت، فما زال النبي ﷺ يُهدئ من روعه حتى قال: يا ثابت، ألا ترضى أن تعيش حميدًا، وتقتل شهيدًا، وتدخل الجنة؟

فيا لها من بشرى لا تقوم لها الدنيا بكل ما فيها، إنها سعادة الدنيا والآخرة، إنسان يعيش حميدًا في هذه الدنيا، ويعرف حتمًا أنه سوف يقتل شهيدًا ويدخل الجنة، تُرى كيف قضى ثابت تلك السنوات العشر التي قضاها وأمضاها في هذه الدنيا بعد أن عرف أنه من أهل الجنة؟! بل ها هي بُشرى من النبي ﷺ له بالجنة مرة أخرى.

إنه لمَّا نزل قول الحق سبحانه وتعالى: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} (الحجرات: ٢).

تجنب ثابت بن قيس مجالس رسول الله ﷺ على الرغم من شدة حبه له وفرط تعلقه به، ولزم بيته وأغلق عليه باب داره، وجلس يبكي وطال مكثه على هذا الحال، حتى نمَّى إلى رسول الله ﷺ ذلك،

فقال: من يعلم لي علمه؟، فقال رجل: أنا يا رسول الله، فذهب فوجده في منزله جالسًا مُنكِسًا رأسه، فقال: ما شأنك؟ قال: شرٌ، كنت أرفع صوتي فوق صوت رسول الله ﷺ فقد حبط عملي، وأنا من أهل النار، فرجع الرجل إلى رسول الله فأعلمه بالأمر، فقال: فارجع إليه فقل له: لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة، فتبرق أسارير وجهه وهو يقول: بلى، بلى يا رسول الله.

كان الصحابة منذ ذلك اليوم ينظرون إلى ثابت ويقولون: هذا رجل من أهل الجنة يمشي بيننا، فيا لها من بشرى عظيمة لثابت، رجل يمشي على الأرض وهو يعلم علم اليقين أنه من أهل الجنة.

وحفظ ثابت تبعات هذه البشرى بإخلاصه وعبادته، ونضاله وكفاحه، فلقد شهد ثابت بن قيس رضي الله عنه المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ سوى بدر، وأقحم نفسه في غمار المعارك الطاحنة طلبًا للشهادة التي بشره بها الحبيب ﷺ، فكان يخطئها في كل مرةٍ وهي قاب قوسين أو أدنى منه، فقد كان في كل غزوةٍ يُقاتل بشجاعةٍ نادرة وبطولةٍ مذهلة، ولكن شاء الله أن يعيش بعد رسول الله ﷺ ليشترك في قتال المرتدين في معركة اليمامة تحت قيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه ، وكان هو أميرًا لجند الأنصار، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد الرائع من معركة اليمامة الطاحنة.

في حروب الردة كان ثابت في الطليعة دائمًا يحمل راية الأنصار، ويضرب بسيف لا يكْبُو، وفي موقعة اليمامة كانت الريح والدولة في جل المعركة لمسيلمة ورجاله على القوات الإسلامية، حتى بلغ بهم الأمر أن اقتحموا فسطاط خالد بن الوليد، وهموا بقتل زوجته أم تميم، وقطعوا حبال الفسطاط ومزقوها شر ممزق، فرأى ثابت وقع الهجوم الخاطف الذي شنَّه جيش مسيلمة على المسلمين، ورأى يومئذٍ مِن تضعضع المسلمين ما شحن قلبه أسَى وكمدًا، وسمع تنابذهم ما ملأ صدره همًا وغمًا، فأبناء المدن يرمون أهل البوادي بالجبن، وأهل البوادي يصفون أبناء المدن بأنهم لا يحسنون القتال، ولا يدرون ما الحرب.

عند ذلك تحنَّط ثابت وتكفن ووقف على رؤوس الأشهاد، وصاح بصوته النذير الجهير: يا معشر المسلمين ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله ﷺ، بئس ما عودتم أعداءكم من الجرأة عليكم، وبئس ما عودتم أنفسكم من الانخذال لهم، ثم ذهب غير بعيدٍ وعاد، وصاح مرة أخرى وقد رفع طرفه إلى السماء وقال: اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء من الشرك - يعني مسيلمة وقومه، وأبرأ إليك مما يصنع هؤلاء -يعني المسلمين.

ثم هبَّ هبَّة الأسد الضاري كتفًا لكتف مع الغر الميامين، وانضم إليه سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنهما، وكان يحمل راية المهاجرين، وحفر الاثنان لنفسيهما حفرة عميقة، ثم نزلا فيها قائمين، وأهالا الرمال عليهما حتى غطت وسط كل منهما، وهكذا وقفا طودين شامخين، نصف كل منهما غائص في الرمال مُثبت في أعماق الحفرة، في حين نصفهما الأعلى صدراهما وجبهتاهما وذراعاهما يستقبلان جيوش الوثنية والكذب.

وأبلى ثابت يومئذٍ بلاءً عظيمًا ملأ قلوب المسلمين حمية وعزمًا، وشحن أفئدة المشركين وهَنًا ورعبًا، وما زال يجالد في كل اتجاهٍ ويُضارب بكل سلاحٍ حتى أثخنته الجراح فخرَّ صريعًا على أرض المعركة قرير العين بما كتب الله له من الشهادة التي بشَّره بها حبيبه رسول الله ﷺ، مثلوج الصدر بما حققه الله على يديه للمسلمين من النصر المبين.

لمَّا استشهد ثابت بن قيس رضي الله عنه كانت عليه درع نفيسة، فمر به رجل من المسلمين فنزعها عنه وأخذها لنفسه، وفي الليلة التالية لاستشهاده رآه رجل من المسلمين في منامه فقال للرجل: أنا ثابت بن قيس فهل عرفتني؟ قال: نعم، فقال: إني أوصيك بوصيةٍ فإياك أن تقول: هذا حلم فتضيعها، إني لمَّا قُتلت بالأمس مر بي رجل من المسلمين صفته كذا وكذا فأخذ درعي ومضى بها نحو خبائه في أقصى المعسكر من الجهة الفلانية، ووضعها تحت قدر له، ووضع فوق القدر رحلًا، فائت خالد بن الوليد وقل له: أن يبعث إلى الرجل من يأخذ الدرع منه فهي ما تزال في مكانها، وأوصيك بأخرى فإياك أن تقول هذا حلم نائم فتضيعها.

وقل لخالد: إذا قدمت على خليفة رسول الله ﷺ في المدينة فقل له: إن على ثابت بن قيس من الدَيْن كذا وكذا، وإن فلانًا وفلانًا من رقيقه عتيقان فليقض ديني ويحرر غلماني.

فاستيقظ الرجل فأتى خالد بن الوليد فأخبره بما سمع ورأى، فبعث خالد الرجل ليحضر الدرع من عند آخذها فوجدها في مكانها وجاء بها كما هي، ولما عاد خالد إلى المدينة حدث أبا بكر رضي الله عنه بخبر ثابت ووصيته، فأجاز الصديق وصيته، وما عرف أحد قبله ولا بعده أجيزت وصيته سواه.

عبرة

يا شباب، لقد كان ثابت بن قيس رضي الله عنه يحمل قلبًا خاشعًا، وكان يتحلى بالخشية والخوف من كل ما يغضب الله عز وجل، وهكذا يجب أن يكون المسلم، وكان فوق ذلك مجاهد لا يخشى العدو، وكان يبحث عن الشهادة في كل غزوة غزاها وهو يقول لنفسه: لعلي أنال الشهادة، وظل يتلهَّف لهذا اليوم الذي يلقى الله فيه شهيدًا حتى جاء يوم اليمامة، لقد كان ثابت من الرجال النجباء الذين صهرهم الإسلام ونقاهم، وهو أحد الذين تخرجوا في مدرسة النبوة، وتشرَّب قلبه مبادئ الإسلام، وحب رسوله ﷺ.

يا أيها الإخوة الكرام، كان ثابت يحب رسول الله ﷺ ويلزمه، ويتأدب في مجلسه، وهو سيد من سادات الخزرج المرموقين، وشريف من أشرافهم المعدودين، فلقد هذبه الإسلام وسوى بينه وبين غيره ممن هو أقل منه مالًا وأدنى نسبًا وحسبًا، لقد عرف أن الناس سواسية كأسنان المشط، وأنه لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، فجلس مع بلال بن رباح وصهيب الرومي وخباب بن الأرت وغيرهم من الفقراء والعبيد وهو راضي النفس مطمئن القلب لا يبتغي من دنياه إلا رضا الله ورسوله.

من يردهم عنّا وله الجنة

إن المؤمن لو علم أن الله غفر له ذنبًا واحدًا لكان جديرًا به أن يطير فرحًا بتلك المغفرة، ولو علم أن الله تقبل منه عملًا واحدًا لكان جديرًا به أن يطير فرحًا بنعمة القبول، ولذا كان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول: والله لو أعلم أن الله جل وعلا تقبَّلَ مني سجدة واحدة لكنت من أسعد الناس، فقالوا له: ولماذا؟ فقال: لأنه لو تقبَّلها مني لعلمت أني من المتقين، أما سمعتم قول رب العزة سبحانه: (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) (المائدة: ٢٧).

فما ظنك بمن يعلم من الحبيب المصطفى ﷺ بأنه من أهل الجنة؟! إنني والله أجد قلمي عاجزًا عن وصف هذا الشعور وتلك السعادة التي يشعر بها من علم أنه من أهل الجنة.

ضيفنا في هذه السطور مجاهد من المجاهدين العظام، تعرَّض للشهادة، وأبى إلا أن يغترف من كأسها الطاهر المطهر، ففاز بها يوم أحد بعد أن فاتته يوم بدر، نحن على موعدٍ مع أسدٍ من أسود الأنصار البواسل، شاب كريم أخبره الحبيب ﷺ بأنه من أهل الجنة وهو ما زال حيًا يجاهد على أرض الشرف والبطولة يوم أُحُد، إنه الصحابي الجليل عمرو بن معاذ رضي الله عنه، نحن في هذه السطور نتجول بين أروقة التاريخ لنرى صفحة من صفحات بطولة هذا العملاق، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد العظيم.

لقد أسلم عمرو بن معاذ رضي الله عنه وتربَّى في رحاب الإسلام، وسُقيَ بماء الوحي، فلقد كان يسمع القرآن غضًا طريًا من فم الصادق المصدوق ﷺ، فكان قلبه يطير شوقًا للقاء الله، وللنعيم المقيم في جنته، ودار كرامته التي أعدَّها الله لعباده الصالحين، وهكذا ربَّى الإسلام أهله شبابًا وشيبًا.

كان النبي ﷺ قد آخى بعد الهجرة بين عمرو بن معاذ وهو أخو سعد بن معاذ وبين عمير بن أبي وقاص -أخو سعد بن أبي وقاص، وخرج الإخوة في الله عمرو وعمير إلى بدر الكبرى، وكان عمير بن أبي وقاص صغيرًا وقتذاك، كان عمره ست عشر سنة، واستصغره النبي ﷺ، وأراد إرجاعه، ولكنه بكى، فأجازه، وقاتل حتى استشهد على يد أحد فرسان العرب المشهورين وهو عمرو بن عبد ود.

وعاد عمرو بن معاذ من بدر وقد فقد أخاه في الله عمير بن أبي وقاص، وأسف على أنه لم يظفر بالشهادة التي ظفر بها أخوه في الله، فحرص على أن يحلق به في موقعة أخرى، وقد جاء يوم أُحُد بعد عامٍ واحد من بدر، وكان هذا اليوم عصيب على المسلمين، فقد كانت الجولة الأولى للمسلمين، وكان عمرو بن معاذ في مقدمة الصفوف يجالد الأبطال.

ولكن المعركة تحولت، وأخذ المشركون زمام المبادرة، فثبت عمرو حول الرسول القائد صلوات ربي وسلامه عليه هو وسبعة من شباب الأنصار، على رأسهم زياد بن سكن رضوان الله عليهم جميعًا، فلما هاجمت قريش تريد قتل الرسول القائد قال: من يردهم عنا وله الجنة، وفي رواية وهو رفيقي في الجنة، فتقدم شاب من شباب الأنصار فقاتل حتى خر صريعًا، واستمر الأمر كذلك حتى جاء دور عمرو بن معاذ الذي أخذ يجالد بسيفه، حتى تمكن منه ضرار بن الخطاب فقتله.

وتحقق أمل عمرو في الشهادة في سبيل الله، لقد نال الشهادة كما نالها أخوه عمير بن أبي وقاص في بدر، وكما نالها أخوه الأكبر سعد بن معاذ في موقعة الخندق بعد ذلك، ولقد كفر ضرار بن الخطاب الذي قتل عمرو عن جرمه بإسلامه، وقد كان أحد الأبطال المسلمين المشهورين.

عبرة

يا أيها الإخوة الكرام، هذا الموقف يُبين لنا مشهدًا من مشاهد ثبات الأنصار رضي الله عنهم يوم أحد، فقد دعاهم رسول الله ﷺ إلى الثبات، وقتال الأعداء، وثبت الأنصار كالجبال الرواسي، ومنهم كان عمرو بن معاذ الذي كان في حال من اليقين والبصيرة والثبات على الجهاد.

يا شباب، إن من عرف الحق هانت عنده التضحيات، فيتعالى على متع الحياة وعلى زخارفها، لأنه ينتظر متعةً أبدية سرمدية في جناتٍ ونهر في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر، فيُقدم مراد الله على شهواته ولذائذه، ويقدم مراد الله على ما يلذ لعينه، وما يلذ لقلبه، فيسعد في دنياه، ويسعد في أخراه.

يا سادة، إن الجيل الصاعد المتطلع إلى المجد يتطلب إعدادًا صالحًا متدرجًا متينًا ليستطيع سد الثغرات، وحمل الأعباء التي وضعها القدر على كاهله، فلا بُدَّ لنا من إنارة جوانب الإيمان الواعي في نفسه، لأن العقيدة السديدة هي حجر الزاوية في كل عملٍ مثمر بنَّاء، والدعوات التي تحاول خلخلة الدين القيِّم في نفوس الناشئة دعوات استعمارية مدسوسة هدَّامة، إن الإسلام اليوم مظلوم في حياتنا الخاصة والعامة يكاد يضيع بين المتظاهرين باعتناقه البعيدين عن حقيقته، وبين المتنكرين له عن جهل أو غرض، فكن على طريق القوم فإن أمير القوم يرعى القافلة.

راية المسلمين والموت دونها

من أئمة الهدى رجال باعوا أنفسهم وأموالهم لله عز وجل فربح بيعهم ربحًا وافرًا، وفازوا برضوان ربهم في الدنيا والآخرة، وأغناهم الله من فضله فاستغنوا عمن سواه، وعاشوا أعزاءً في كنف الإيمان، وجاهدوا أنفسهم جهادًا سموا به إلى مكارم الأخلاق، وجاهدوا عدوهم فكتب الله لهم النصر عليهم وشفى صدورهم منهم، وأورثهم جنة عرضها السموات والأرض.

ضيفنا في هذه السطور من هؤلاء الأئمة الأعلام، رجل كُفَّ بصره في صغره، ولم يعقه ذلك عن تأدية واجبه في السلم والحرب، وكان له في الإسلام مكانة سامية، وكان بارزًا في صفوف المجاهدين، مع أن الجهاد بالسيف لم يُفرض عليه ولا على أمثاله من ذوي العاهات.

نحن على موعدٍ مع رجلٍ يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، ويحبه المؤمنون جميعًا، وينزلونه من أنفسهم المكانة اللائقة به، ويقدمونه على غيره في كثيرٍ من الوظائف الدينية، نحن نلتقي مع الصحابي الجليل، والمجاهد العظيم، المؤذن الشهيد عبد الله بنً أم مكتوم رضي الله عنه.

فعلى الرغم من أن الله سبحانه وتعالى أعفى عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه وأمثاله من الجهاد، فقد أبت نفسه الطموح أن يقعد مع القاعدين، وقد عقد العزم على الجهاد في سبيل الله، وذلك لأن النفوس الكبيرة لا تقنع إلا بكبار الأمور، فحرص منذ ذلك اليوم ألا تفوته غزوة في سبيل الله، وحدد لنفسه وظيفتها في ساحات القتال، فكان يقول أقيموني بين الصفين، وحملوني اللواء أحمله لكم وأحفظه فأنا أعمى لا أستطيع الفرار من القتال.

وفي السنة الخامسة عشرة للهجرة عقد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه العزم على أن يخوض مع الفرس معركة فاصلة تذيل دولتهم، تزيل هذه الدولة العتيدة من على وجه الأرض، لتفتح الطريق أمام جيوش المسلمين في بلاد العراق وإيران، وجعل لهذه المهمة خطة جديدة، وقائد جديد لقيادة الجيوش الإسلامية في العراق.

فكان قائد الجيش الجديد سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وأوصاه وودعه، ولما بلغ الجيش الإسلامي القادسية، برز عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه لابسًا درعه، مستكملًا عدته، وندب نفسه لحمل راية المسلمين، والحفاظ عليها، أو الموت دونها، فوافق سعد على ذلك وجعل راية المسلمين مع عبد الله بن مكتوم.

والتقى الجمعان؛ فريق الإيمان وفريق الكفر في أربعة أيام قاسية للغاية، وكانت القادسية معركة لم يشهد تاريخ فتوح العراق مثيلًا لها، حتى انجلى اليوم الرابع عن نصرٍ مؤزر للمسلمين، فترنحت هذه الدولة العتيدة، وزال عرش من أعرق عروش الدنيا، ورفعت راية التوحيد في أرض الوثنية، وكان ثمن هذا النصر المبين خمسة آلاف وثمانمائة شهيد، وكان من بين هؤلاء الشهداء الصحابي الأعمى عبد الله بن أم مكتوم مؤذن رسول الله ﷺ، فقد وجد صريعًا بدمائه وهو يعانق راية المسلمين وأمامه اثنتي عشر مقاتل من الفرس قتلهم بسيفه قبل أن يسقط شهيدًا.

عبرة

يا شباب، لقد كان عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه يحب الجهاد في سبيل الله حبًا أذهلِه عن كونه لا يستطيعه، ولولا استخلاف النبي ﷺ له على المدينة لخاض معه المعارك كلها وما تخلَّف عن غزوة قط، ولقد تهيأت أمامه الفرص لتلك المشاركة حينما أقبلت القادسية التي كانت من أهم المعارك الفاصلة بين المسلمين والفرس، فخرج ابن أم مكتوم مع سعد بن أبي وقاص يحمل راية المسلمين، وقاتل هذا المجاهد المحتسب بما استطاع في المعركة حتى نال الشهادة خلالها، ومضى إلى ربه راضيًا مرضيًا، بعد أن أثبت أن المؤمن المخلص لا يستسلم للعجز، بل يحاول ويناضل حتى يبلغ الكتاب أجله.

يا أيها الإخوة الكرام، للإيمان قوة ساحرة، إذ استمكنت من شعاب القلب، وتغلغلت في أعماقه تكاد تجعل المستحيل ممكنًا، فقد رأينا ذلكم الصحابي الجليل الذي ابتلاه الله عز وجل في بصره، لكنه أنعم عليه بنعمة البصيرةِ الثاقبة، وكان يحمل عزيمة قوية تفتت الجبال، وتنفد في الحديد، لمَ لا وهو من أولئك الرجال الذين أُشربت قلوبهم حب النبي ﷺ، فهو أحب إليه من الأهل والعشيرة، وأحب إليه من الزوجة والولد، بل أحب إليه من نفسه التي بين جنبيه، يا إخوة، رجل أنزل الله عذره من فوق سبع سماوات ويأبى إلا أن يجاهد في سبيل الله، هذا هو صاحب الهمة العالية الذي يجب أن يكون قدوة لنا.

قدّم نفسه لله

من المؤمنين رجال أسلموا وجوههم لله تعالى، وأخلصوا له النية في القول والعمل، وجاهدوا فيه حق جهاده، وحرصوا على الموت في سبيله، فوهبت لهم الحياة بعد الموت مع الشهداء الأبرار، وعلى قدر الصبر يكون الأجر، وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم، والإسلام دين يرد الإنسان إلى فطرته، وهي فطرة نقية صافية قيمة لا عوج فيها ولا انحراف، إذا رُد الإنسان إليها تخلص من جميع العوائق التي تحول بينه وبين الإقدام في سبيل الله الواحد الأحد مجاهدًا يكر ولا يفر، ولا يُولي الأدبار إلا متحرفًا لقتال أو متحيزًا إلى فئة يُستعين بها على الكر والفر في ساحات القتال مرة بعد أخرى.

ضيفنا في هذه السطور، عملاق تجلت فيه الاستجابة المخلصة لما يأمر به ربه، أو يدعو إليه نبيه، اختار أرفع الدرجات، وأصدق القربات وهو بذل المال والنفس في سبيل بارئها وخالقها، إنه بطل ضحى بنفسه طلبًا لما عند الله وما أعده لعباده من النعيم المقيم.

نحن على موعدٍ مع بطلٍ حارب وناضل وجاهد وكابد وتعب من أجل نصرة الحق، جاعلًا رايته الشهادة في سبيل الله، إننا مع بطلٍ ساهم بكل ما يملك في بناء دولة الإسلام في المدينة، جسدت ذكره أروع الملاحم والبطولة والشهامة، نحن نلتقي مع الشهيد المبادر، المنفق في سبيل الله ماله، الباذل حياته لوجه ربه، الصدق مع الله في عهده، الشهيد الذي قدَّم نفسه لربه؛ ثابت بن الدحداح رضي الله عنه.

فحين نتهادى إلى سيرة ثابتٍ بن الدحداح رضي الله عنه نجده من الأنصار الذين آووا النبي ﷺ ونصروه واتبعوا النور الذي أُنزل معه، ونجده تلميذًا نابغًا في مدرسة النبوة، وفارسًا شجاعًا يخوض الغمرات ويقتحم المنايا، ويجابه الأخطار، ويواجه الشدائد، ويصارع المكاره، وإلى جانب هذا يسارع إلى إغاثة الملهوف، ونجدة المظلوم، ومواساة المحزون، وفوق هذا كله يقف في الذؤابة العليا من حب الله ورسوله، يستعذب نداء الجهاد، ويستمرئ مشاق القتال، ويشم رائحة الجنة تحت ظلال السيوف.

فلقد ملك حب الجهاد في سبيل الله، وحب الشهادة عقل ثابت بن الدحداحة رضي الله عنه وقلبه، فلما كان يوم أُحُد اندفع المسلمون يجيبون نداء الرسول القائد صلوات ربي وسلامه عليه، للخروج إلى جبل أحد لقتال المشركين، وكان من بينهم ثابت بن الدحداحة رضي الله عنه.

وكان يوم أُحُد مزدحمًا بالدروس الإلهية، فالرسول القائد أعد خطة الدفاع والهجوم، وعهده برجاله ألا يخالفوا له أمرًا، ولكن لحكمة عُليا خالف الرماة أمر رسول الله ﷺ، فأصيب أصحاب رسول الله بهزيمة مفاجئة غير متوقعة، وحاول بعض المشركين قتل الرسول القائد ﷺ، حتى ظن المشركون أنه ﷺ قُتل، وأشاعوا ذلك بين المسلمين لينالوا من عزائمهم، وليثبطوا من هممهم، وليردوهم عن دينهم إن استطاعوا، ولكنَّ المسلمين كانوا أثبت جنانًا رغم مرارة الهزيمة، ورغم كثرة الشهداء.

أما ثابت ابن الدحداح رضي الله عنه أخذ يصول ويجول، وأخذ ينادي بصوتٍ جلجل في كل أرجاء الجبل: يا معشر الأنصار، إليَّ.. إليَّ، أنا ثابت بن الدحداحة، إن كان محمد ﷺ قد قتل، فإن الله حيٌّ لا يموت، يا معشر الأنصار قاتلوا عن دينكم فإن الله مظهركم وناصركم على عدوكم، وما إن فرغ من

ندائه حتى نهض إليه نفر من الأنصار فجعل يحمل بمن معه من المسلمين في استماتةٍ واستبسالٍ على المشركين وهم يتراجعون.

ووقفت له كتيبة فيها رؤساؤهم: خالد بن الوليد، وعمر بن العاص، وعكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الخطاب ولقد أسلموا جميعًا، فجعلوا يناوشونهم، حتى قتل جميع الأنصار حول ثابت، ولم يبقَ غير ثابت، فحمل عليه خالد بن الوليد بالرمح فطعنه فأنفذه في صدره، فوقع على الأرض صريعًا، وكان هو آخر من قُتل من المسلمين في أُحُد عند بعض المؤرخين.

عبرة

يا أيها الإخوة الكرام، لقد ضرب هؤلاء الأنصار مثلًا عاليًا في الثبات والتضحية، حيث جعلوا من أنفسهم حواجز بشرية قوية حالت دون تكاثف الأعداء على رسول الله ﷺ، كما أنهم بثباتهم وإشغالهم الأعداء بالجلاد القوي المتواصل لم يمكنوا الأعداء من ملاحقة المسلمين الذين انحازوا ناحية المدينة، أمَّا هذا المشهد لثابت بن الدحداحة رضي الله عنه الذي نادى إلى الثبات وقتال الأعداء، وكان رضي الله عنه في حالٍ من اليقين حينما لم يثنه عن القتال ما أُشيع من مقتل رسول الله صلى الله عليه، حين أبان لقومه أنَّ الجهاد ماض لإعلاء كلمة الله تعالى، حتى لو مات النبي ﷺ.

تألق أقوام من أصحاب النبي ﷺ في كثير من الأمجاد والمآثر، وضربوا في البطولة والتضحية والفداء بسهم وافر، وباعوا أنفسهم للذي وهبهم الحياة؛ فأحياهم الله حياةً طيبة في الدنيا، ورزقهم الشهادة، فكانُوا بها أحياء في الدار البرزخية، ثم يبعثون ودمائهم تشهد لهم عند ربهم بأنهم صدَقوا ما عاهدوا الله عليه حتى قضوا نحْبهُم؛ فكان لهم ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة.

ضيفنا في هذه السطور مثَل من الأمثلة الصادقة في الإيمان والإخلاص والتفاني في سبيل المبدأ، اجتمع له من الخصال الكريمة ما لم يكد يجتمع لسواه من العظماء، فهو زعيم مطاع، وفارس شجاع، وقائد مجرب، وصحابي مُقرب، وشاعر مجيد، وشهيد سعيد، صرف كل هذه السجايا الطيبة في سبيل تأييد الدعوة الإسلامية، والذود عن حياضها أيام البعثة والحروب، إذ ذكرت المدينة المنورة في التاريخ الإسلامي بالإكبار والإعجاب لما كان لها من سابقةٍ في دعم الإسلام، ونصرة الرسول القائد، فلقد كان رضي الله عنه من بناة مجدها.

بل كان من أعلام أولئك البناة الذائدين عن كلمة الحق الخالدة؛ إذ شهد الحروب كلها مع الرسول القائد صلوات ربي وسلامه عليه إلا الفتح وما بعده فإنه كان قد استشهد فيٍ سبيل الله عز وجل يوم مؤتة، فقد كان القائد الثالث للمسلمين في المعركة، كان رضي الله عنه جاعلًا شعاره دوْمًا في الحروب هذه الكلمات من شعره: يا نفس إلا تقتلي تموتي، نحن على موعدٍ مع الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة رضي الله عنه.

ظل عبد الله بن رواحة رضي الله عنه هذا البطل المغوار شوكةً في ظهر المشركين إلى أن جاء اليوم الذي كان ينتظره بطلنا على شوقٍ ولهفة، ألا وهو اليوم الذي رزقه الله فيه الشهادة في سبيله، وزف العريس إلى جنات الخلد، ونحن نعيش في هذه السطور مع المشهد الختامي لحياة هذا الشاعر الباسل، فتعالوا بنا لنتجول بين أروقة التاريخ لنرى هذا المشهد البطولي العظيم.

في سنة ثمان للهجرة بعث الرسول القائد بثلاثة آلاف من جند الإسلام إلى بلاد الشام للقاء الروم والعرب المستعربين، بعد قتل رسوله الحارث بن عمير الأزدي رضي الله عنه على يد شرحبيل بن عمرو، وقد أمَر على الجيش الإسلامي مولاه زيد بن حارثة، وقال: إن أصيب زيد فعلى المسلمين جعفر بن طالب، فإن أصيب فقائد الجيش عبد الله بن رواحة.

ولما همَّ الجيش الإسلامي بمغادرة المدينة جعل الناس يُودعُون جند الإسلام عامة، ويخصون الأمراء الذين أمرهُم الرسول القائد على الجيش، فلما ودع عبد الله بن رواحة مع من ودَّع بكى، فقالوا: ما يبكيك يا بن رواحة؟، قال: والله ما يُبكيني حُب الدنيا، ولا صبابة بالحياة، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار حيث يقول: (وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا) (مريم: ٧١).

فأيقنت بالورُود ولكني لستُ أدري كيف لي بعدهُ بالصدور، فقال لهم المسلمون: صبحكم الله، ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين، فما إن سمع دُعاءهم بأن يُردوا إلى أهليهم وقف ابن رواحة ينشد ويقول:

لكني أسأل الرحمن مغفرة

وضربة ذات فرع تقذف الزَبدا

أو طعنة بيدي حران مجهزة

بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا

حتى يقال إذا مرُّوا على جدثي

يا أرشد الله من غاز وقد رشدا

أجل يا سادة، تلك كانت أُمنيته، ولا شيء سواها، ضربة سيف، أو طعنة رُمح، تنقُله إلى عالم الشُهداء الظافرين!!

تحرك الجيش الإسلامي ناحية مؤتة، وعندما نزل المجاهدون أرض معان من أرض الشام، بلغهم أن طاغية الروم هرقل نزل في مآبٍ من أرض البلقاء في مئة ألف من الروم، واجتمعت إليه مئة ألفٍ من العرب المستعربة، فلما بلغ ذلك المسلمون قاموا بمعان ليلتين ينظرون أمرهم، وطفقوا يوازنون بين عددهم القليل، وعدد عدوهم الكثير، وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له.

نهض ابن رواحة رضي الله عنه من وسط صفوفهم؛ كالنور في ظلام البهيم، وقال لهم: يا قوم، والله إن الذي تكرهون الذي خرجتم له تطلبون يقصد الشهادة، إنا والله، ما نُقاتل أعداءنا بعدد، ولا قوة، ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكْرمنا الله به، فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحسنيين، النصر أو الشهادة، هتف المسلمون الأقلون عددًا، الأكثرون إيمانًا، هتفوا قائلين: قد صدق والله ابن رواحة.

مضى الجيش إلى طريقه حتى نزل بمؤتة، ووقف في قلته الضئيلة، وجهًا لوجه أمام الكثرة الهائلة، والعدة الغاشمة، إذ رأوْا صفوفًا لا آخر لها، وأعدادًا تفوق الحصر والحساب!

وشمرت حرب الفناء عن ساقيها، فتقدم الأمير زيد بن حارثة فقتل القوم حتى سقط شهيدًا مجيدًا، وتلاه الأمير الثاني جعفر بن أبي طالب فما لبث أن مزقته السيوف إربًا إربًا ونال الشهادة في غبطة وعظمة.

حمل ابن رواحة الراية من جعفر، وكان القتال قد بلغ ضراوته، وكادت القلة المسلمة تتوهُ في زحام الجيش العرَمْرم اللَجب الذي حشدهُ هرقل، وحين كان ابن رواحة يقاتل كجندي، كان يصول ويجول في غير تردُّدٍ ولا مُبالاة، أما الآن وقد صار أميرًا للجيش، ومسؤولًا عن حياته، فقد بدا أمام ضراوة الروم، وكأنما مرَّت به لمسةُ تردُّدٍ وتهيُّب، لكنه ما لبث أن استجاش كل قُوى المخاطرة في نفسه وصاح:

يا نفس إلا تقتلي تموت

هذا حياض الموت قد صليت

وما تمنيت فقد لقيت

إن تفعلي فعلهما هديت

يعني بهذا صاحبيه الَذين سبقاه إلى الشهادة: زيدًا وجعفر رضي الله عنهما.

ثم ارتعد بعدها رعدة مهيبة قال بعدها: يا نفس إلى أي شيءٍ تتوقين؟ إلى امرأتي؟ فهي طالق، إلى غلماني؟ فهم أحرار، إلى مالي: فهو لله ورسوله ﷺ، وحمل الأمير الثالث على العدو، ونفذ إلى صفوف الأعداء، فرأى الموت يحصد المسلمين، ثم عاد وأخذ يؤنب نفسه على تردده كل التأنيب فعاد يقول:

أقسمت يا نفس لتنزلنه

طائعـــــــــــة أو لتكرهنّه

ما لي أراك تكرهين الجنة

إن أجلب الناس وشدوا الرنّة

لطالما قد كنت مُطمئنة

قل أنت إلا نطفةٌ في شنه

ولما نزل أتاه ابن عم له بعظم من لحم فقال: اشدد بهذا صُلبك فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما قد لقيت، فأخذ من يده فانتهشً منه نهشًة، ثم سًمع الحطمة في ناحية الناس فقال: وأنت في الدنيا، ثم ألقاه، ثم رمى بنفسه في وسط الأعداء.

يا سادة، لقدِ انطلق رضي الله عنه يعصف بالروم عصفًا، ولولا كتابٌ سبق بأن يكون اليوم موعدُهُ مع الجنة، لظلَّ يضرب بسيفه حتى يُفْنِي الجموع المقاتلة، ولكن ساعة الرحيل دقت معلنة بدْء مسيرته إلى الله تعالى.

لقد استقبلته السيوف تطعنه في رأسه، فقاتل ودمه ينزف، فاستقبل الدم بيده فدلك به وجهه، وهو يقول: يا معشر المسلمين، ذبوا عن لحم أخيكم، فجعل المسلمون يحملون حتى يحوزوه، فلم يزالوا كذلك حتى سقط شهيدًا مكانه بين الصفين.

يا سادة، لقد هوى جسدهُ، فصعدت إلى الرفيق الأعلى رُوحُه المستبسلة الطاهرة، وتحققت أغلى أمانيه حين قال:

حتى يُقال إذا مرُوا على جدثي

يا أرشد الله من غاز وقد رشدا

وبينما كان القتالُ يدور فوق أرض البلقاء بالشام، كان الرسول القائد ﷺ يجلسُ مع أصحابه في المدينة، يحادثهم ويُحادثونه، وفجأة والحديث ماض في تهلل وطمأنينة، صمت رسول الله ﷺ، وأسبل جفنه قليلًا ثم رفعهما لينطلق من عينيه بريق ساطع يُبلله أسى وحنان!! وطوفت نظراته الآسية بوجوه أصحابه، وقال:

أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها، حتى سقط شهيدًا، ثم أخذها جعفر فقاتل بها، حتى قُتل شهيدًا، ثم أخذها ابن رواحة فقاتل بها حتى قُتل شهيدًا، ثم صمت قليلًا، وتألَّقت عيناهُ بومضٍ متهَلل، مطمئن، مشتاق، ثم قال: لقد رفعوا إلى الجنة!!

عبرة

يا شباب، عندما تردد عبد الله بن رواحة رضي الله عنه بعض الشيء وألحَّ على نفسه لِتُقْدم على تحمل القيادة لم يكن قبل ذلك بمعزل عن القتال، بل كان يقاتل كجندي من المسلمين، فلما آلت إليه مسؤولية قيادة هذا الجيش، وهو يصارع الأهوال حصل منه ما حصل من بعض التردد، خصوصًا أن القائد الذي يحمل الراية يكون مستهدفًا من قبل الأعداء، وتُركَّز عليه الهجمات القوية، وإنَّ تردده هذا وإن كان يسيرًا مع استعداده للشهادة، وتمنِّيه إياها منذ أن كان في العاصمة الإسلامية، وحثه أصحابه على دخول العراك ليدُلَّنا على ضراوة هذه المعركة، وشدة وطئها على المسلمين لضآلة عددهم إلى جانب عدد الرومان.

وإن في هذه الأبيات الشعرية التي صدرت من هذا الصحابي الجليل قبيل استشهاده لعبرة عظيمة ومثلًا عاليًا في محاسبة النفس، وتعنيفها على التكاسل، والتخاذل عن الوصول إلى معالي الأمور، فهو يُقسم على نفسه أن تنزل طائعة أو مكرهة إلى ساحة المعترك الدامي، ويُذكِّرها بأن التردد في ذلك يُعد عزوفًا عن طلب الجنة، كما يذكرها بماضيها المطمئن حيث عاشت طويلًا في دعة وسكينة، فما عليها لو صبرت لحظات في مواجهة الأهوال التي يعقبها السعادة الدائمة، ولا ينسى تذكيرها بأنها لم تكن شيئًا مذكورًا في بداية خلقها.

ثم يعود في البيتين الأخيرين إلى تذكير نفسه بأنها لا مفرَّ لها من الموت، فليكن الموت بالشهادة التي طالما تمناها قبل ذلك، إلى أن أقدم رضي الله عنه فنال ما تمنى من ذلك.

انفروا خفافا وثقالَا

من الذكريات ذكريات لا يطويها الزمان، ولا يعتريها النسيان، لأنها حفرت لها في الأذهان مكانًا مثلت فيه، لا تبارحه ما دامت الأذهان باقيةً، وهناك رجال سطّر التاريخ لهم في أنصع صفحاته مآثر خصهم الله بها دون غيرهم من الناس، تفضلًا منه ونعمة، ومن هذه الذكريات، عندما كانت دموع القائد الأعلى للجيش الإسلامي لفتح القسطنطينية الأمير يزيد بن معاوية تختلط مع دموع أخيه الحسين بن علي وهما ينظران إلى هذا الشيخ الثمانيني وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة.

فتذكر كل منهما قصة هذا البطل الأسطوري الذي كان الإنسان الوحيد على وجه الأرض الذي نال شرف استضافة أعظم مخلوقٍ خلقه الله في الدنيا، يومها كان هذا الصحابي الجليل ومن معه من المسلمين مهددين من قبيلةٍ في مجاهل صحراء العرب لا يبلغ عدد أفراد جيشها الألف، أما الآن فإن هذا الصحابي الطاعن في السن يهدد بنفسه عاصمة أكبر إمبراطورية عرفتها أوروبا في تاريخها، يُهدد القسطنطينية أحصن مدينة على وجه الأرض، لقد كان هذا الشيخ العظيم وهو الصحابي الجليل خالد بن زيد، والذي عُرف في التاريخ بأبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه .

لقد عاش الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه طول حياته غازيًا في سبيل الله، حتى قيل: إنه لم يتخلف عن غزوة غزاها النبي القائد صلوات الله وسلامه عليه، فقد شهد بيعة العقبة وبدر وأحد والمشاهد كلها، كان البطل في هذه المغازي بائعًا نفسه وماله لله رب العالمين، وكان رضي الله عنه شجاعًا صابرًا تقيًا محبًا للغزو والجهاد في سبيل الله، وبعد وفاة الرسول الكريم ﷺ، لم يتخلَّف عن معركةٍ كُتب على المسلمين أن يخوضوها، مهما يكن بُعد الشُقة، وفداحة المشقَّة، وكان شعاره الذي يردده دائمًا في ليله ونهاره، في جهره وإسراره، قول رب العزة سبحانه: (انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا).

كانت آخر غزواته حين جهَّز أمير المؤمنين معاوية ابن أبي سفيان جيشًا بقيادة ابنه يزيد لفتح مدينة القسطنطينية، خرج يزيد على رأس جيشٍ يضم بين أفراده الحسين بن علي والعبادلة الأربعة ليدكوا عاصمة الإمبراطورية الرومانية بكتائب التوحيد، ولم يكد يبصر أبو أيوب جيش الإسلام يتحرك صوب القسطنطينية حتى ركب فرسه، وحمل سيفه، وراح يبحث عن استشهادٍ عظيم طالما حنَّ إليه واشتاق، وكان آنذاك شيخًا طاعنًا في السن يحبو نحو الثمانين من عمره، فلم يمنعه ذلك من أن ينضوي تحت لواء يزيد، وأن يمخر عباب البحر غازيًا في سبيل الله.

فما إن وصلت كتائب النور الإسلامية بقيادة يزيد إلى أسوار القسطنطينية، حتى رأى الجنود من كلى الطرفين رجلًا مُلثَّمًا يطير طيرانًا بفرسه البيضاء نحو حصون الروم، فيحمل ذلك الرجل الملثم على كتائب الروم حتى يُشتتها، والروم مذهولون من هول ما يرون، فأمعن المسلمون النظر بهذا الفارس الذي يُقبل على الموت إقبالًا لكي يتعرَّفوا على هويته، فإذ هو ذلك الرجل الثمانيني أبو أيوب الأنصاري.

فأخذ أبو أيوب يزلزل جحافل الروم بسيفه حتى أصيب، وذهب قائد الجيش يعوده، وكانت أنفاسه تسابق أشواقه إلى لقاء الله عز وجل، فسأله يزيد: ما حاجتك يا أبا أيوب؟ ترى، هل فينا من يستطيع أن يتصور، أو يتخيل ماذا كانت حاجة أبي أيوب؟ كلا.

فقد كانت حاجته وهو يجود بروحه شيئًا يُعجز ويعيي كل تصور، وكل تخيل لبني الإنسان، فلم يذكر متعة من متع الدنيا، ولا منفعة من منافع الحياة، ولا عرضًا من أعراض الناس، لقد طلب من يزيد إذا وافته المنية أن يحمل جثمانه فوق فرسه، ويمضي به أطول مسافة ممكنة في أرض العدو، وهناك يدفنوه عند أقرب نقطة من أسوار القسطنطينية، لتطوى بذلك صفحة باسلة، ليس في تاريخ البطولة الإسلامية مثلها.

عبرة

يا أيها الإخوة الكرام، لقد أراد أبو أيوب رضي الله عنه بوصيته هذه أن يُعلق أبصار رفاقه وهممهم ببلوغ الغاية الكبرى، وتحقيق النصر، فأراد أن يتوغَّل المسلمون بجثمانه إلى أبعد مكانٍ ممكن من الأرض التي ينزل فيها العدو ويدفنوه فيها؛ تطلعًا منه إلى يوم النصر، ورغبةً عنده في أن يكون جثمانه طليعة للمجاهدين المظفرين من ورائه، وكأنه يريد أن يقول لربه يوم لقائه: إلهي، ها أنذا قد جاهدت في سبيلك بحياتي، وجاهدت في سبيلك بجثتي بعد مماتي.

في هذا الخبر أيضًا دليل على شجاعة أبي أيُوب الأنصاري رضي الله عنه ورباطة جأشه، حيث استطاع الصمود لفئة من الروم، وإلجائهم إلى الفرار منه لسرعة هجومه ومقدرته على التحرك في القتال في عدة اتجاهات، إن وجود مثل هذا البطل في جيش المسلمين يُفزع الروم ويملأ قلوبهم رعبًا، ويجعلهم يترددون كثيرًا قبل التفكير في مواجهة المسلمين.

رجل صدق الله فصدقه

الإنسان كائن حي متحرك بالإرادة، والإرادة هي الاختيار بالحزم والعزم، ولن يكون المرء مختارًا إلا إذا تحررت إرادته من كل ما يعوقها عن التنفيذ، ولن يكون الحزن مرافقًا لها إلا إذا كانت من ورائها دوافع قوية مبنية على حجج مقنعة، ولن يكون العزم ماضيًا في طريقه السوي إلا إذا صاحبهُ إيمان بالله الذي خلق الإنسان وميَّزه عن الكائنات الحية بالإرادة الحرة، والإيمان درجات أعلاها أن يكون المؤمن مُستجيبًا لله ورسوله، مجاهدًا في سبيله، لا يخشى في الله لومة لائم، ولا يبالي بما أصابه في نصرة الدين مهما اشتدت وطأته وقَويت حدته، فالإيمان هو الاعتقاد الوطيد الراسخ، الذي لا يتطرق إليه شك ولا تعتريه شبهة، ولا يعوقه عن الفرار إلى الله عائق، ولا يحول بينه وبين موصلة الكفاح في سبيله إلا الموت.

ولقد كان أصحاب النبي ﷺ هم الصفوة المختارة لتحمُّل الصدمة الأولى في الصراع الدائر بين الحق والباطل، فضربوا لنا أروع الأمثال في البطولة والتضحية والصبر والمصابرة، وأوجبوا علينا بتألقهم في ميادين الكرامة والشرف أن نهتم بدراسة سيرتهم، لننهج نهجهم بقدر طاقتنا في نصرة الدين وإعلاء كلمة الله في الأرض مهما كلفنا ذلك من جهدٍ وتضحية، ومن هؤلاء الأبرار كان هذا الأعرابي الذي لم تذكر كتب التاريخ له اسمًا، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد الرائع من غزوة خيبر.

قال شداد بن الهاد: جاء رجل من الأعراب إلى النبي ﷺ، فأسلم واتبَّع رسول الله، ثم قال أهاجر معك، فأوصى به النبي ﷺ بعض أصحابه، فلما كانت غزوة خيبر غنم رسول الله ﷺ شيئًا فقسَّمه بين المسلمين، وقسم للأعرابي فأعطى أصحابه ما قسمه له، وكان يرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوا إليه.

فقال الأعرابي: ما هذا؟ قالوا، قسمٌ قسمه الله لك ورسول الله ﷺ، فأخذه فجاء به إلى النبي ﷺ، فقال: ما هذا يا رسول الله؟! قال الرسول القائد: قسمٌ قسمته لك، فقال: يا رسول الله ما على هذا اتبعتك، ولكن اتبعتك على أن أُرمى هاهنا، وأشار إلى حلقه فأقتل في سبيل الله فأدخل الجنة، فقال الرسول القائد: أن تَصْدُق الله يصْدُقك.

فلبثوا قليلًا ثم نهض الرسول القائد صلوات ربي وسلامه عليه إلى قتال العدو مرة أخرى، وكان نصرًا هائلًا للمسلمين، فأتى به يُحمل إلى النبي ﷺ بعد المعركة وقد أصابه سهم حيث أشار، فقال الرسول القائد: أهوَ هوَ؟ قالوا: نعم يا رسول الله، فقال: صدق الله فصدقه، فكفَّنهُ النبي ﷺ في جُبةٍ، ثم قدَّمهُ فصلى عليه، وكان دعاءه له: اللهم هذا عبدك خرج مجاهدًا في سبيلك، وقد قُتل شهيدًا وأنا عليه شهيد.

عبرة

يا أيها الإخوة الكرام، في هذا الخبر من قوة الإيمان الذي ترقَّى بصاحبه حتى أوصله في وقتٍ سريع إلى الزهد في الدنيا، والرغبة في الشهادة في سبيل الله تعالى؛ شوقًا إلى دخول الجنة، وهكذا يفعل الإيمان فعله السريع في النفوس المتجردة من هوى النفس، فيكون الجسد مسخرًا للعقل السليم الذي أدرك أن الحياة الحقيقية التي تستحق أن يعمل لها العقلاء هي الحياة الآخرة، فيتجه المسلم عند ذلك

إلى تأمين القدر الضروري للنجاة من النار ودخول الجنة، ألا وهو أداء الواجبات، واجتناب المحرمات، وعندها يبلغ درجة التقوى، ولكن حينما يسمو الإيمان وتعلو المدارك لا يقتنع المسلم بأن يكون من المتقين فقط؛ بل يريد أن يكون من السابقين بالخيرات، فيسابق في باب النوافل الذي هو مرتع الصالحين، ونجد هذا الأعرابي قد سابق إلى عملٍ من أزكى الأعمال الصالحة، حيث بلغ طموحه إلى الشهادة في سبيل الله تعالى، فأظفره الله بها، وظفر بدعوة النبي ﷺ والشهادة له.

يا شباب، إن هذا الأعرابي نموذج متميِّز في صدق الاتباع للنبي ﷺ، وفي إخلاص النية، وطلب الجنة، والاستعداد للتضحية بالروح في سبيل الله عز وجل.

إن الإيمان الصادق يا إخوة هو الذي يدفع المؤمن إلى البذل والتضحية، أما من يدَّعي الإيمان، ويبخل عن البذل في سبيل الله، ويجبن عن الجهاد لإعلاء كلمة الله فهيهات هيهات أن يكون صدقًا، وإنما يكون عمل الجوارح تصديقًا لما في القلب، لذا كانت قلوب المنافقين خالية من الإيمان كافرة بالرحمن.

ليلة صباحها الجنة

جاء محمد ﷺ بالحق من ربه، فتلقاه أناس كتب الله لهم كُتبًا في أعلى عليين مع الخالدين من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، تجسدت فيهم معالم الهدى فكانوا قدوةً لمن اهتدى، جمعتهم كلمة التوحيد فكانوا بها إخوانًا ائتلفت قلوبهم وتصافت أرواحهم، فكانوا كنفسٍ واحدة يكاد، يقول أحدهم للآخر: يا أنا، لأنه بلغ في الإيثار درجةً فقد معها الأنا، يا له من حبٍ صادق لا يكاد العقل يدرك أبعاده أو يتصور أمداده! فقد كانوا أبطالَ عقيدةٍ وجهاد، أيَّدهم الله بالحق، وأيَّد الحق بهم، فكانوا للنبي ﷺ أنصارًا أبرارًا يلتفون حوله، ويأتمرون بأمره، ويتعلمون منه فنون الحرب، وفنون السلام، تلك الألفة التي جمعتهم لم تكن وليدة أحساب وأنساب وأغراض شخصية، وإنما كانت ألفة سماوية منَّ الله بها عليهم، ليكونوا بها خير أمةٍ أخرجت للناس.

ضيفنا في هذه السطور صادق من الصادقين، وموقن من الموقنين، يترك لذيذ العيش، والظل الوارف، والماء البارد، والزوجة الحسنة، يترك بيته الجديد الوديع، ويترك عمله ووظيفته، يترك أهله وأرحامه، يترك عروسه التي دخل بها منذ لحظات، يترك كل هذا ويخرج بنفسه إلى الله، يخرج باحثًا عن جنات الخلود، فمثله لا تثقله قيود، ومن شدة شغفه وعظيم حرصه على الجهاد، وليقظة قلبه في الاستجابة، خرج إلى الجهاد وانشغل عن الاغتسال من الجنابة، خرج من بين أحضان عروسه ليتلقَّى ضربات السيوف وطعنات الرماح لأن من ورائها جنة عرضها السماوات والأرض.

نحن على موعدٍ مع غسيل الملائكة حنظلة بن أبي عامر رضي الله عنه، ومَن من الناس لا يعرف حنظلة رضي الله عنه؟! هذا البطل الذي وقف التاريخ مشدوهًا ليسجل هذا الموقف بكل عزٍ وفخر، حيث لم يتكرر هذا المشهد في التاريخ من قبل فيما نظن، والله إنني لأجد نفسى عاجزًا عن وصف هذا المشهد المهيب لهذا الصحابي الجليل، لكن قبل ذلك دعونا نتعرف من هو حنظلة بن أبي عامر رضي الله عنه.

إنني والله لأجد نفسي عاجزًا عن وصف هذا المشهد المهيب، إنه رجل استشهد في أرض الشرف والجهاد، فتولت الملائكة تغسيله بأمرٍ من الله عز وجل، يا له من شرف! ويا له من فخر! إنه حنظلة بن أبي عامر الراهب، ذلك الصحابيِّ الجليل، الذي كان أبوه أبو عامر يسأل قبل بعثة النبي ﷺ عن ظهور الرسول، ويسأل الأحبار عن صفته لكي يعرفه إذا ظهر، وكان يخبر الناس بأنه سيؤمن مع هذا النبي المنتظر ويتبعه، فلما بزغ نور الفجر، وظهرت شمس الإسلام على أرض الجزيرة لتضيء الكون كله بنور الإيمان والتوحيد؛ إذ بأبي عامر يحسد النبي ﷺ ويأبى أن يؤمن برسالته، فكان يضمر للنبي ﷺ في قلبه الحسد والحقد والكراهية.

وشاء الحق جل جلاله الذي يملك مفاتيح قلوب العباد أن يفتح قلب ابنه حنظلة لنور الإيمان لكي يسكن في قلبه، وأسلم حنظلة بن أبي عامر رضي الله عنه ولامس الإيمان شغاف قلبه، وأحسَّ بأن حياته لم تبدأ إلا في تلك اللحظة، ومنذ هذا اليوم وحنظلة ملازمًا للحبيب ﷺ ملازمةَ العين لأختها ليقبس من هديه وعلمه وأخلاقه العذبة، فكانت محبته لله ورسوله تزداد يومًا بعد يوم، حتى إنه كان يتمنى أن يفديه بماله ونفسه بل وبكل ما يملك، وكان يتمنى من أعماق قلبه أن يأمره الرسول ﷺ بأمرٍ ليقوم بتنفيذ أمره في التو واللحظة.

ويا له من موقفٍ عظيم لهذا الصحابي الجليل الذي يدل على عمق إيمانه وتجرده وإخلاصه لله جل وعلا، عندما تزوج وفي ليلته التي دخل فيها على زوجته، وبعد أن قضي وطره من زوجته؛ إذ بمنادِ الجهاد ينادي: "يا خيل الله اركبي، يا خيل الله اركبي"، أيجلس مع امرأته وهي في كامل زينتها في أول ليلة من زواجه، ويترك رسول الله ﷺ يخرج للجهاد وهو يجلس في بيته مع زوجته؟! لا والله هذا لا يكون أبدًا، فخرج وهو جُنب ليُقدم نفسه إلى الله تعالى؛ لتنتهي المعركة بهزيمة المسلمين، ويجدوه مدرجًا بدماء العزة، والمياه لا زالت تقطر من على رأسه وجسده، فمن أين جاءته المياه ولا مطر؟، فتعالوا بنا لنشهد هذا الموقف الرائع من غزوة أُحُد.

أخرج محمد بن عمر الواقدي بإسناده عن شيوخه قالوا: كان حنظلة بن أبي عامر تزوج جميلة بنت عبد الله بن أُبي ابن سلول، فأدخلت عليه في الليلة التي في صُبحها قتال أحد، وكان قد استأذن رسول الله ﷺ أن يبيت عندها فأذن له، فلما صلَّى الصبح غدا يريد رسول الله ﷺ، ولزمته جميلة فعاد فكان معها، فأجنب منها ثم أراد الخروج، وقد أرسلت قبل ذلك إلى أربعة من قومها فأشهدتهم أنه قد دخل بها، فقيل لها بعد ذلك: لم أشهدت عليه؟ قالت: رأيت كأن السماء فرجت فدخل فيها حنظلة ثم أطبقت، فقلت: هذه الشهادة، فأشهدت عليه أنه قد دخل بها.

وأخذ حنظلة بن أبي عامر سلاحه، فلحق برسول الله ﷺ بأُحد وهو يسوي الصفوف، قال: فلما انكشف المشركون في أول الأمر، اعترض حنظلة بن أبي عامر لأبي سفيان بن حرب فضرب عُرقوب فرسه فاكتسعت الفرس، ويقع أبو سفيان إلى الأرض، فجعل يصيح: يا معشر قريش، أنا أبو سفيان بن حرب، وحنظلة يريد ذبحه بالسيف، فأسمع الصوت رجالًا لا يلتفتون إليه من الهزيمة حتى عاينه الأسود بن شعوب، فحمل على حنظلة بالرمح فأنفذه، فمشى حنظلة إليه بالرمح وقد أثبته، ثم ضربه الثانية فقتله، فهرب أبو سفيان يعدو على قدميه، فلحق ببعض قريش، فنزل عن صدر فرسه وردف وراء أبي سفيان.

إلى أن قال: قال رسول الله ﷺ: لقد رأيته بين السماء والأرض تغسله الملائكة في صحافٍ من ذهبٍ وفضة، فسلوا زوجه، فذهبوا إلى زوجته ليسألوها، فقالت: لقد خرج وهو جنب، خرج وهو جنب فغُسل في صحائف من ذهب، بشرى له، وله عند الله ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ذاك هو غسيل الملائكة.

عبرة

هكذا يا شباب، يجب أن يكون المؤمن صاحب القلب الحي الذي لا يتأخر لحظة واحدة عن الاستجابة لأمر الله، ولأمر رسول الله ﷺ، والله يا أخوة لن نبلغ مراتبهم حتى نتبع الطريق الذي اتبعوا، نتبع ذلك النور الذي أخذوا منه، والذي اقتبسوا منه، وإن لم نقتبس ونأخذ من ذلك النور فـ والله إنها الخيبة والندامة، فما أحوجنا إلى أن نغتنم كل لحظة في طاعة الله، وأن نستجيب لأمر الله عز وجل.

يا سادة، في هذا الخبر من شوق حنظلة رضي الله عنه القوي إلى الجهاد في سبيل الله تعالى، الذي يتمثل في سرعة خروجه إلى الميدان، الأمر الذي لم يتمكن معه من غُسل الجنابة، حيث عدَّ ذلك مما يعوقه عن الجهاد، والذي يغلب على الظن أن امرأته جميلة قد أخبرته برؤياها، وأنها قد جعلت من تلك الرؤيا مسوغًا لإقناعه باللُبث معها ذلك الوقت رجاء أن تعلق منه بابنٍ يُنسب لذلك الشهيد الصلح، إذ أنه يبعد أن تخبر بتلك الرؤيا الأباعد ولا تخبر بها زوجها، خصوصًا وأن رجاء الشهادة كان هدفًا

ساميًا ومقصدًا عاليًا عند الصحابة رضي الله عنهم ، فيكون إسراعه بالخروج مع علمه بتلك الرؤيا شاهدًا على قوة إيمانه ورسوخ يقينه، وتكون استجابته لها لتغليب هذا المقصد السامي، ليكون له عقب يرجو صلاحه ودعاءه الصالح، لا لمجرد قضاء شهوةٍ لا تخطر له على بالٍ في الغالب وقد نزل بالمسلمين ما نزل.

وفي هذا الخبر أيضًا عِبر في تعلق جميلة بنت عبد الله حين رأت له تلك الرؤيا التي فسرتها بالشهادة، فالمظنون في مثل هذه الحال أن تحاول الابتعاد عنه حتى لا تحمل منه فتكون بعد ذلك غير حظية لدى الخطاب، لكنها تعلقت به رجاء أن تحمل منه فتلد ولدًا يُنسب لذلك الشهيد الذي بلغ درجات عُليا في الصلاح باستقامته أولًا ثم بما ترجوه من نيله الشهادة، ولقد حصل لها ما أمَلت به، فحملت منه وولدت ولدًا ذكرًا سُمِّيَ عبد الله، وكان له ذكرٌ بعد ذلك، وكان من أعلى ما يفتخر به أن يقول: أنا ابن غسيل الملائكة.

وهكذا نجد ارتفاع مستوى الصحابة في النظر إلى رفعة الدين، والعلو في الآخرة، واعتبار الأمور الدنيوية أمورًا ثانوية خاضعة لأمر الدين.

الشهيد المُكلم

من أصحاب النبي ﷺ من أجابته فطرته إلى الإسلام حين دُعيَ إليه دون أن تكون أمامه عقبة تصده عنه، ودون أن تكون له فيه كبوة، كأبي بكر رضي الله عنه، وكثيرين ممن يسر لهم الله السبيل إلى الهدى وأعانهم على أنفسهم وشياطينهم، فلم يتخاذلوا عن نصرة الحق إلى آخر أنفاسهم في الدنيا، ومن بين هؤلاء رجل يكلمه الله بغير حجاب، إن هذا عجيب الذي نقرؤه، رجل يكلمه الله بدون حجاب، ولكن سرعان ما يزول التعجب عندما نرتل قول الله تعالى: (وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) (إبراهيم: ١١).

ضيفنا في هذه السطور، سهلًا مطوعًا في استجابته للإسلام، فكان رضي الله عنه ميسَّرًا إلى هذا الدين، منقادًا إليه بفطرته، فما كاد يسمع به حتى شهد لله بالوحدانية، وشهد لخير البرية بالرسالة، وعمل بمقتضى ما شهد به، فكان عبدًا ربانيًا، يجاهد نفسه ويحملها على الطاعة والإخلاص في القول والعمل، ويجاهد عدوه بسيفه مُقدمًا لا يلوي على شيء، ولا يبالي بما يخلفه وراءه من بناتٍ لا عائل لهن من بعده.

نحن على موعدٍ مع بطلٍ كان مثالًا للشجاعة والفداء، ورمزًا للبطولة النادرة، إنه واحد من عمالقة الجيل الرباني، وبطل من أعظم أبطالهم المغاوير، نحن نلتقي مع الشهيد المكلم عبد الله بن حرام الأنصاري رضي الله عنه.

إن الإنسان لا يدري متى تأتيه الهداية من عند الله سبحانه وتعالى، ولا يدري كيف تأتيه، ولكن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، فها هو عبد الله بن حرام يشغل وقته في عبادة الأصنام مع صديقه عمرو بن الجموح رضي الله عنهما، وإذا بنفرٍ من حُجاج يثرب يقدمون من مكة وقد أسلموا، وأخذوا يحدثون الناس عن الحبيب المصطفى صلواتٍ ربي وسلامه عليه، وعن هذا الدين العظيم الذي لا يأمر إلا بمكارم الأخلاق والآداب وبصلة الأرحام.

ولكنَّ عبد الله لم ينشغل بهذا الأمر ولم يلق له بالًا، وبعد مرور سنة بأكملها جاء إلى يثرب الداعية مصعب بن عمير رضي الله عنه الذي قام بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة؛ ففتح الله به القلوب، وأنار العقول، وشرح به الصدور، فأسلم عدد كبير من أشراف القوم، ولكن تمر الأيام ولم يشرح الله صدر عبد الله إلى الإسلام بعد، وعندما اقترب موسم الحج وأراد المسلمون في يثرب أن يذهبوا إلى الحبيب في مكة لمبايعته بيعة العقبة الثانية، كان عبد الله على موعدٍ مع السعادة في الدنيا والآخرة.

لقد خرج مع حُجاج يثرب ولم يكن قد أسلم بعد، ولم يعلم عبد الله أنه بعد بضع ساعات فقط سيدخل التاريخ من أعظم أبوابه، بل إن الله سيمنحه نعمة الشهادة في سبيله، وفوق كل ذلك فإن الملائكة سوف تُظله بأجنحتها بعد استشهاده، ولكن كل تلك المناقب سوف تتوارى خجلًا أمام تلك المنقبة العظيمة ألا وهي: أن الله جل جلاله سيكلمه بدون حجاب!

يقول كعب بن مالك رضي الله عنه: لما خرجنا إلى الحج وواعدنا رسول الله ﷺ عند العقبة من أوسط أيام التشريق، فلما فرغنا من الحج، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ فيها، وكان معنا

عبد الله بن حرام وكان سيد من ساداتنا أخذناه معنا، وكنا نكتم عن من معنا من قومنا من المشركين أمرنا.

فكلَّمناه وقُلنا له: يا أبا جابر، إنك سيِّد من سادتنا، وشريف من أشرافنا، وإنَّا نرغب بك عما أنت فيه من عبادة الأصنام، وإنَّا نرغب بك أن تكون حطبًا للنار غدًا، ثم دعوناه إلى الإسلام، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا عند العقبة، فأسلم وشهد معنا العقبة، وكان من النقباء، جعله رسول الله ﷺ نقيبًا على قومه من بني سلمة، ولما عاد إلى المدينة وضع نفسه وماله وأهله في خدمة الإسلام، وبعد هجرة الرسول إلى المدينة، كان عبد الله قد وجد كل حظوظه السعيدة في مصاحبة النبي ﷺ ليله ونهاره.

وفي غزوة بدر خرج مجاهدًا، وقاتل قتال الأبطال، وفي غزوة أحد تراءى له مصرعه قبل أن يخرج المسلمون للمعركة، وغمره إحساس صادق بأنه لن يعود، فكاد قلبه يطير من الفرح!! ودعا إليه ولده جابر بن عبد الله، وقال له: إني لا أراني إلا مقتولًا في هذه المعركة، بل لعلي سأكون أول شهدائها من المسلمين، وإني والله، لا أدع أحدًا بعدي أحب إليَّ منك بعد رسول الله ﷺ، وإن عليَّ دينًا، فاقض عني ديني، واستوص بإخوتك خيرًا.

وفي صبيحة اليوم التالي، خرج المسلمون للقاء المشركين، وجاءت قريش في جيش لجب تغزو مدينتهم الآمنة، ودارت معركة رهيبة، أدرك المسلمون في بدايتها نصرًا سريعًا، كان يمكن أن يكون نصرًا حاسمًا، لولا أن الرماة الذين أمرهم رسول الله ﷺ بالبقاء في مواقعهم وعدم مغادرتها أبدًا، لكن أغراهم هذا النصر الخاطف على المشركين، فتركوا مواقعهم فوق الجبل، وشغلوا بجمع غنائم الجيش المنهزم، هذا الجيش الذي جمع فلوله سريعًا حين رأى ظهر المسلمين قد انكشف تمامًا، ثم فاجأهم بهجومٍ خاطف من ورائهم، فتحول نصر المسلمين إلى هزيمة.

ففي هذا القتال المرير، قاتل عبد الله بن عمرو قتالًا مودعًا شهيدًا، ولما ذهب المسلمون بعد نهاية القتال ينظرون شهدائهم، ذهب جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يبحث عن أبيه، حتى ألفه بين الشهداء، وقد مثَّل به المشركون كما مثلوا بغيره من الأبطال، ووقف جابر وبعض أهله يبكون شهيد الإسلام عبد الله بن عمرو بن حرام رضي الله عنه، ومر بهم رسول الله ﷺ وهم يبكونه، فقال: ابكوه، أو لا تبكوه، فإن الملائكة لتظلله بأجنحتها.

كان إيمان أبو جابر متألقًا ووثيقًا، وكان الموت في سبيل الله منتهى أمانيه، ولقد أنبأ رسول الله ﷺ عنه فيما بعد نبأً عظيمًا، يصور شغفه بالشهادة، فقال ﷺ لولده جابر يومًا: يا جابر، ما كلم الله أحدًا قط إلا من وراء حجاب، ولقد كلم أباك كفاحًا أي مواجهة، فقال له: يا عبدي، سلني أعطك، فقال: يا رب، أسألك أن تردَّني إلى الدنيا لأقتل في سبيلك ثانية، فقال له ربه: أنه قد سبق القول مني: أنهم إليها لا يرجعون.

فقال: يا رب فأبلغ من ورائي بما أعطيتنا من نعمة، فأنزل الله تعالى: (وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا. بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ. وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ) (آل عمران: ١٦٩، ١٧٠).

عبرة

يا أيها الإخوة الكرام، في هذا الموقف لعبد الله بن حرام رضي الله عنه، وذلك في إظهار شوقه الشديد للجهاد في سبيل الله تعالى، مع أن الله سبحانه قد عذره في القعود لكبر سنه، فإنه لا يستطيع أن يجاهد بطاقة كاملة، وإن كان الدافع الإيماني لديه قويًا، ومع كونه مصابًا بهذا العذر، فإنه لم يقبل عرض بنيه عليه بالقعود، ورجا الله تعالى أن يموت شهيدًا، ونال ما يرجوه من الشهادة.

وفي هذا الموقف وأمثاله نستشف مثلًا من أمثلة العظمة، حيث تذوب الأجسام في مراد العقول السليمة يتمثل بالطموح نحو بلوغ رضوان الله تعالى والجنة، فيتعرض أولو الألباب لمواطن الشهادة التي فيها رجاء الوصول السريع لتحقيق ذلك الهدف العالي.

روائع من إسلام الصحابة

الداعية الملهم

كان أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه في قِمة هذه النماذج التي عاشت في الجاهلية، والتي جاءها الإسلام، وهي على نقاءٍ فطري، هذا الصحابي الجليل لم يشرب خمرًا، ولم يعبد صنمًا، وكان في مخيلته تساؤل كبير عن الحق الذي يعد شفاءً للنفوس، فقد كان مرة في بلاد الشام في عملٍ تجاري، وقبل أن يغادر الشام إلى بلده مكة رأى رؤيا، رأى قمرًا قد غادر مكانه في الأفق الأعلى، ونزل على مكة حيث تجزَّأ إلى قطعٍ وأجزاء، تفرَّقت في جميع منازل مكة وبيوتها، ثم تضامنت هذه الأجزاء مرة أخرى، وعاد القمر إلى كيانه الأول، واستقر في حجر أبي بكر.

صحا الصديق من نومه، وقد رأى هذه الرؤيا، فسار إلى أحد الرهبان الذين ألفهم، وعقد معهم صلات بالشام، وقص عليه الرؤيا، فتهلل وجه الراهب الصالح، وقال لأبي بكر: لقد أهلَّتْ أيامه، قال: من تعني؟ قال: النبي الذي يُنتَظر، قال الصديق: نبي؟ يجيبه الراهب: نعم، وستؤمن معه، وستكون أسعد الناس به.

عاد أبو بكر إلى مكة المكرمة، لكن هذه المرة عاد إلى مكة، وفيها حدث جلل، وفيها أمر عظيم، وفيها خبر يدوي الأرجاء، ما هذا الخبر؟ اقترب أبو بكر رضي الله عنه من مكة فشعر أن فيها حدثًا لم يكن حينما غادرها، فلما دخل مكة، وقابل أصدقاءه تقدمهم أبو جهل وتعانقا، وبدأ أبو جهل يقول: أو حدَّثوك عن صاحبك يا عتيق، كان لقب الصديق في الجاهلية عتيقًا، فأجابه أبو بكر: ماذا تعني؟ فقال أبو جهل: أعني يتيم بني هاشم، قال أبو بكر: تعني محمدًا الأمين.

دار حوار سريع بين أبي جهل وبين الصديق، قال: سمعت أنت ما يقول يا عمرو بن هشام؟ قال: نعم سمعته، وسمعه الناس جميعًا، قال: وماذا يقول؟ قال: يقول إن في السماء إلهًا، أرسله إلينا لنعبده، ونترك ما كان يعبد آباؤنا، ثم إن الصديق سأل أو قال: إن الله أوحى إليه؟ قال أبو جهل: أجل، قال الصديق: ألم يقل كيف كلمه ربُّه؟ قال أبو جهل: إن جبريل أتاه في غار حراء، عند هذا تألق وجه أبي بكر كأنه الشمس، وقال في هدوءٍ وسكينة: إن كان قال هذا: فقد صدق.

قصد أبو بكر داره ليرى أهله، وينفض عنه تعب السفر، وبعدها يقضي الله أمرًا كان مفعولا، ثم أراد الصديق أن يتصل بالنبي ﷺ اتصالًا مباشرًا، وهو يعرفه معرفة جيدة، حينما كان النبي ﷺ طفلًا صغيرًا، وقد دعاه أصدقاؤه للعب كما يلعب الأطفال عادة، كان يقول ﷺ وهو طفل صغير: أنا لم أُخلَق لهذا، وهو في سنين حياته الأولى كان واعيًا للمهمة الكبرى التي تنتظره.

انتقل أبو بكر الصديق رضي الله عنه من بيته بعد أن نفض عنه وعثاء السفر، وتوجه إلى بيت النبي ﷺ، وجرى حديث بينهما في سرعة الضوء وصفائه، قال أبو بكر: أصحيح ما أنبأني به القوم يا أخا العرب؟ فقال النبي ﷺ: ماذا أنبؤوك؟ قال: قالوا: إن الله أرسلك إلينا لنعبده ولا نشرك به شيئًا، قال النبي: وما كان جوابك لهم يا عتيق؟ قال: قلت لهم: إن قال هذا فقد صدق.

هنا فاضت عينا رسول الله ﷺ من الدمع غبطةً وشكرًا، لأنه يظن أن هذا الإنسان هو أول من يصدقه، وقد تحقق ظنه، ولمَّا فاضت عينا النبي ﷺ بالدموع غبطة وشكرًا عانق صاحبه، وقبَّل

جبينه، ومضى يُحدثه كيف جاءه الوحي في غار حراء؟ قال تعالى: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) (العلق: ١ إلى ٥).

ما كان من هذا الصحابي الجليل بعد أن قبَّله النبي ﷺ وبكى إلا أن شد بكلتا يديه على يد صاحبه، وصافح بهما النبي ﷺ، وقال: أشهد أنك صادق أمين، وأشهد أنه لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله، لذلك قال ﷺ: "ما دعوت أحدًا إلى الإسلام قط إلا كانت له عنه كبوة إلا أخي أبا بكر".

عبرة

يا شباب، عندما تُصدق الحق، وعندما تعين على نشر الحق، وعندما توظف إمكاناتك في نشر الحق فهذا عمل عظيم، الداعية إنسان ضعيف، لكنه قوي بإخوانه، قوي بمَن يأخذ بيد الآخرين معه إلى الله ورسوله، فعندما يلتف الإنسان حوله، ويجد رجالًا بكل معنى الكلمة، أشداء، ورعين، متحفزين، مضحين، مستعدين أن يقدموا الغالي والرخيص، والنفس والنفيس، من أجل هذه العقيدة السمحاء، هذا شيء يثلج صدر أي داعية، طبعًا النبي ﷺ هو سيد الخلق وحبيب الحق، يعني إن لم تكن داعية، فكن معينًا ونصيرًا للدعاة، لا تكن في خندقٍ معادٍ لأهل الحق، كن مع أهل الحق، دائمًا الجماعة المؤمنة كلها مرحومة، وكل واحد له دور، كلهم متعاونون على تحقيق الهدف الكبير الذي من أجله جاءت هذه الرسالة.

يسبق حلمه جهله

إن النفس عزيزة على الإنسان، وقد يتطوع الإنسان بنصح الناس جميعًا أن يتغافروا ويتسامحوا، ولكن إذا مسَّ أحدٌ نفسه هو تجده يثور ويغضب، هذا مع عموم الناس، أما النبي ﷺ لم يكن كذلك، تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "والله ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيءٍ يؤتى إليه قط، حتى تنهك حرمات الله فينتقم لله".

وأمثلة ذلك في السيرة كثيرة جدًّا، والواقع أن المخطئين في حقه كانوا من المسلمين وغير المسلمين، ولا شك أن غير المسلمين كانوا أكثر، وهذا الموقف لأحد المخطئين في حقه ﷺ من غير المسلمين.

كان رسول الله ﷺ يراعي جانب العدل حتى مع أكثر الناس عداوة له، وحتى لو كان الأمر متعلقًا به هو شخصيًا، منها موقف رسول الله ﷺ مع حبر اليهود زيد بن سعنة، ونترك زيد رضي الله عنه يروي لنا قصته مع رسول الله ﷺ.

قال زيد بن سعنة: إنه لم يبقَ من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتُها في وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه، إلا اثنتين لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا، فكنت أتلطف له لأن أخالطه فأعرف حلمه وجهله.

قال زيد: خرج رسول الله ﷺ من الحجرات، ومعه علي بن أبي طالب، فأتاه رجل على راحلته كالبدوي، فقال: يا رسول الله، قرية بني فلان قد أسلموا، وكنت أخبرتهم أنهم إن أسلموا أتاهم الرزق رغدًا، وقد أصابهم شدة وقحط من الغيث، وأنا أخشى يا رسول الله أن يخرجوا من الإسلام طمعًا كما دخلوا فيه طمعًا، فإن رأيت أن ترسل إليهم ما يُغيثهم به فعلت.

قال زيد: فنظر رسول الله ﷺ إلى رجل جانبه أراه عمر، وقال: هل بقى شيئًا عندك من المال، فقال: ما بقيَ منه شيء يا رسول الله.

قال زيد: فدنوت إليه فقلت له: يا محمد، هل لك أن تبيعني تمرًا معلومًا من حائط فلان إلى أجل كذا وكذا، فقال: لا يا يهودي، ولكني أبيعك تمرًا معلومًا إلى أجل كذا وكذا، ولا أسمي حائط بني فلان، فقلت: نعم، فبايعني ﷺ، فأطلقت همياني - أي الكيس - فأعطيته ثمانين مثقالًا من ذهب في تمرٍ معلوم إلى أجل كذا وكذا، ثم قال للرجل: أعجل عليهم وأغثهم به.

فقال زيد: فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة، خرج رسول الله في جنازة رجل من الأنصار ومعه أبو بكر وعمر وعثمان ونفر من أصحابه، فلما صلى عليه الجنازة دنا من جدار فجلس إليه، فأخذت بمجامع قميصه، ونظرت إليه بوجهٍ غليظ، وقلت: ألا تقضيني يا محمد حقي؟ فوالله إنكم يا بني عبد المطلب قوم مطل، ولقد كان لي بمخالطتكم علم!!

قال زيد: فنظرت إلى عمر بن الخطاب وعيناه تدوران في وجههِ كالفلك المستدير من شدة الغضب، ثم رماني ببصره، فقال: يا عدو الله، أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع، وتصنع به ما أرى؟ فوالذي بعثه بالحق، لولا ما أحاذر فَوْتَهُ لضربت بسيفي هذا عنقك.

ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في سكون وتؤدة ثم قال: يا عمر، أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا، فقال: ما هو يا رسول الله، قال: أن تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن الطلب، اذهب به يا عمر فاقضه حقه، وزده عشرين صاعًا من تمر مكان ما روعته.

قال زيد: فذهب عمر بي فقضاني حقي، وزادني عشرين صاعًا من تمر، فقلت: ما هذه الزيادة؟ قال عمر: أمرني رسول الله ﷺ أن أزيدك مكان ما روعتك، فقلت: أتعرفني يا عمر؟، قال: لا، فمن أنت؟ قلت: أنا زيد بن سعنة، قال: الحَبْرُ؟ قلت: نعم، الحَبْرُ، قال: فما دعاك أن تقول لرسول الله ﷺ ما قلت، وتفعل به ما فعلت؟ قلت: يا عمر، كل علامات النبوة قد عرفتها في وجهه النبي ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أختبرهما منه: يسبق حلمه جهلَه، ولا يزيده الجهل عليه إلا حلمًا، فقد أخبرتهما الآن يا عمر، فأشهدك يا ابن الخطاب، أني قد رضيت بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا، وأشهدك أن شطر مالي صدقة على أمة محمد ﷺ، وكان كثير المال، فقال عمر: أو على بعضهم، فإنك لا تسعهم كلهم، قال زيد: نعم على بعضهم، ثم رجع عمر وزيد إلى رسول الله ﷺ، فقال زيد: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله.

عبرة

انظر أخي الكريم، إلى هذا اليهودي الذي يُخطِّط ويدبر لكي يستثير غضب رسول الله ﷺ عامًدا متعمدًا، لكي يختبر صدق نبوته، والرسول الكريم لا يعلم الغيب إلا عن طريق الوحي، ولا يوجد في القصة ما يشير إلى أنه كان يعرف أمره، واجتهد اليهودي قدر ما يستطيع لكي يصل برسول الله ﷺ إلى قمة الغضب، فقام بعدة أمورٍ الواحد منها يكفي لإثارة غضب أي إنسان، فقد ذهب لطلب الدَين المستحق له قبل الموعد المحدد لًه، وليس له حق في هذا التوقيت، ثانيًا: أخذ بمجامع قميصه وردائه ﷺ يجذبه، ونظر إليه بوجهٍ غليظ، وأخذ يسُبه، ويسُب عائلته حين قال: فوالله إنكم يا بني عبد المطلب قوم مطل.

إن هذه الأسباب فيها من التطاول والتعدي ما فيها، فإذا أضفت إلى كل هذا أن زيد يخاطب أعلى رأس المدينة، وأعلى سلطة فيها، والرسول يقف آنذاك في وسط قوته وعزوته من المهاجرين والأنصار، إذا أضفت كل ذلك، عرفت أن الجزاء المتوقع لمثل هذا المتطاول هو القتل، وهو لا يكون غريبًا في أعراف الناس، وقد اقترحه عمر.

لكن تلقى النبي ﷺ هذه الاعتداءات من زيد بن سعنة رضي الله عنه ليس بالتماس عذرٍ فقط، بل تلقاها بابتسامة وترحاب، لقد نظر رسول الله كما يروي زيد إلى عمر في سكونٍ وتؤدة وقالً: يا عمر، أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا، فقال: ما هو يا رسول الله؟ قال: أن تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن الطلب، اذهب به يا عمر فاقضه حقه، وزده عشرين صاعًا من تمر مكان ما روعته. إن هذا يا إخوة ليس مجرد عدلٍ فقط؛ بل يقنًا هو أعلى من العدل، هي الرحمة في أجمل صورة لها.

جهاد النفس.. وتحكيم العقل

إن مواقف الصحابة رضي الله عنهم في نصرة الإسلام قد أخذت صورًا متعددة، وإن إسلام عبد الله بن سلام رضي الله عنه يتسم بطابع الانتصار في جهاد النفس وانتزاعها من سيطرة الهوى والتقليد الأعمى، فقد كان عبد الله بن سلام رضي الله عنه من علماء اليهود وسادتهم، فأيقن بأن الإسلام هو الدين الحق، وعرف أنه الدين الذي بشر به أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام، فأظهر إسلامه وتحدى بذلك قومه من اليهود.

لقد كان إسلام عبد الله بن سلام رضي الله عنه وهو في مكانته المرموقة عند قومه اليهود علمًا وفضلًا، وشرفًا في النسب والفضل، ورفعة في الشأن؛ آية من آيات تأييد الله تعالى لنبيه محمدًا ﷺ في مطلع وصوله إلى المدينة، فقد كانت أول أثر من آثار الهجرة المباركة في نشر الدعوة، وسير الرسالة في طريقها إلى العقول والقلوب، وكانت أولى بشائر التوفيق للأنصار الذين يعرفون مكانة عبد الله بن سلام في قومه، وما له عندهم من قداسة واحترام، ويعرفون فضله فيهم، ويعرفون علمه بكتبهم، مما ثبت أقدامهم، وزادهم إيمان على إيمانهم، لأنها قصة بدأت بها معالم النصر لدعوة الإسلام الهادية منذ أول يوم وصل فيه رسول الله ﷺ إلى مشارف المدينة، وهذه قصة إسلامه، فتعالوا بنا لنبدأ تلك القصة المباركة من أولها.

إنه لما أرسل الله سبحانه وتعالى محمدًا ﷺ من العرب - لا من اليهود - امتلأت نفوس اليهود بالحسد والغيرة، وأكل الحقد والغيظ قلوبهم، وجعلوا يشككون في نبوته وفي دينه ويقولون: محمد هذا ليس رسول آخر الزمان الذي كنا ننتظر، وليس دينه هو الدين الحق الذي كنا نبتغي، وحرَّفوا ما جاء في كتابهم عنه، وغيَّروا كل ما يدل عليه من اسم أو صفة أو إشارة.

علمًا بأن النبي ﷺ جاء مصدقًا لما بين أيديهم من الكتاب، موافقًا لكل ما يعرفون من صفة هذا النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة، ولكن طبيعة الأثرة غلبت على نفوسهم، إذ يعتقدون أنهم أبناء الله وأحباؤه وشعبه الذي اختاره على البشر، وأن الرسل والأنبياء لا يكونون إلا منهم، وعز عليهم أن يكون هذا النبي من العرب، لذلك أضمروا له العداوة والبغضاء، وظلت العداوة كامنة في صدورهم لرسول الله ﷺ ولدعوته منذ بعثته.

ولما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة كانوا أول كافر به، بل إنهم منذ اليوم الأول الذي حلَّ فيه رسول الله المدينة واجهه اليهود بالعداوة والمكر، وشجعوا بعض العرب على النفاق وإلقاء أسئلة التعنت، وتواصوا بينهم بالكيد الدائم للرسول ﷺ والإسلام.

ولقد كان الحصين بن سلام وهذا كان اسمه قبل الإسلام من أحبار اليهود، ولكنه كان أتقاهم لله، وأكثرهم علمًا، وكان كلما قرأ في التوراة وقف طويلًا عند الأخبار التي تُبشر بظهور نبي في مكة يتمم رسالات الأنبياء السابقين ويختمها، فكان رضي الله عنه يستقصي أوصاف هذا النبي المرتقب وعلاماته، ويهتز فرحًا لأنه سيهجر بلده الذي بعث فيه، وسيتخذ من يثرب مَهجرًا له ومقامًا.

فلنترك لعبد الله يروى لنا قصة إسلامه فقد قال: لمَّا سمعت بظهور رسول الله ﷺ أخذت أتحرى عن اسمه ونسبه وصفاته وزمانه ومكانه، وأطابق بينها وبين ما هو مسطور عندنا في الكتب حتى

استيقنت من نبوته، وتثبتّ من صدق دعوته، ثم كتمت ذلك عن اليهود، إلى أن كان اليوم الذي خرج فيه رسول الله إلى المدينة، فلما نزل بقباء أقبل رجل علينا وجعل ينادي في الناس معلنًا قدومه، وكنت ساعتئذ في رأس نخلة لي أعمل فيها، وكانت عمتي خالدة بنت الحارث جالسة تحت الشجرة، فما إن سمعتُ الخبر حتى هتفتُ: الله أكبر.. الله أكبر.

فقالت لي عمتي حين سمعت تكبيري: خيبك الله، والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران ﷺ قادمًا ما فعلت شيئًا فوق ذلك، فقلت لها: أيْ عمة، إنه والله أخو موسى بن عمران، وعلى دينه، وقد بُعث بما بُعث به موسى، فسكتت وقالت: أهو النبي الذي كنتم تخبروننا أنه يبعث مصدقًا لمن قبله، ومتممًا لرسالات ربه؟ فقلت: نعم، قالت: فذاك إذًا.

ثم مضيت من توي إلى رسول الله ﷺ، فرأيت الناس يزدحمون ببابه، فزاحمتهم حتى صرت قريبًا منه، فكان أول ما سمعته منه قوله: أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام، فجعلت أتفرس فيه، وأتملى منه، فأيقنت أن وجهه ليس بوجه كذاب، ثم دنوت منه، وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

فالتفت إليَّ وقال: ما اسمك؟، فقلت: الحصين بن سلام، فقال: بل أنت عبد الله بن سلام، فقلت: نعم يا رسول الله، عبد الله بن سلام، والذي بعثك بالحق ما أحبُّ أن لي به اسمًا آخر بعد اليوم، ثم انصرفت إلى بيتي ودعوت زوْجتي وأولادي وأهلي إلى الإسلام، فأسلموا جميعًا، وأسلمت معهم عمتي خالدة، وكانت شيخه كبيرة، ثم إني قلت لهم: اكتموا إسلامي وإسلامكم عن اليهود حتى آذن لكم، فقالوا: نعم.

ثم جئت رسول الله ﷺ فقلت له: يا رسول الله إن اليهود قوم بهتان وباطل، وإني أحب أن تدخلني في بعض بيوتك تغيَبني عنهم، ثم تسألهم عني حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامي، فإنهم إن علموا به بهتوني وعابوني.

وهذه شهادة من عالم كان من علماء اليهود تدل على مدى الانحدار الخلقي الذي آل إليه أمر اليهود، حيث أصبحوا لا عهد لهم ولا ذمة، وإذا كانت هذه حال أسلاف اليهود وهم أقرب إلى عهد رسالتهم فكيف بخلقهم في هذا الزمن؟!

قال: فأدخلني رسول الله ﷺ في بعض بيوته، ودخلوا عليه فكلموه وسألوه، ثم قال لهم: أيُ رجل فيكم الحصين بن سلام؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا، وحبرنا وعالمنا، فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم فقلت: يا معشر يهود اتقوا الله، واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله ﷺ، وتجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة باسمه وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله وأوصي به وأصدقه وأعرفه، فقالوا جميعًا: كذبت ثم وقعوا بي، فقلت لرسول الله ﷺ: ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بهت، أهل غدر وكذب وفجور؟ وهكذا تحقق ظنه فيهم، وبقيت شهادة عليهم من أحد علمائهم الذي كانوا يعدُّونه من سادتهم.

عبرة

يا أيها الإخوة الكرام، هذه القصة تروي لنا كيف كان هذا الصحابي الجليل، فقد كان يهوديًا، وكان حبرًا من أحبار اليهود، وكيف أن انتقال الإنسان من دينٍ إلى دين شيء صعب جدًّا، وسوف يلاقي عِداءً وحقدًا، وربما قتالًا، ومع ذلك فإيمانه كان أكبر، والهدى الذي عرفه كان أقوى من كل معطيات

البيئة؟ فهذا الذي يزعم أن بيئته صعبة، وهو ناشئ في بيئة معينة، وظروفه صعبة وقاسية، وأهله فيهم شدَّة وغلظة، هذا الكلام مرفوض تمامًا، والإنسان إذا عرف الله عز وجل حقًّا يهون أمام هذه المعرفة كل شيء، وأمام طاعة الله لا يعبأ بشيء، فهذا الصحابي الجليل حجة على كل من يزعم أن بيئته صعبة، ويقول: معطياتي صعبة، ونشأت في بيئة معينة، وأنا على دين كذا، فهذا مرفوض.

وجهك أحب الوجوه إلي

إن الإنسان بلا إيمان ريشة في مهب الريح لا تستقر على حال، ولا تسكن إلى قرار، أينما تميلها الريح تميل، والإنسان بلا إيمان لا قيمة له ولا جذور، إنسانٌ قلق متبرم حائر لا يعرف حقيقة نفسه، ولا سر وجوده، لا يدري من ألبسه ثوب الحياة، ولماذا ألبسه إياه، ولماذا ينزعه عنه بعد حين، فالإنسان بلا إيمان قلبه لا يفقه، وأذنه لا تسمع، وعينه لا تبصر، والمجتمع بلا إيمان مجتمع غابة وإن لمعت فيه بوارق الحضارة، لأن الحياة فيه للأقوى لا للأفضل والأتقى، فهو مجتمع شقاء وإن ذخر بأدوات الرفاهية والرخاء.

إنه الإيمان الذي يُحول الظلام الدامس إلى نور ساطع، والقلوب الميتة إلى ضمائر حية، والعبيد إلى سادة للأمم، والضعفاء إلى قادة للشعوب والأجيال، ولذا فإن الأمم لا تنهض من كبوةٍ ولا تقوى من ضعف، ولا ترتقي من هبوطٍ إلا بعد أن يلامس الإيمان شغاف القلوب، ونحن نعلم أن هدم الجبال، أو تحويل مياه البحر، أو تغير معالم الكون أسهل بكثير من تغيير القلوب والعقول.

وعلى الرغم من ذلك فإن الإيمان هو الشيء الوحيد الذي تغيرت به القلوب، وتنورت به العقول، فالإيمان بالله وحده هو الذي يصنع العجائب، ويغير وجهة الإنسان وسلوكه بين التو واللحظة، فلو أنك كنت تعرف إنسانًا في جاهليته، ثم رأيته مرة أخرى بعد إسلامه، لرأيت إنسانًا آخر، وكأن الله أحياه من بعد موته.

ضيفنا في هذه السطور، بطل من أبطال الإسلام الذين اجتذبتهم مكارم الأخلاق النبوية، وأثر فيهم العفو والمعروف، فكانوا من الخالدين في سجلات العظماء الذين نُحلِّي الأفواه بذكرهم والأسماع بسيَرهم، ونعطر المجالس بالحديث عنهم، مع العلم أنه كان يتحين الفرصة لاغتيال رسول الله ﷺ، ولكن لاحظته نفحة من العناية الإلهية فانتشلته من وهدة الجاهلية، وأمواج الظلام، ووضعته على بر الأمان والنقاء والوفاء وطريق النور والصفاء.

نحن على موعدٍ مع رجلٍ لامس الإيمان شغاف قلبه فهدم الجاهلية من جذورها، وبنى فيه صرحًا شامخًا من الإيمان والتقوى، رجل عظيم بذل نفسه وحياته كلها لله ونُصرة دين الله عز وجل ، نحن نلتقي مع السيد العظيم ثمامة بن أثال رضي الله عنه .في السنة السادسة للهجرة كتب رسول الله ﷺ ثمانية كتب إلى ملوك العرب والعجم ليدعوهم فيها إلى الإسلام، وكان في جملةٍ من كاتبهم ثمامة بن أثال الحنفي سيد بني حنيفة، تلقى ثمامة رسالة رسول الله بالاحتقار والإعراض، وأخذته العزة بالإثم، فأصم أذنيه عن سماع دعوة الحق، ثم إنه ركبه شيطانه فأغراه بقتل رسول الله ﷺ، فدأب يتحين الفرص للقضاء على رسول الله حتى أصاب منه غرة، وكادت تتم الجريمة الشنعاء، لولا أن أحد أعمام ثمامة ثناه عن عزمه في آخر لحظة، فنجى الله نبيه.

لكن ثمامة إذا كان قد كف عن رسول الله ﷺ، فإنه لم يكف عن أصحابه، حيث جعل يتربص بهم، حتى ظفر بعددٍ منهم وقتلهم، فأهدر رسول الله دمه.

ثم لم يمض على ذلك وقتٌ طويل حتى عزم ثمامة على أداء العمرة، فانطلق من أرض اليمامة موليًا وجهه شطر مكة، وهو يمني نفسه بالطواف حول الكعبة والذبح لأصنامها، وبينما كان ثمامة في

بعض طريقه قريبًا من المدينة نزلت به نازلة لم تقع له في حسبان، ذلك أن سرية من سرايا المسلمين كانت تتنقل بين الديار لحماية المدينة، فأسرت السرية ثمامة وهي لا تعرفه، وأتت به إلى المدينة، وشدته في سارية من سواري المسجد، منتظرة أن يقف النبي ﷺ بنفسه على شأن الأسير، ولما خرج رسول الله إلى المسجد رأى ثمامة مربوطًا في السارية.

فقال رسول الله: أتدرون من أخذتم؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: هذا ثمامة بن أثال، فأحسنوا معاملته، ثم رجع رسول الله إلى أهله وقال: اجمعوا ما كان عندكم من طعام وابعثوا به إلى ثمامة بن أثال، ثم أمر بناقته أن تحلب له في الغدو والرواح، وأن يقدم إليه لبنها، ثم ذهب رسول الله إليه، وكان يطمع في إسلامه، فقال ما عندك يا ثمامة؟، قال ثمامة: عندي يا محمد خير، فإن تقتل ذا دم - يعني أراق منكم دمًا، وإن تنعم، تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال، فسل تعط منه ما شئت، فتركه رسول الله يومين على حاله، يؤتى له بالطعام والشراب، ويحمل إليه لبن الناقة، ثم جاءه، وقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: ليس عندي إلا ما قلت لك من قبل، فتركه رسول الله ﷺ، حتى كان اليوم التالي جاءه فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: ليس عندي إلا ما قلت لك، فالتفت رسول الله ﷺ إلى أصحابه وقال: أطلقوا ثمامة، ففكوا وثاقه وأطلقوه.

وغادر ثمامة مسجد رسول الله ﷺ، ومضى حتى إذا بلغ نخلًا في أطراف المدينة - قريبًا من البقيع - فيه ماء، أناخ راحلته عندها، وتطهر من مائه فأحسن طهوره، ثم عاد إلى المسجد، فلما بلغ المسجد وقف على ملأ من المسلمين وقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، ثم اتجه إلى رسول الله وقال: يا رسول الله، والله ما كان على ظهر الأرض وجه أبغض إليَّ من وجهك، وقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلي، ووالله ما كان دين أبغض إليَّ من دينك، فأصبح دينك أحب دينٍ إليّ، ووالله يا محمد ما كان بلد أبغض إليَّ من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إليَّ.

ثم أردف قائلًا: لقد كنت أصبت في أصحابك دمًا، فما الذي توجبه عليَّ يا رسول الله؟ فقال نبي الرحمة ﷺ: لا تثريب عليك يا ثمامة، فإن الإسلام يجب ما قبله، فانبسطت أسارير ثمامة وقال: والله لأصيبنَّ من المشركين أضعاف ما أصبتِ من أصحابك، ولأضعن نفسي وسيفي ومن معي في نصرتك يا رسول الله ونصرة دينك، وعلَّمه رسول الله ما يقوم به من المناسك لأداء العمرة على طريقة الإسلام، ثم مضى.

عبرة

يا أيها الإخوة الكرام، إن هذه المعاملة النبوية المتميزة لهذا الرجل المتميز معاملة مثمرة أثرت في نفس ثمامة، وجعلته يفكر في الإسلام تفكيرًا صحيحًا، ويفكر في نبي الإسلام ﷺ تفكيرًا سليمًا، فها هو ذا يقع في قبضته وقد أمكنه الله منه، ولكنه ﷺ، يحسن إليه ويعامله بلطفٍ ومودة، ويغسلُ ما بنفسه من أدران الجاهلية ورذائلها، ويأخذ بروحه إلى مراقي الصفاء ومعالي السناء، وهذا التصرف النبوي الحصيف يشير إلى التربية الحكيمة وأثرها اللطيف، وعملها في تحويل الناس من الشر إلى الخير، وذلك بالإحسان وحسن التدبير.

هذه المعاملة الكريمة من رسول الله ﷺ تركت في نفس ثمامة رضي الله عنه أثرًا طيبًا إلى درجة أنه غيَّر دينه، وأسلم لله رب العالمين، دون ضغطٍ أو إكراه، بل إن إسلامه وُلد قويًا إلى الدرجة التي دفعته إلى مقاطعة قريش من أجل أنها تحارب رسول الله ﷺ - وسنذكر هذا الموقف في هذا الكتاب بعد

قليل - مضحيًا بذلك بثروة هائلة كانت تأتيه من تجارته معها، ومضحيًا كذلك بعلاقات اجتماعية مهمة مع أشراف قريش.

الطريق من الظلمات إلى النور

كان الصحابي الجليل طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه صاحب نفس طيبة تبحث دائمًا عن الخير أينما كان، فكان رضي الله عنه يرى الجاهلية التي يعيشها الناس من حوله فتشمئز نفسه ويتمزق قلبه حزنًا وكَمدًا على تلك الحال التي وصل إليها البشر من عبادة الأصنام، وكان يتمنَّى هو وغيره من أصحاب المروءة والنفوس النقية الصافيةَ التي فطرت على النقاء والصفاء أن تتغير، وأن تتبدل تلك الجاهلية إلى حياة نظيفة طاهرة يعيش الناس من خلالها في ظل الحب والوئام والرحمة والعدل والإخاء والإيثار.

وسرعان ما تحققت تلك الأمنية الغالية للبشر، فلقد بزغ نور الإسلام فأضاء صحراء مكة القاحلة، بل أضاء الكون كله في لحظة واحدة، يوم أن نزل أمين السماء جبريل عليه السلام على أمين الأرض محمد ﷺ ومعه النور الذي أضاء الله به القلوب المظلمة، وهدى به النفوس التائهة في دروب الحياة المتشابكة إلى أنوار التوحيد والإيمان.

كان طلحة رضي الله عنه سباقًا إلى ساحة الإسلام، وأحد جنوده الأوائل، فلنترك الكلام لطلحة ابن عبيد ليروي قصة إسلامه المثيرة..قال طلحة بن عبيد الله: بينما كنت في سوق بصرى الشام في قافلةٍ لقريش، إذا راهب ينادي في الناس: يا معشر التجار، سلوا أهل القوافل أفيهم أحد من أهل مكة؟ وكنت قَريبًا منه، فبادرت إليه وقلت: نعم أنا من أهل مكة، فقال: هل ظهر فيكم أحمد؟ فقلت: ومن أحمد؟ فقال: ابن عبد الله بن عبد المطلب، هذا شهره الذي يظهر فيه، وهو آخر الأنبياء، يخرج من بلد الله الحرام، ويهاجر إلى أرضٍ ذات حجارةٍ سودٍ، ونخيلٍ وسباخ، فقال لي: يا فتى احذر أن يفوتك موكبه، فإنه موكبُ الهدى والرحمة والخلاص.

وحينما عاد طلحة إلى مكة قال لأهله: أكان من حدث بعدنا في مكة؟ قالوا: نعم، قام محمد بن عبد الله، يزعم أنه نبي يوحى إليه من عند الله، وتكلم عن الرسالة التي يحملها إلى العرب خاصة، وإلى الناس كافة، وقد تبعه ابن أبي قحافة (يريدون أبا بكر)، قال طلحة: وكنت أعرف أبا بكر، فقد كان رجلًا سهلًا محببًا، موطأ الأكناف، وكان تاجرًا ذا خلق واستقامة، وكنا نألفهُ ونحب مجالسه لعلمه بأخبار قريش والعرب وحفظه لأنسابها.

وكنت أعرف محمدًا، ولقد بلغ محمد الأربعين من عمره، وما عهدنا عليه خلال هذا العمر كذبة، وكان يطلق عليه الصادق الأمين، أيكذب اليوم على الله، ويقول: إنه أرسلني وأرسل إليّ وحيًا؟ تالله لا يجتمع الاثنان على ضلالة أبدًا.

فمضيت إلى أبي بكر وقلت له: أحقًّا ما يقال من أن محمَّدًا بن عبد الله أظهر النبوة، وأنك اتَّبعته؟ قال: نعم، وجعل يقص عليّ خبره، ويرغبني في الدخول معه، فأخبرته خبر الراهب، فدهش له وقال: هلم معي إلى رسول الله ﷺ لتقص عليه خبرك، ولتسمع ما يقول، ولتدخل دين الله، قال طلحة: فمضيت معه إلى رسول الله فعرض عليّ الإسلام، وقرأ عليّ شيئًا من القرآن، فشرح الله صدري إلى الإسلام، وقصصت عليه قصة راهب بصرى الشام فسر بذلك، ثم أعلنت بين يده الشهادة.

وقع خبر إسلام فتى قريش على أهله وقوع الصاعقة، وكان أشدهم جزعًا لإسلامه أمه، فقد كانت ترجو أن يسود قومه لما يتمتع به من كريم الشَمائل، وجليل الخصال، وقد بادر قومه ليثنوه عن دينه، فوجدوه كالطود الراسخ الذي لا يتزعزع، فلما يئسوا من إقناعه بالحسنى لجؤوا إلى تعذيبه والتنكيل به.

وعلى الرغم من جاهه في قومه، وثرائه العريض، وتجارته الناجحة؛ فقد حمل حظه من اضطهاد قريش له، يقول مسعود بن خراش: بينما كنت أسعى بين الصفا والمروة، إذا أناسٌ كثيرٌ من الناس يتبعون فتى أوثقت يداه إلى عنقه، وهم يهرولون وراءه، ويدفعونه في ظهره، ويضربونه على رأسه، وخلفه امرأة عجوز تسبه وتصيح به.

فقلت: ما شأن هذا الفتى؟! فقالوا: هذا طلحة بن عبيد الله صبأ عن دينه، وتبع غلام بني هاشم.

فقلت: ومن هذه العجوز التي وراءه؟

قالوا: هذه الصعبة بنت الحضرمي أم الفتى، وقد أوكل به وبأبي بكر نوفل بن خويلد الملقب بأسد قريش، فقام إلى طلحة بن عبيد الله فأوثقه في حبل، وأوثق معه أبا بكر، وقرنهما معًا وأسلمهما إلى سفهاء مكة، ليذيقوهما أشد العذاب، لذلك عرف أبو بكر وطلحة بالقرينين، بيدَ أن اضطهادهما لم يطل مداه، إذ سرعان ما خجلت قريش من نفسها، وخافت عاقبة عملها ذلك أن ينقلب العبيد على ساداتهم.

عبرة

يا أيها الإخوة الكرام، حينما يكون الإيمان بالله تعالى قويًا يقدم صاحبه على تجشم الصعاب، واقتحام المخاطر من أجل نصرة هذا الدين الذي آمن به، وخالطت محبته شغاف قلبه، فتبرز قوة الإيمان، وتتفوق رغم قلة العدد وضعف الإمكانات المادية، على كثرة العدد، ووفرة القوة المادية، فهذا طلحة بن عبيد رضي الله عنه أحد أعلام الصحابة الذين انتشر الإسلام على أيديهم، وخرجوا أجيالًا من العلماء بالدين، نجده يتحدى زعماء قريش وهو في عزهم ودولتهم.

يا شباب، إن كنتم تتعجبون من العذاب والأذى لهذا الجيل الفريد، وتستغربون أن تروا ذلك في سبيل الله عز وجل، فاعلموا أن هذا هو السبيل، وتلك هي سنة الله في جميع عباده الذين آمنوا به: فقد مُشِّط الكثير منهم في سبيل دينه بأمشاط الحديد ما بين المفرق والقدم، فما صدهم ذلك عن شيءٍ من دين الله عز وجل.

وإن كنتم ترون في العذاب دلائل اليأس والقنوط من النصر، فأنتم متوهمون، بل الحق هو أن تجدوا في العذاب والألم سيرًا في الطريق، ودنوًا من النصر، وسينصرن الله هذا الدين حتى يسير الرجال من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله، وهذا المعنى نفسه هو السر في أن النبي ﷺ بشَّر أصحابه بأن الله سيفتح لهم بلاد الفرس والروم، ومع ذلك لم تفتح عليهم هذه البلاد إلا بعد وفاة رسول الله ﷺ بزمن غير يسير، ولقد كان من مقتضى فضل رسول الله ﷺ عند ربه ومدى محبة الله له، أن تفتح كل تلك البلاد في حياته وبقيادته وتحت إشرافه، بدلًا من أن يسجل التاريخ فتحها بقيادة أحد أتباعه.

لقد كان هذا قريبًا من مقتضى محبة الله لرسوله، لولا أن النصر مرتبط بالقانون الذي ذكرناه، فلم يكن المسلمِون في حياة النبي ﷺ قد دفعوا من أجل انتصارهم في بلاد الشام والعراق أقساط الثمن كله،

ولا بُدّ قبل النصر من دفع كامل الثمن، لا بُدَ من ذلك ولو كان رسول الله ﷺ موجودًا بينهم، وليست المسألة أن ترتبط الفتوحات باسم رسول الله ﷺ وتتم بقيادته وتحت إشرافه من أجل عظيم محبة الله تعالى له، ولكن المسألة هي أن يبرهن المسلمون الذي بايعوا الله ورسوله على صدقهم في هذه المبايعة، وأن يصدقوا فيما عاهدوا الله عليه يوم أن وقعوا بالقبول والرضا تحت قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ).

المجاهد الزاهد

من أصحاب النبي ﷺ رجال اختطذُوا لأنفسهم في الحياة خطًا لم يحملوا أحدًا عليه، ولم يعدوا الناس إلى اتباعهم فيه، ورأوا أنه هو طريقهم إلى الله فسلكوه راشدين، وفروا إلى الله منطلقين لا يلوون على شيء، ولقد فرض الله على المؤمنين أن يقولوا الحق ولو كان مُرًا، وألا يخشوا في الله لومة لائم، وطلاب الحق لا بُدَّ أن يحيوا معه، وإلا فبطن الأرض خير لهم من ظهرها، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم أمثالًا حية في القوة والحق والثبات والصبر على البلاء والتعذيب في سبيل الله.

ضيفنا في هذه السطور، عملاق زهد في الدنيا زهدًا لم يدانيه فيه أحدٌ من أصحابه لأنه قد بالغ فيه، وأخذ نفسه بالقوة، والله عز وجل لم يكلفه بذلك، ولكنه أراد أن يلحق بالرسول ﷺ في زهده أو يقاربه ليكون رفيقه في الجنة.

نحن على موعدٍ مع نموذجٍ رائعٍ في الثبات والقوة وتحدي أهل الباطل، صحابي كان رأسًا في الزهد، والصدق، والعلم، والعمل، قوَّالًا بالحق، لا تأخذه في الله لومة لائم، رجل ملأ الدنيا بزهده وورعه، لم تستطع الدنيا أن تنال من قلبهِ شيئًا، نحن نلتقي مع الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، ونحن في هذه السطور نعيش مع مواقفه الرائع، وصموده البطولي أمام طوفان الوثنية، فتعالوا بنا لنتجول معًا بين أروقة التاريخ لنرى هذا المشهد الرباني الفريد.

فقد روي عنه أنه لما بلغ أبا ذر مبعث النبي ﷺ بمكة قال لأخيه أنيس: اركب إلى هذا الوادي فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه يأتيه الخبر من السماء، فاسمع من قوله ثم ائتني، فانطلق أخوه حتى قدم مكة، وسمع من رسول الله ﷺ، ثم رجع إلى أبي ذر فقال: يا أخي، رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، وكلامًا ما هو بالشعر، فقال: ما شفيتني فيما أردت.

فتزود وحمل معه قربة فيها ماء في طريقه إلى مكة، أقبل على مكة نشوان مغتبطًا، صحيح أن وعثاء السفر، وفيح الصحراء، قد أصابه بالضنى والألم، بيد أن الغاية التي يسعى إليها، أنستْه جراحه، وأفاضت على روحه الحبور والبشر، ودخلها متنكرًا، كأنه واحد من أولئك الذين يقصدونها ليطوفوا بالأصنام، أو كأنه عابر سبيل ضلَّ طريقه، أو طال به السفر والارتحال فأوى إليها يستريح ويتزود، فلو علم أهل مكة أنه جاء يبحث عن النبي ﷺ، ويستمع إليه لفتكوا به، وهو لا يرى بأسًا في أن يفتكوا به، ولكن بعد أن يقابل الرجل الذي قطع الفيافي ليراه، وبعد أن يؤمن به، إن اقتنع بصدقه واطمأن لدعوته، ولقد مضى يتسمع الأنباء من بعيد، وكلما سمع قومًا يتحدثون عن محمد اقترب منهم في حذر.

فأتى المسجد فالتمس النبي ﷺ وهو لا يعرفه، وقد كره أن يسأل عنه، حتى أدركه بعض الليل، فاضطجع فرآه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فعلم أنه غريب، فلما رآه تبعه فلم يسأل واحد منهم الآخر عن شيء، وعندما أصبح، احتمل أبو ذر قربة الماء وزاده إلى المسجد فظل ذلك اليوم، وهو لا يرى النبي ﷺ، حتى أمسى فعاد إلى مضجعه.

فمر به علي فقال: ما آن للرجل أن يعلم منزله، فذهب أبو ذر معه، ولا يسأل واحد منهم صاحبه عن شيء، فلما كان اليوم الثالث فعل مثل ذلك، فقال علي له: ألا تحدثني ما الذي أقدمك هذا البلد؟ قال أبو

ذر: إن أعطيتني عهدًا وميثاقًا لترشدني فعلت، ففعل، فأخبره، فقال علي: فإنه حق وهو رسول الله ﷺ، فإذا أصبحت فاتبعني فإني إن رأيت شيئًا أخاف عليك قمت كأني أريق الماء، فإن مضيت فاتبعني حتى تدخل مدخلي، ففعل فانطلق وراءه.

حتى دخل على النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله، اعرض عليَّ الإسلام، فعرض عليَّ، فأسلمت مكاني، وتوجه إلى الرسول ﷺ فور إسلامه بهذا السؤال: يا رسول الله بما تأمرني؟ فأجابه رسول الله ﷺ: يا أبا ذر، اكتم هذا الأمر، وارجع إلى قومك، فإذا بلغك ظهورنا، فأقبل، فقال أبو ذر: والذي بعثك بالحق لا أرجع حتى أصرخ بالإسلام بين أظهرهم.

تلك هي طبيعة أبي ذر رضي الله عنه، خُلق ليتمرد على الباطل أنى يكون، وها هو ذا يرى الباطل بعينيه حجارة مرصوصة، ميلاد عابديها أقدم من ميلادها، ففي اللحظة التي يكتشف فيها زيف هذه الأصنام، إذ به عالمًا جديدًا بأسره، يتمثل في الرسول الذي آمن به، وفي الدعوة التي سمع تباشيرها على لسانه، أفي هذه اللحظة الحاسمة بين الحق والباطل يرجع أبو ذر إلى أهله صامتًا؟! هذا أمر فوق طاقته.

هنالك دخل المسجد ونادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله وأشْهد أنَّ محمدًا رسول الله، كانت هذه الصيحة فيما نعلم أول صيحة بالإسلام تحدتْ كبرياء قريش، وقرعت أسماعها بصوت الحق، صاحبها رجل ليس له في مكة حسب ولا نسب ولا حمَى، ولقد لَقي ما لم يكن يغيب عن فطنته أنه مُلاقيه، فقد أحاط به المشركون، وضربوه حتى صرعوه.

وترامى النبأ إلى العباس عم النبي، فجاء يسعى، وما استطاع أن ينقذه من بين أنيابهم إلا بالحيلة، فقد قال لهم: يا معشر قريش، أنتم تجار، وطريقكم على غفار، وهذا رجل من رجالها، إن يحرض قومه عليكم؛ يقطعوا على قوافلكم الطريق، فثابوا إلى رشدهم وتركوه.

لكنَّ أبا ذر قد ذاق حلاوة الأذى في سبيل الله، وقد لامس الإيمان شغاف قلبه، لا يريد أن يغادر مكة حتى يظفر من طيباته بمزيد! وهكذا لا يكاد في اليوم التالي، يلقى امرأتين تطوفان بالصنمين وتدعوانهما، حتى يقف عليهما ويسفه الصنمين تسفيهًا مهينًا، فتصرخ المرأتان، ويهرول الرجال كالجراد، ثم لا يفتئون يضربونه، حتى يفقد وعيه، وحين يفيق يصرخ مرة أخرى بأنه: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنَّ محمدًا رسول الله، وجاء العباس مرة أخرى، وقال لهم كما قال في المرة السابقة.

عبرة

يا شباب، في هذا الخبر بيان للرعب الشديد الذي أثاره زعماء الكفار في مكة، حتى أصبح القادم لا يستطيع أن يسأل عن رسول الله ﷺ إلا بحذرٍ شديد كما فعل أبو ذر الغفاري رضي الله عنه، وأصبح المسلمون لا يستطيعون أن يصحبوا القادمينً ظاهرًا، بل لا بُدَّ من الاحتيال لإخفاء هذا الاصطحاب كما فعل علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وكان أبو ذر مضطرًا إلى الاستخفاء حتى يحصل على بغيته من الوصول إلى رسول الله ﷺ خشيةَ أن يُمنع من ذلك، فلما وصل إليها وآمن به كان قويًا في إعلانه إسلامه، لأنه لا يخشى على نفسه، وإنما كان يخشى أن يمنع من سماع دعوة الحق.

يا أيها الإخوة الكرام، في هذا الموقف نفحة من نفحات قوة الإيمان أبت إلا أن تبدو في صورة ظاهرة من الاعتزاز بالإسلام، والتحدي القوي لأعدائه، إن إعلان الإسلام بهذه الصورة من رجلٍ ليس له عشيرة ولا حلفاء في مكة أمام أعداءٍ يهيمنون على الوضع القائم آنذاك ويعذبون المسلمين؛ إن هذا الإعلان سلوك جريء يشف عن محركٍ قوي من الإيمان، وإن إعادة هذا التحدي في اليوم الثاني لأكثر إعجابًا وإثارة، لأن ترتب الأذى على التحدي الأول أمر محتمل، وإن كان هو المرجح، أما ترتبه على التحدي الثاني فإنه مؤكد، ويترجح تضاعفه، وهذا أمر يدل على أن أبا ذر قد قصد إذلال الكفار الذين يعتزون بقوتهم وجمعهم، ويستأسدون على الضعفاء.

وإنه إذا كان المسلمون في فترات ضعفهم وقلتهم بحاجة إلى المداراة والاستخفاء، فإن بروز أفراد منهم يعلنون دعوة الحق له أثره البالغ في توهين قوى الأعداء، وتقوية إيمان المسلمين وربط قلوبهم.

لقد بلغن قاموس البحر

بعد أن بُعث النبي ﷺ، وأخذ يدعو إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، وأخذت دعوة الإسلام تنتشر في مكة، وتعمل عملها في أصحاب الأفئدة والضمائر الحية، هنا بدأت قريش تقف في وجه الدعوة وقوف المعارض، وتدافع عن وثنيتها دفاع المستميت، وقرر المشركون محاربة الإسلام، وإيذاء الداخلين فيه، والتعرض لهم بألوان العذاب والنكال، بيدَ أن هذه الحرب المستعرة جعلت بعض الشباب من ذوي العقول الواعية ينظرون إلى الإسلام نظرةً صافية، خالية من شوائب الجاهلية ورواسبها، فكان بعضهم يُقبل على الإسلام في صفاءٍ تام، ويعلن إسلامه وانضمامه إلى الدين الحنيف.

ونحن هنا نقترب شيئًا فشيئًا من واحدٍ من عمالقة الصحابة الذين حملوا أمانة الدين فوق أعناقهم، فتعالوا بنا لنعيش بين هذه السطور كيف كان إسلام هذا الصحابي الجليل ضماد الأزدي رضي الله عنه، رغم الحصار الوثني على الرسول ﷺ.

لقد كان رسول الله ﷺ عظيم النجاح في دعوته، بليغًا في التأثير على من خاطبه، حيث يؤثر على من جالسه بهيئته وسمته ووقاره قبل أن يتكلم، ثم إذا تحدث أسر سامعيه بمنطقه البليغ المتمثل من العقل السليم، والعاطفة الجياشة بالحب والصفاء والنية الخالصة في هداية البشر بوحي الله تعالى، وإن من أبرز الأمثلة على قوته في التأثير بالكلمة المعبرة والأخلاق الكريمة، ما كان من موقفه مع ضماد الأزدي رضي الله عنه ، الذي وفد إلى مكة وتأثر بدعاوي المشركين عن رسول الله ﷺ حتى وقر في نفسه أن رسول الله مصاب بالجنون كما يقول قومه.

كان ضماد رجل يعالج من الجنون، فسمع سفهاء مكة يقولون عن محمدٍ مجنون.

فقال: لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي، ثم لقيَ رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد إني أرقي من هذه الريح -يقصد من الجنون- وإن الله يشفي على يدي من شاء، فهل لك في ذلك لعل الله يشفيك على يدي. فقال رسول الله ﷺ: إن الحمد لله، نحمده ونستعين به، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، فقال: أعد عليّ كلماتك هذه يا محمد، فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات، ثم قال: والله يا محمد لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء قط، ولقد بلغن قاموس البحر يقصد وسط البحر وقعره ولجته، فقال: يا رسول الله هات يدك أبايعك على الإسلام، فمد رسول الله ﷺ يده، فبايعه، وقد ذهب إلى قومه يدعوهم حتى لم تبق دار إلا ودخلت الإسلام على يديه.

عبرة

يا شباب، في هذا الخبر بيان أن المشركين كانوا يتهمون رسول الله ﷺ بالجنون، فهل كان وصفه بذلك مجرد تهمة ألصقها به أعداؤه من غير أن يسوغوها بأسبابٍ يتوقعون أنها مقنعة؟ وقد تكون هذه التهمة غير مسوغة بذلك، وإنما مجرد رأي خطر لبعض زعمائهم لينفروا الناس من سماع دعوة رسول الله ﷺ فتبعهم على ذلك عامتهم، وقد تكون مسوغة بمخالفة ما عليه جمهور الناس، والقيام

بتحدي من يملكون القوة والهيمنة، والتضحية من أجل المبدأ بالمال والنفس، فيرى بعض الناس أن العقل يقتضي مسايرة الناس وطلب السلامة في النفس والمال، وإن إهدار ذلك وتعريض النفس للهلاك، والمال للضياع من أجل المحافظة على مبدأ يخالف ما عليه الناس نوع من الجنون.

وفي هذا الموقف أيضًا بيان اتصاف رسول الله ﷺ بصفتي الصبر والحلم، وهما من أهم الصفات اللازمة للنجاح في الدعوة، فهذا ضماد الأزدي قد قدم مكة وهو يعتقد أن رسول الله ﷺ مجنون، وذلك لكثرة ما يبث قومه عنه من دعاوي كاذبة في القبائل، وحيث إن ضمادًا يعالج من ابتُلِيَ بالجنون فإنه قد عرض على النبي ﷺ أن يعالجه من ذلك.

وهذا موقف يثير غضب من اتهم بذلك عادة، ويتبع ذلك توبيخ المتكلم به إن لم يحصل ما هو أشد من ذلك، ولكن رسول الله ﷺ الذي جبله الله تعالى على مكارم الأخلاق، قد استقبل الأمر بحلم وهدوء؛ مما أثار إعجاب ذلك الرجل وجعله مُهيأً لقبول ما سيدعوه إليه، ولذلك ما إن بدأ النبي ﷺ كلامه بالمقدمة التي يستفتح بها بعض خطبه؛ حتى أعلن ذلك الرجل أن الكلام الذي سمعه لا يشبهه ولا يدانيه كلام الشعراء، ولا كلام الكهان والسحرة، فأسلم في تلك الساعة.

وهذا شاهد على فصاحة النبي ﷺ وقوة بيانه، وانبعاث كلامه من قلبٍ مليء إيمانًا ويقينًا وحكمة، حيث فاض ذلك على غرر بيانه فأصبح آسرًا لسامعيه، وجاذبًا لأصحاب القلوب المتجردة إلى اتباعه، وإن كان كثير من الناس اليوم لا يتأثرون بهذا الكلام وأمثاله، فهذا ليس العيب في الكلام، وإنما هو لتدني مستوى المتلقي في الذوق والوجدان وفهم اللغة العربية، أو لعدم صدور ذلك الكلام من قلبٍ متأثر به.

وفي سرعة إسلام ذلك الرجل دلالة على أن الإسلام هو دين الفطرة، وأن النفوس إذا تجردت من الضغوط الداخلية التي يحمل عليها اتباع الهوى، والضغوط الخارجية التي من أبرزها هيمنة الطغاة من الأكابر الذي يرسخون في النفوس رهبتهم، وتقديس مبادئهم الضالة في قلوب الناس من غير أن يكون لهم اختيار وتفكير، فإذا خلت النفوس من ذلك فإنها غالبًا تتأثر وتستجيب، إما بسماع قولٍ مؤثر، أو الإعجاب بسلوكٍ قويم.

الفدائي الشهيد

إذا تغلغل الإيمان في أعماق قلب المؤمن وملأ عليه كيانه كله، كان أقوى في ثباته وشموخه من الجبل الأشم، لا يزعزعه عن معتقده إرهاب عتلٍ جبار، ولا إغراء خبيثٍ محتالٍ، لأن الإيمان طمأنينة لا يجامعها خوف من أحدٍ إلا الله، وسكينة يزداد بها المؤمن إيمانًا كلما تَفكَّر وتدبَّر آيات الله الكونية والقرآنية، ومن المعلوم لدينا أن أصحاب النبي ﷺ كانوا أكمل الناس إيمانًا وأصدقهم يقينًا، ولاسيما الذين أوتوا حظًا وافرًا من العلم والبطولة، وكثرة ملازمتهم للنبي ﷺ، فإن هؤلاء هم الربانيون الذين أعز الله بهم الإسلام، وقوى بهم أركانه.

ضيفنا في هذه السطور، شريف من أشراف العرب المرموقين، وواحدٌ من أصحاب المروءات المعدودين، لا تنزل له قدر عن نار، ولا يغلق له باب أمام طارق، يُطعم الجائع، ويؤمن الخائف، ويجير المستجير، وهو بالإضافة إلى ذلك أديب لبيب شاعر مرهف الحس، رقيق الشعور، بصير بحلو البيان، كان فوق ذلك مؤمنًا عظيمَ الإيمان، بطلًا في ساحات الوغى لا يشق له في البطولة غبار.

نحن على موعدٍ مع أحد نبلاء العرب وأذكيائهم الذين عرفوا الإسلام في المرحلة المكية، وأسلموا قيادهم لله الواحد القهار، ونطقوا بالشهادة أمام النبي ﷺ، فبشرهم بجناتٍ تجري من تحتها الأنهار، نحن نلتقي مع الرجل الهُمام، والشهيد سيد عائلة الشهداء؛ الطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنه.

قصة إسلام الطفيل رضي الله عنه من أحسن القصص وأبهاها، ومن ألطفها أثرًا في النفوس وأمضاها، فالقلوب الصافية تحب الحق، وأهل الحق في كل زمانٍ ومكان، وخاصة في عصر النبوة المزهر الزاهر، أسلم الطفيل في مكة في وقتٍ مبكر، والإسلام لا يزال برعمًا لم يتفتَّح بعد، ليصبح وردًا يعطر الدنيا كلها بأريج الإيمان، بل كانت العواصف الوثنية الهوجاء تعيب الدين، وتعيب محمد ﷺ، وتسفه كل ما يأتي به وتحذر كل قادم من سحر كلامه ونصاعة بيانه.

لقد كان حصار قريش لدعوة الإسلام شديدًا محكمًا، حيث لم يكتفوا بتنفير أهل مكة من رسول الله ﷺ وتشويه سمعته عندهم؛ بل صاروا يتلقون الوافدين إليهم ليسمموا أفكارهم عن الإسلام ونبي الإسلام، ليحولوا بينهم وبين سماع كلام رسول الله والتأثر بدعوته، وإن من أبرز الأمثلة على ذلك ما جرى منهم مع الطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنه، ولقد غاب عن ذهن قريش أن الله غالب على أمره، وناصر دينه ونبيه، وقاهر الشرك وأهله، وجاعل كلمته هي العليا، فهو يمحو الباطل، ويحق الحق بكلماته، ويجعل لكل شيء سببًا.

لا ريب في أن للناس عقولًا تزن ما تسمع وما ترى، وكان كثير من العقلاء لا يلتفتون إلى صيحات الحاقدين السفهاء من قريش، ولا يجنحون إلى الإشاعات التي يعيبون بها محمدًا ﷺ، ويشوهون بها دعوته الصافية النقية، وما جاء به من هُدى وهداية، وصلاح وإصلاح، وهذا ما جعل الدعوة المحمدية إلى الله سبحانه وتعالى تسري إلى خارج مكة، وتجد لها أنصارًا من ذوي العقول والأحلام والإفهام، وكان من هؤلاء النبهاء الطُفيل بن عمرو الذي كان إسلامه إسلام النبلاء، وأعرض عن المشركين حينما تحقق له الحق فيما يدعو إليه سيد الأنبياء ﷺ.

كان الطفيل رجلًا شريفًا شاعرًا وسيد قومه، فلما قدم مكة، مشى إليه رجال من قريش فقالوا له: يا طفيل إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا، وقد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وإنما أمره كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجل وبين زوجته، وإنَّا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمنه ولا تسمعن منه شيئًا.

ومكروا ومكر الله، والله خير الماكرين، وذهب سعيهم هباءً منثورًا تذروه رياح العقل عند الطفيل رضي الله عنه.

قال الطفيل: فو الله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئًا ولا أكلمه، حتى حشوت في أذني كرْسُفًا – يعني قطنًا – حين غدوتُ المسجد فرقًا – خوفًا من أن يبلغني شيء من كلامه، وأنا لا أريد أن أسمعه، فغدوت إلى المسجد، فإذا برسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، فقمت منه قريبًا، فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله، فسمعت كلامًا حسنًا، فقلت في نفسي: واثكل أمي! والله إني لرجلٍ لبيبٍ شاعر، وما يخفى عليَّ الحَسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع كلام الرجل، فإذا كان حسنًا قبلته، وإن كان قبيحًا تركته.

قال الطفيل: فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته، فاتبعته حتى إذا دخل بيته دخلت عليه، فقلت: يا محمد، إن قومك قد قالوا فيك كذا وكذا، فو الله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سددت أذنيَّ لئلا أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يسمعني قولك، فسمعته قولًا حسنًا، فاعرض عليَّ أمرك، فعرض عليَّ رسول الله ﷺ الإسلام، وتلا عليَّ القرآن، فلا والله ما سمعت قولًا قط أحسن منه، ولا أمرًا أعدل منه، فأسلمت وشهدت شهادة الحق، وقلت: يا نبي الله، إني امرؤ مطاع في قومي، وأنا راجع إليهم، وداعيهم إلى الإسلام.

ولما عاد الطفيل إلى قومه ظل يدعوهم سنوات حتى أسلم قومه كلهم، وقد قدم على النبي ﷺ بقومه في غزوة خيبر.

وهكذا استجاب الطفيل رضي الله عنه إلى نداء عقله المتزن، وإلى أعماقه التي تناديه إلى النجاة، ورفض النصح المزعوم من رجال قريش الذين حذروه تحذيرًا شديدًا من السماع والاستماع إلى رسول الله ﷺ، ولا غرو فنداء الضمير كان ذاك النداء الذي كان يهمس به قائلًا: أين عقلك يا طفيل؟ اذهب واستمع إلى هذا الرجل، فهو ليس ساحرًا كما يزعمون ويفترون، استجاب الطفيل واهتدى، وفي بيت رسول الله ﷺ أعلن إسلامه راضيًا مختارًا، وزهد في الوثنية، وفي دين الآباء والأجداد، وعَبَدَ الواحد الجواد الذي يقبل التوبة من العباد.

عبرة

يا شباب، لقد رأينا في هذا الموقف مثالًا واضحًا للحجر الفكري الذي كان الكفار يمارسونه مع الدعوة الإسلامية في بداية عهدها، وقد استخدموا للتأثير على الناس ليصدوهم عنها بمختلف الوسائل، فنجدهم كما في هذا المثال يتلقون الوافدين إلى مكة، ويقومون بمحاولة تسميم أفكارهم، وملئها بالباطل، ليحول ذلك دون وصولها إلى الحق، ونجدهم يخاطبون الناس بالأساليب المؤثرة عليهم كما في إحدى روايات هذا الخبر للطفيل بن عمرو: إنك امرؤ شاعر سيد، فقد وصفوه بصفتين يعتز بهما العرب كثيرًا، وكأن لسان حالهم يقول: لقد تبوأت في عقولنا مكانة كبيرة لهذه المؤهلات، فلا تنزل

نفسك من هذه المكانة الرفيعة بسماع ما يقوله من ليس في مستوى عقلك وتفكيرك، وحيث إن الطفيل عالم بالشعر والكهانة، فقد اختاروا وصفًا آخر ينطلي عليه وعلى أمثاله وهو السحر، وسوَّغوا ذلك بكون رسول الله ﷺ يفرق بين الأحبة على حد زعمهم.

ولقد تأثر الطفيل رضي الله عنه بكلام زعماء قريش لما سبق لهم من مكانةٍ وسمعة عالية بين العرب باعتبار أنهم جيران الحرم، وحراس المشاعر المقدسة، حتى بلغ به الخوف من النبي ﷺ إلى حد أنه سد أذنيه بالقطن حتى لا يسمع نداء الحق، وإذا كان الطفيل قد سد أذنيه حقيقةً فما أكثر من فتحوا آذانهم، ولكنهم سدوا منافذ فكرهم، وعطَّلوا عقولهم، فأصبحوا يسمعون صوت الحق ليل نهار فما يوقظ فيهم ضمائر، ولا يُحْيي فيهم مواتًا.

ولكن هل استطاع الكفار أن يحولوا بين الناس وسماع دعوة الحق؟ إنهم لم يستطيعوا ذلك لأن صوت رسول الله ﷺ كان أقوى من أصواتهم، ووسائله في التبليغ كانت أبلغ من وسائلهم، وثباته على مبدئه السامي كان أعلى بكثير مما كان يتوقعه أعداؤه.

فالرسول ﷺ لم يقبع في بيته، ولم ينزو في زاويةٍ من زوايا المسجد ليستخفي بدعوته، وليقي نفسه من سهام أعدائه المسمومة، بل إنه غامر بنفسه، فكان يخرج إلى مضارب العرب قبل أن يفدوا إلى مكة، وكان يجهر بتلاوة القرآن في المسجد ليسمع من كان في قلبهِ بقيةٌ من حياة، وإثارة من حرية وإباء، فيتسرَّب الهدى إلى مجامع لبه، وسويداء قلبه، وكان من هؤلاء صاحب هذا الموقف الطفيل بن عمرو، الذي أدرك سماعه أن ما تلاه النبي ﷺ هو الحق، فأعلن إسلامه، وقد هيَّأ له ذلك كونه متجردًا من اتباع الهوى، ومتحررًا من ضغط السادة والزعماء.

العجوز الأعرج.. ودين الحق

عندما يكمل إيمان المرء بربه ويخلص له دينه، يجد نفسه عبدًا ربانيًا مدفوعًا بكل قواه لنصرة دينه بكل ما ملكت يداه، ولا يبالي على أي جنبٍ يُقتل إذا كان في الله مصرعه وإليه مرجعه، والجنة مستقره ومنزله، ولقد كان أصحاب النبي ﷺ يبيعون أنفسهم لله، ابتغاءَ مرضاته وتثبيتًا من أنفسهم، فهم نجوم الهدى، وقدوة الأمة بعد رسول الله ﷺ، والجهاد فريضة محكمة، أداها أصحاب النبي ﷺ وهم في ظروفٍ قاسية مع قلةٍ في العتاد والعدد.

ما كان أحدٌ يتقاعد عنه إلا لضرورةٍ ملجئة، وما كان لرجلٍ منهم أن يتخلَّف عن رسول الله ﷺ في غزوةٍ يغزوها إلا إذا حبسه المرض، أو أسند النبي ﷺ إليه عملًا يقوم به في المدينة، أو في أيةِ جهةٍ من الجهات، وكان من هؤلاء الأخيار من رفع الله عنه الحرج في ترك الجهاد بسبب عجزه، فأبى إلَّا أن يكون في معمعة القتال، مهما كان حاله من عجزٍ أو ضعف.

ضيفنا في هذه السطور واحدٌ من الصحابة الذين باعوا أنفسهم لله منذ أن عرف طريق الهداية، وقد بدأ إيمانهُ يثمر منذ الدقائق الأولى لدخوله دوحة الإيمان، فهو من المؤمنين الذين أسلموا وجوههم لله تعالى، وأخلصوا له النية في القول والعمل، ومن الذين جاهدوا في الله حق جهاد، وقد حرص على الموت والشهادة، فوهب الله له الحياة بعد موته مع الشهداء الأبرار.

نحن على موعدٍ مع معجزة من معجزات الإيمان التي تصور لنا مشهدًا عظيمًا لسيدٍ من سادات بني سلمة كان قد اتخذ صنمًا يُدعى مناة ليتبرك ويذبح له، ويدعوه ليلًا ونهارًا، لقد كان يحب هذا الصنم حُبًا ملك عليه لُبَّه وفؤاده، مما جعله يعتني به أشد العناية، فيأتي إليه بأطيب أنواع العطور، ويضمخه بها، ولا يقدم على أي أمرٍ إلا بعد أن يأذن له ذلك الصنم فيما يزعم.

وما إن لامس الإيمان قلبه، حتى رأى الحقيقة التي جعلته يخجل مما كان يفعله أيام الجاهلية، وأقبل بقلبه وجوارحه على خدمة هذا الدين، والذود عن حياضه، مستعذبًا العذاب في سبيل الله، فلقد جعل نفسه وماله وولده في خدمة هذا الدين العظيم، نحن نلتقي مع العظيم الشهيد سيد بني سلمة؛ عمرو بن الجموح رضي الله عنه، فتعالوا بنا لنتعرف كيف حوَّل الإسلام هذا الصحابي الجليل من مجرد عجوزٍ يعبد الأصنام إلى معجزةٍ من معجزات الإيمان والتقوى.

عندما كان مصعب بن عمير رضي الله عنه يدعو للإسلام في المدينة كان هناك شاب من بني سلمة قد استجاب لله عز وجل وأسلم، وامتلأت نفسه الكبيرة بالحماس للإيمان الذي صقل قلبه، وأبعده عن دنس الأوثان وشرك الأصنام التي شغلت قلوبهم ومنازلهم، هذا الشاب المؤمن يدعى معاذ بن عمرو بن الجموح رضي الله عنهما، وبإسلامه بدأ رجال بني سلمة ونساؤهم يقبلون على الإسلام إقبالًا رائعًا.

كان عمرو بن الجموح قد جاوز الستين من عمره حين بدأت أشعة الإيمان تغمر بيوت يثرب بيتًا فبيتًا على يد الداعية مصعب بن عمير، فآمن أولاد عمرو الثلاثة معوذ، ومعاذ، وخلاد، وآمنت مع أبنائه الثلاثة أمهم هند، وكان عمرو لا يعرف عن إيمان أهل بيته شيئًا، وكان يخشى على أولاده أن يرتدوا عن دين آبائهم وأجدادهم، وأن يتبعوا هذا الداعية الذي استطاع في زمنٍ قليل أن يُحول كثيرًا من

الناس عن دينهم، وأن يُدخلهم في دين محمد ﷺ، كان عمرو بن الجموح بن حرام يقف حجر عثرة أمام انتشار الإسلام في بني سلمة رغم أن المبايعين من قومه كانوا تسعة وعشرين رجلًا يقتربون من نصف المبايعين في العقبة.

فقال لزوجته: يا أم خلاد احذري أن يلتقي أولادك بهذا الرجل المكي حتى نرى رأينا فيه، فقالت: سمعًا وطاعة كما تريد، وصمتت هنيهات، ثم أردفت قائلة، وهي ترجو إسلامه، ولكن هل لك أن تسمع من ابنك معاذ ما روى عن هذا الرجل؟ فقال: ويحك وهل صبأ معاذ عن دينه، وأنا لا أعلم؟ قالت: لا، ولكن كان مع القوم.

فأرسل إلى ابنه فقال: أخبرني ما سمعت من كلام هذا الرجل المكي؟ فأخذ ابنه يقرأ بصوتٍ ندي رخيم صدر سورة يوسف، فقال لابنه وقد بدأت خيوط الإيمان تنسج في قلبه: ما أحسن هذا الكلام، وما أجمله! أوكل كلامه مثل هذا؟ فقال: نعم يا أبتاه، ثم ظل يدعو أباه للإسلام وقال: هل لك أن تبايع يا أبتاه؟ فقد دخل الكثير من بني سلمة الإسلام، سكت عمرو قليلًا ثم قال: لست فاعلًا حتى أستشير مناة فأنظر ما يقول، قال معاذ: وما عسى أن يقول مناة يا أبتاه، وهو خشب أصم لا يعقل ولا ينطق؟! قال عمرو في حدةٍ: قلت لك لن أقطع أمرًا دونه.

ثم قام عمرو إلى مناة وقال: يا مناة لا ريب أنك قد علمت بأن هذا الداعية الذي وفد من مكة لا يريد أحد بسوء سواك، وأنه جاء لينهانا عن عبادتك، وقد كرهت أن أبايعه – على الرغم مما سمعته من جميل قوله – حتى أستشيرك فأشر علي، فلم يرد عليه مناة بشيء، فقال: لعلك قد غضبت علي وأنا لم أصنع شيئًا يؤذيك بعد، ولكن لا بأس، فسأتركك أيامًا حتى يزول عنك الغضب.

كان أبناء عمرو بن الجموح يعرفون مدى تعلق أبيهم بصنمه مناة، وقد أدرك أبناء عمرو الآن أنه بدأت تتزعزع مكانته من قلبه، وكان عليهم أن ينتزعوه من نفسه انتزاعًا، سار أبناء عمرو بن الجموح ليلًا مع صديقهم معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى مناة، وحملوه من مكانه، وذهبوا به إلى حفرة لبني سلمة يرمون فيها أقذارهم، وطرحوه هناك، وعادوا إلى بيوتهم دون أن يعلم أحد.

فلما أصبح عمرو مشيَ إلى صنمه لتحيته، فلم يجده فقال: ويلكم! من عدا على إلهنا هذه الليلة؟ فلم يجبه أحد بشيء، فظل يبحث عنه في داخل البيت وخارجه، وهو يرغي ويزبد ويتهدد ويتوعد حتى وجده منكسًا على رأسه في الحفرة، فغسله وطهره وطيبه، وأعاده إلى مكانه وقال له: أما والله لو أعلم من فعل بك هذا لأخزيته.

فلما كانت الليلة الثانية عدا الفتية على مناة ففعلوا فيه مثل فعلهم بالأمس، فلما أصبح عمرو التمسه فوجده في الحفرة ملطخًا بالأقذار، فأخذه وغسله وطيَّبه، وأعاده إلى مكانه، وما زال الفتية يفعلون بالصنم ذلك كل يوم، فلما ضاق بهم ذرعًا راح إليه وقد جاء بسيفه فعلقه برأسه وقال له: يا مناة إني والله ما أعلم من يصنع بك هذا الذي ترى، فإن كان فيك خير فادفع الشر عن نفسك، وهذا السيف معك، ثم أوى إلى فراشه، ولما نام عمرو عدوا على الصنم فأخذوا السيف من عنقه وذهبوا به خارج المنزل، ثم أخذوا كلبًا ميتًا فقرنوه به بحبلٍ، ثم ألقوه في بئرٍ من آبار بني سلمة فيها عذر من عذر الناس.

فلما استيقظ عمرو ولم يجد الصنم خرج يلتمسه، فوجده مكبًا على وجهه في البئر، مقرونًا إلى كلب ميت، وقد سُلب منه السيف، فلم يخرجه هذه المرة من الحفرة، وإنما تركه حيث ألقوه، فأسلم وحسن إسلامه رضي الله عنه وأنشأ يقول: والله لو كنت إلها لم تكن أنت وكلب وسط بئر في قرن..

أف لمقاك إلها مستدن الآن فتشناك عن سوء الغبن الحمد لله العلي ذي المنن الواهب الرزاق ديان الدين هو الذي أنقذني من قبل أن أكون في ظلمة قبر مرتهنا نضم عمرو رضي الله إلى ركب الإيمان، وموكب النور، ولقد تذوق من حلاوة الإيمان ما جعله يعض بنان الندم على كل لحظةٍ قضاها في الشرك، فأقبل على الدين الجديد بجسده وروحه، ووضع نفسه وماله في طاعة الله ورسوله.

عبرة

يا أيها الإخوة الكرام، كان صنم عمرو بن الجموح يُدعى مناة، وقد اتخذه من نفيس الخشب، وأرقى أنواعه، ولا تعجبوا، فما يدع الناس شيئًا خرافيًا إلا ويقعون في خرافة أشد، ولو تأملت حياتنا المعاصرة لرأيت فيها من الخرافات والأوهام والأضاليل ما لا يقل عن هذه الأوهام، ولكن بشكلٍ آخر، وطريقة أخرى، ولقد جاء الإسلام فحرَّر العقول، وأعاد للإنسان إنسانيته، وعرفه قدرهُ.

يا شباب، إن علامة إيمانك الصادق أن تكره أن تعود إلى ما كنت عليه كما يكره الرجل أن يُلقى في النار، علامة إيمانك الصادق أن تمقت جاهليتك مقتًا لا حدود له، أما هذا الذي يحنُّ إلى جاهليته، يحنُّ إلى أيامه قبل الهدى، يحنُّ إلى ماضيه؛ هذا دليل أنه لم يؤمن بعد.

إسلام الراكب المهاجر

كان الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول دائمًا: لا يعرف الإسلام من لم يعرف الجاهلية، هذه تجربة عمرية ميمونة صدرت عن بصر وبصيرة نفَّاذة، وخبرة واعية أخاذة، فكثيرٌ من أصحاب النبي ﷺ رجالًا ونساء تبينوا حقيقة الدين الَحنيف ورشده؛ بعد أن رقدوا زمنًا طويلًا في منعرجات الجاهلية العمياء لا يهتدوا إلى النور العاصم، ولما فاءَوا إلى دين الله عز وجل واستبانُوا نصحه أبدعوا، وخلفوا آثارًا قيِّمة لا نزال ننعم في ظلال بساتينها؛ نداعب رياحينها وأزهارها، ونجني من ثمارها اليانعة ما تتغذى به النفوس والأرواح.

ضيفنا في هذه السطور عملاق، كان واحدًا من الذين وقفوا في وجه الإسلام بعنفٍ قرابة عشرين عامًا، لم يتوقف خلالها عن تقديم الأذى لرسول لله ﷺ وللمسلمين، فقد كان من أشد أعداء رسول الله ﷺ ضراوة في تاريخ السيرة كلها، قد شرب العداوة جُلَّ هذه المدة من أبيه فرعون هذه الأمة وألد أعداء الدعوة الإسلامية أبي جهل، ولكنه استمر وزاد في العداوة للدرجة التي جعلت الرسول الكريم ﷺ يهدر دمه عند فتح مكة باعتباره من مجرمي الحرب آنذاك، إن طريقه كان في الكفر طويل، وهو مطلوب الدم، وإذا وجده الرسول ﷺ سيقتله بلا جدل.

ولكن عندما قذف الله عز وجل في قلبه نور الإيمان، ندم على كل لحظةٍ قضاها بعيدًا عن نعمة الحق، والصراط السوي، وأخذ يسجل في صفحات حياته الجديدة أعمالًا تتسم بالصدق والإخلاص، وينفق أمواله في سبيل الله عز وجل ، وفي سبيل الشهادة، وعبَّر عن صدق نيته أصدق تعبير، فنال درجات الشهداء، ومنازل الخلود، فالإسلام يَجُب ما قبله، والمهم هو لحظة التغيير والدخول في الدين، والإذعان للخالق المولى، وقطع كل العلائق مع ماضي الجاهلية، وتبديل ذلك بأعمالٍ صالحة، وسلوكٍ حسن، نحن نلتقي مع الصحابي الجليل عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه .

وحكاية هذا العملاق مع الإسلام تبدأ من على متن سفينةٍ في منتصف بحر هائج قبالة سواحل اليمن، فلقد هرب عكرمة من مكة هائمًا على وجهه لا يعرف إلى أين يتجه بعد أًن دانت مكة بأسرها لعدوه وعدو أبيه من قبل محمد بن عبد الله ﷺ، فأصبح عكرمة طريدًا في صحاري العرب، بعد أن كان سيدَ بني مخزوم المطاع، وقد ضاقت به الأرض بما رحبت، فقرر أن يتجه إلى اليمن ويبحر بسفينة تأخذه إلى أي مكان يبعده عن أولئك المسلمين الذين لا يطيق حتى رؤيتهم، وبينما عكرمة على ظهر السفينة يتأمل البحر اللا متناهي الآفاق.

جاءت مرحلة الاختيار الرباني له لكي ينضم إلى قافلةِ الصحابة العظماء، وأبى الله إلا أن يعيد ذلك الهارب من الله إلى الله، فتعالوا بنا لنعيش كيف دخل هذا الصحابي الجليل الإسلام وهو عند سواحل اليمن بعيد عن صحراء مكة.

عندما فتح رسول الله ﷺ مكة وقف موقفًا فريدًا في التاريخ إذ حلت الرحمةُ حيثما حل، فشملت الصديق والعدو، فأخذ كلٌ بحظه منها كما تأخذ بقاع الأرض على اختلافها من بركات المطر فيثمر خصبها وتلين قسوتها، ونزل هذا العفو الكريم بردًا وسلامًا على تلك القلوب القاسية التي طالما

اضطربت بالعداوة لهذه النفس الخيرية، ولكنها استيقظت من سباتها وتنبهت على تلك اليد الحانية التي أخرجتها من غرقها في موج الضلالات.

وعندما لمست أم حكيم بنت الحارث بن هشام زوجة عكرمة رضي الله عنهما هذا العفو الشامل جاءت إلى رسول الله ﷺ، وأعلنت إسلامها، وبايعت مع نسوة، ومنذ أسلمت أم حكيم حظيت بالتكريم من رسول الله ﷺ، وكان لها كرامتها ومكانتها المتميزة بين النساء.

وقد أرادت أم حكيم أن تنقذ زوجها من الضلال، فذهبت إلى رسول الله ﷺ لتشفع عنده لعكرمة بن أبي جهل في أن يعود إلى مكة آمنًا، وقالت: يا رسول الله، قد هرب ابن عمك عكرمة منك إلى اليمن، وخاف أن تقتله فأمنهُ، فرد رسول الله في رحمةٍ عجيبة: هو آمنٌ يا أم حكيم.

لم يذكر لها ﷺ أنه مهدر الدم، ولم يُذكِّرها بتاريخه الطويل، ولم يقل لها: أنت حديثة الإسلام جدًّا، فكيف تشفعين لغيرك؟ لم يقل لها ﷺ أيًا من ذلك، ولم يشترط عليه أو عليها شروطًا، وإنما قال: هو آمنٌ.

خرجت أم حكيم الزوجة الوفية تبحث عن زوجها، ومعها غلام لها رومي، فلما أوغلا في الطريق راودها الغلام عن نفسها، فجعلت تُمنِّيه وتماطله حتى قدمت على حي من العرب فاستعانتهم عليه فأوثقوه وتركوه عندهم.

ومضت حتى وصلت في رحلةٍ طويلة حتى أدركت عكرمة رضي الله عنه عند ساحل البحر في منطقة تهامة، وهو يفاوض نوبيًا مسلمًا على نقله إلى اليمن، والنوبي يقول له: أخلص حتى أنقلك، فقال عكرمة: وكيف أخلص؟ فقال: تقول أشهد أن لا إله الله وأن محمدًا رسول الله، فقال عكرمة: ما هربت إلا من هذا، وفيما هما كذلك إذ أقبلت أم حكيم على عكرمة وقالت: يا بن العم جئتك من عند أوصل الناس، وأبر الناس، وخير الناس، من عند محمد بن عبد الله ﷺ، وقد استأمنت لك منه فأمنك فلا تهلك نفسك، فقال عكرمة: أنت كلمته؟ قالت: نعم أنا كلمته، فأمنك وما زالت به تؤمنه وتطمئنه حتى عاد معها.

وعكرمة بن أبي جهل في ذلك الوقت يرى الدنيا كلها قد ضيقت عليه، فأين يذهب؟ إنه يريد أن يذهب الآن إلى اليمن، واليمن بكاملها مسلمة، وبقاع الأرض تتناقص من حوله، والجميع الآن يدخلون في دين محمد ﷺ وحلفه، فأخذ عكرمة قرارًا سريعًا بالعودة معها دون تفكيرٍ طويل.

وفي الطريق حدثته حديث غلامها الرومي فمر به وقتله قبل أن يسلم، وفيما هما في منزلٍ نزلا به في الطريق أراد عكرمة أن يخلو بزوجه فأبت ذلك أشد الإباء، وقالت: إني مسلمة وأنت مشرك فتملَّكه العجب من ذلك، وقال: إن أمر يحول دونك ودون الخلوة بي لأمر كبير.

وعاد عكرمة إلى مكة، وقبل أن يدخلها إذا برسول الله ﷺ يقول لأصحابه كلمات جميلة: سيأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمنًا مهاجرًا فلا تسبوا أباه فإن سب الميت يؤذي الحي ولا يبلغ الميت.

هذا ما قاله نبي الرحمة في حق أشد إنسان حاربه، فأي أخلاقٍ كريمة كانت عند رسول الله ﷺ، لقد كان أبو جهل فرعون هذه الأمة، ومع ذلك فالرسول ﷺ يأمر الصحابة رضي الله عنهم بألا يلْعنُوا أبا جهل أمام ابنه عكرمة، لكي لا يؤذوا مشاعره، مع أن عكرمة لم يُسلم حتى هذه اللحظة.

وما هو إلا قليل حتى وصل عكرمة وزوجته حيث يجلس رسول الله صل الله عليه وسلم، فلما رآه النبي صل الله عليه وسلم من بعيد، ماذا فعل؟ هل تذكَّر أبا جهل؟ هل استعاد بذاكرته الغزوات والمعارك الطاحنة التي شارك فيها عكرمة صادًا عن سبيل الله؟ هل فكر في قتال عكرمة للمسلمين منذ أيام عند دخول مكة؟ هل نظر إلى حالة الضعف والهوان الشديد التي جاء بها عكرمة فأراد أن يُلقِّنهُ درسًا يعرف به قوة الدولة الإسلام؟ إنه ﷺ لم يفعل أيًّا من هذا الذي يتوقَّعه أي من البشر!

لقد وثب إليه من غير رداءٍ فرحًا به، وانبسطت أساريره وهو يرى عكرمة يعود إليه، مع أنه لم يسلم بعد، لكن هذه هي طبيعة النبي ﷺ دون تكلف، ولما جلس رسول الله ﷺ، وقف عكرمة، وقال: يا محمد إن أم حكيم أخبرتني أنك أمنتني، فقال رسول الله ﷺ: صدقت فأنت آمن، فقال عكرمة: إلام تدعو يا محمد؟ فقال له: أدعوك أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأنِّي رسول الله، وأن تقيم الصلاة، وأن توتي الزكاة، وتفعل، وتفعل، وأخذ يُعدد عليه أمور الإسلام، حتى عدد له كل الخصال الحميدة التي يدعو الإسلام لها، فقال عكرمة: والله ما دعوت إلا إلى الحق، وأمر حسن جميل!!

والقلوب بين أصابع الرحمن يُقلبها كيف يشاء، ففي هذه اللحظات فقط شعر عكرمة رضي الله عنه أن كل ما ذكره النبي ﷺ كان حقًّا، وأن كل ما تحدَّث عنه قبل ذلك أيام الفترة الأولى للدعوة في مكة، وبعد مكة كان صدقًا، وكان من كلام النبوة والوحي.

هنا قال عكرمة: قد كنت والله فينا تدعو إلى ما دعوت إليه، وأنت أصدقُنا حديثًا، وأبرُنا برًا، فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وطأطأ عكرمة رأسه من الحياء،

فقال رسول الله صل الله عليه وسلم: لا تسألني اليوم شيئًا أعطيه أحد إلا أعطيتك، فقال عكرمة: فإني أسألك أن تستغفر لي عن كل عداوة عاديتكها، فقال رسول الله: اللهم اغفر له كل عداوة عادانيها، أو مركب أو ضع فيه يريد أن يصد عن سبيلك، فقال عكرمة: أما والله يا رسول الله لا أدع نفقة كنت أنفقها في الصد عن سبيل الله إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله، ولا قاتلت قتالًا في الصد عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه في سبيل الله.

وفي لحظةٍ واحدة انتقل عكرمة رضي الله عنه من معسكر الكفر إلى معسكر الإيمان، إنها الرحمة الفطرية في قلب النبي ﷺ، التي تأسر قلوب الناس، ويهدي الله بها العباد.

عبرة

يا أيها الإخوة الكرام، هذه القصة لها دلالات عظيمة، ومن أبرز دلالاتها أن أشدّ الناس عداوة إذا اهتدى إلى الله عز وجل يكون من أشد الناس نصرة، والمؤمن لا ييأس من أعداء الله مهما تكون العداوة شديدة، ومهما يكون البُعدُ واسعًا، هذا العدو اللدود، وهذا الخصم العنيد، وهذا المقاتل في سبيل الطاغوت إنسان لو اهتدى إلى الله سبحانه وتعالى لصار أقرب الناس إليك، فلذلك هذه القصة تعطينا تفاؤلًا، ودلالة عظيمة أن المؤمن يطمع حتى في أعدائه، وسوف ترون كيف أن النبي ﷺ بحكمته البالغة، ورحمته الواسعة، وعطفه الشديد، وبُعد نظره، كيف أنه صنع من ألدِّ أعدائه نصيرًا وصحابيًا؟

وفي هذا الخبر أيضًا، موقف عظيم لرسول الله ﷺ في الدعوة والرغبة الشديدة في هداية الناس، فقد أعطى الأمان لعكرمة على الرغم من كونه ظل يقاتل المسلمين حتى آخر لحظة حينما دخل المسلمون

مكة، وقد أخبر الصحابة رضي الله عنهم وقال: سيأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمنًا مهاجرًا فلا تسبوا أباه فإن سب الميت يؤذي الحي ولا يبلغ الميت، وإن من أسوأ نتائج الأذى من ذلك أن يحصل من عكرمة تمنُّع من الإسلام بسبب ذلك، وهكذا تنبه النبي ﷺ إلى أمرٍ قد يقع، فعمل الاحتياط له حتى يزيل أيةَ عقبة تحول بين عكرمة والإسلام، أو تجعله ضعيف الشخصية في الإسلام لما يحصل له من التذكير بالماضي الذي لا يشرف المسلم، وإذا ضعفت شخصية المسلم تضاءلت طاقته وضعف عطاؤه.

يا شباب، إن قيام النبي ﷺ لاستقبال عكرمة حتى أعجل نفسه عن أخذ ردائه من شدة فرحه بمجيء عكرمة، وإن هذا السلوك من رسول الله ﷺ يعدُّ قمة في التواضع واللطف، إن قيامه لعكرمة مع كونه آنذاك كافرًا يشبه قيامه لأعز أحبابه من المسلمين، وما ذاك إلا ليمحو من نفس عكرمة أيَ شعورٍ يخالج فكره من الخوف والرهبة مما سيواجهه من السلوك الخشن، والمعاملة الجافة من المسلمين بسبب ترسب أحداث الماضي في أفكارهم.

يا شباب، إن هذا السلوك اللطيف الحاني من رسول الله ﷺ نحو عكرمة يكفي وحده لاجتذابه إلى الإسلام، رجلٌ تراكمت في سجل تاريخه وتاريخ أبيه أحداث مُرة مؤلمة نحو رسول الله ﷺ والمسلمين، ثم يقدم عليهم بثياب الوجل المتردد الذي ينتظر مواجهات ومعاملات مبنية على تراكمات الماضي، فإذا به يفاجأ برسول الله ﷺ يقوم إليه مستقبلًا قد أعجل نفسه عن لبس ردائه، يبتسم له ويرحب به ترحيب من غمر بفضائل من قام لاستقباله.

إنه موقف عظيم هائل، لو جسم ثم وُجِّه إلى الجبال الراسيات لفتَّتها، فكيف لا يؤثر في الإنسان الذي يملك الأحاسيس والمشاعر؟!

شيطان قريش يدخل الإسلام

قصة إسلام هذا الرجل من أعذب قصص رجال عظماء عصر النبوة، إذ نرى من خلالها رحمة الله عز وجل بالإنسان، ونقله من أفجر فجور الغدر إلى أبر أعمال الإيمان، وكلما قرأت قصة إسلام هذا الصحابي الجريء الذكي ازددت محبة له، لأنه عرف الحق فلزمه، بعد أن أدار مؤامرة كبرى لاغتيال النبي ﷺ، إن قصة إسلام عمير بن وهب الجمحي رضي الله عنه ذات وقع متميز يهز الكيان هزة إعجاب، وتحمل المسلم إلى تأمل عمق الحكمة فيها، وتسلمه إلى عينها الصافية الجارية، وتضعه أمام رحمة الإسلام بمن ضل بهم السبيل وضلوا هم السبيل، فإذا هم بلحظةٍ يتحسسون الحق ويلمسون سناه، ويصبحون رجالًا لهم شأن في التاريخ الناصع برحمة رسول الله ﷺ لهم.

حقًّا أيها القارئ الكريم إن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن جل وعلا يُقلِّبها كيف يشاء، فبينما كان عمير بن وهب الذي كان المسلمون يلقبونه بشيطان قريش يجول بفكره وبجسده وبكل ما يملك من أجل اغتيال النبي ﷺ وسط أصحابه رضي الله عنهم، وقلبه قد امتلأ حقدًا على الإسلام وأهله بعد هزيمة قريش في بدر الكبرى، فإذا بالحق سبحانه وتعالى يأخذ بناصيته إلى الإسلام ليكون واحدًا من جنود الحق، واحدًا من أصحاب النبي ﷺ.

في يوم بدر كان عمير واحدًا من قادة قريش الذين حملوا سيوفهم ليجهزوا على الإسلام، وقد ندبه قومه ليستطْلع لهم عدد الجيش الإسلامي، ولينظر إن كان لهم من ورائهم كمينٌ أو مدد، امتطى عمير صهوة جواده كالنمر الجائع، وجال به قرب معسكر المسلمين وحوله حتى عرف عدد جنود المسلمين، فقد كان رجل استخبارات ممتاز من رجال الدرجة الأولى في هذا الميدان الخطير وهو رجل شديد، جسُورٌ ذو دهاء، ورأي ومكيدة، رجع عمير مسرعًا إلى قومه وقال: يا معشر قريش هم ثلاثمائة يزيدون قليلًا أو ينقصونه، وكان حدسُه صحيحًا.

وسألوه: هل وراءهم أمدادٌ لهم؟ فأجابهم قائلًا: لم أجد وراءهم شيئًا، ولكن يا معشر قريش، رأيت البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلًا منكم فإذا أصابوا منكم أعدادهم فيما خير العيش بعد ذلك؟ فروا رأيكم.

وقد تأثر بقوله ورأيه نفرٌ من زعماء قريش، وكادوا يجمعون رحالهم ويعودون إلى مكة بغير قتال، لولا أبو جهل الذي أفسد عليهم رأيهم، وأضرم في النفوس نار الحقد، ونار الحرب، التي كان هو أول قتْلاها.

دارت رحى حرب تطحن حشود الكفر طحنًا أتت على صناديدهم قتلًا، وأشرافهم أسرًا، ولقد أبلى عمير يوم بدر بلاءً لم يُغْنه ولم يغن قومه شيئًا، ثم أسلم ساقيه للريح فارًا نحو مكة هربًا من المنايا التي تطل برؤوسها من سيوف المسلمين، لكنه خلف في المدينة بُضْعة منه، إذ وقع وهب ابنه في أيدي المسلمين أسيرًا، وصل عمير كاسف البال مهمومًا، قد لفه الحزن على ابنه الذي وقع أسيرًا بأيدي المسلمين وأبطالهم.

كان صفوان بن أمية جالسًا في الحجر يسمع ما يدور من أحاديثٍ وأعاجيب عن معركة بدر، فلا يكاد يصدق ويأخذ العجب مما يقولون، وإذا بعمير يأتي مجلسه فيقعد إليه، وهو غارق في همومه وحزنه على قتلى بدر، فسمعه عمير يقول قبح الله العيش بعد قتلى بدر، فقال له عمير: أجل والله لولا ديْنٌ عليَّ لا أجد قضاءه، وعيال لا أدع لهم شيئًا، وأخشى عليهم الضيعة بعدي، لخرجت إلى محمد فقتلته إن ملأت عيني منه، إن لي عنده علة أعتل بها، أقول: قدمت عليَّ ابني هذا الأسير عندكم.

التقط صفوان الكلمات العمرية الحماسية التي كانت تسيل مع لعابه تشوقًا للانتقام فاهتبلها فرصة سانحة لا تعوض، وفرح بهذا العرض السهل، فقال لابن عمه عمير يغريه ويحرضه: دينك أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا، لا يسعني شيء ويعجز عنهم، فقال له عمير: فاكتم عني شأني وشأنك، قال صفوان: أفعل ذلك فامض لشأنك.

سار عمير يقطع الفيافي والقفار حتى وصل المدينة ونزل بباب المسجد النبوي وربط بعيره، وتوشح سيفه، وهمَّ بالدخول على رسول الله ﷺ متظاهرًا بأنه جاء لدفع الفداء عن ابنه وهب وإطلاق سراحه.

كان عمر بن الخطاب في نفرٍ من الأنصار رضوان الله عليهم يتحدثون عن يوم بدر ويذكرون ما أكرمهم الله، وما أراهم من عدوِّهم إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب حين أناخ فرسه على باب المسجد متوشحًا السيف، فقال الفاروق: هذا عدو الله عمير بن وهب والله ما جاء إلا لشر، وهو الذي حرش بيننا أي حرَّض قريش على القتال، ثم دخل الفاروق على رسول الله ﷺ، فقال: يا نبي الله هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحًا سيفه، فقال النبي: أدخله علي.

فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه فلببه بها يعني طوق بها عنقه، قال عمر لرجالٍ ممن كانوا معه من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون، ثم دخل به على النبي ﷺ وهذه من فراسة الفاروق الألمعي، فهو يعرف الغدر في عين عمير.

فلما رآه رسول الله ﷺ وعمر آخذًا بحمالة سيفه، فقال النبي ﷺ: أرسله يا عمر، ثم قال رسول الله: ادن يا عمير، فلما دنا قال عمير: أنعموا صباحًا وكانت هذه تحية أهل الجاهلية بينهم، فقال رسول الله ﷺ: قد أكرمنا الله بتحيةٍ خير من تحيتك يا عمير، السلام تحية أهل الجنة، فقال عمير: أما والله يا محمد إن كنت بها حديث عهد، فقال رسول الله ﷺ: ما جاء بك يا عمير؟ قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه.

لقد توهم عمير أنه قد استطاع أن يملك الحيلة، ويمتلك الحجة، وأنه أقنع ووصل إلى ما أراد، وانطلت أكذوبته البلهاء على رسول الله ﷺ، وعلى الذين آمنوا معه وتحلقوا حوله، ولكن رسول الله ﷺ صدع فؤاده فقال: فما بال هذا السيف في عنقك؟

قال عمير وقد انخلع قلبه واستطار لُبه: قبَّحها الله من سيوف، وهل أغنت عنا شيئًا؟ إنما نسيته حين نزلت، تفرس الحبيب المصطفى ﷺ في وجه عمير فألفى شيطان عمير يتلاشى فقال: أصدقني ما الذي جئت له يا عمير؟ قال عمير مرددًا أكذوبة أسر ابنه: قدمت في أسيري، ما جئت إلا لذلك، فقال رسول الله ﷺ: لا، بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم

قلت لولا دين عليَّ وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمدًا، فتحمل لك صفوان بن أمية بدينك وعيالك على أن تقتلني له والله حائل بينك وبين ذلك.

لم يمتلك عمير أمام كشف هذه الحقائق وجلوتها على صورتها الحقيقية إلا أن يستسلم للحق؛ فانقلب من شيطانٍ مريد إلى مؤمنٍ رشيد، وانسكبت قطرات غيث الإيمان على قلبه، وقال بلسان اليقين: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما تأتيننا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فو الله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، ثم شهد شهادة الحق.

عبرة

يا شباب، ربنا جل جلاله خبير بخلقه، وأخص الإنسان بحديثي من بين الخلق جميعًا، في بعض الأحيان ربنا سبحانه وتعالى يريه الكثير من آياته الدالة على وجوده، وعلى علمه، وعلى وحدانيته، وعلى كماله، وبعض الأشخاص تتدخل العناية الإلهية لحكمة مطلقة متعلقة بعلم الله بهؤلاء الأشخاص تدخلًا مباشرًا، فهذا الشخص عمير بن وهب أراه الله من آياته، ولأن الله سبحانه تعالى عليم به، فتتضح له الحقائق، وينطلق في طريق الإيمان، فهؤلاء سحرة فرعون حينما رأوا عصا نبي الله موسى ﷺ انقلبت ثعبانًا مبينًا، وتلقَّفت كل ما صنعوا من السحر خروا لله ساجدين، لذلك قال بعضهم: إما أن تطيعه فيكرمك، فهذا طريق، وأحيانًا يكشف لك عن جوانب عظمته أو عن آياته، وهو يعلم أنك تستجيب فيكون الكشف سابقًا للطاعة، وإما أن يكون الكشف بعيدًا عن الطاعة.

في هذا الموقف أيضًا معجزة من معجزات النبي ﷺ الكثيرة التي تدل دلالة قاطعة على أنه يتلقى الوحي من الله تعالي، إن الأمر كان سرًا بين صفوان وعمير، وكانا حريصين كل الحرص على كتمانه لأن إفشاءه يعني فشل خطتهما التي اتفقا عليها، ولما كان يوقن به عمير تلك الساعة من إن الأمر لا يزال سرًا وأن صفوان لا يمكن أن يبوح به لأحد، لأنه أحرص منه على نجاح الخطة، فقد سرى في نفسه كلام النبي ﷺ سريان الماء في الأعواد اليابسة، فعاد حيًا بعد الموت كما يعود النبات أخضر يهتز بالحياة.

وهكذا شرح الله قلب عمير للإسلام ونطق بالشهادتين، وتحوَّل في ثوانٍ معدودات إلى رجلٍ آخر، لقد كان رسول الله ﷺ قبل هذه الثواني أبغض رجلٍ إليه، فعاد بعدها أحب رجلٍ إليه على الإطلاق، وكان الإسلام أبغض دينٍ عنده، فعاد عنده هو الدين الحق الذي لا يمكن أن يقاس به أي دين آخر، وقد كانت أوهام الجاهلية تعشش في مخه، وتحجب عقله السليم، فتبخرت هذه الأوهام، وحلت محلها حقائق الإسلام التي تدفع العقل نحو النمو السليم، وتنطلق به نحو التفكير في الآفاق العالية.

روائع من تواضع الصحابة

نموذج الحاكم المتواضع

لقد كان الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه مثالًا للصورة التي يشكلها الإسلام للحاكم المسلم، ذلك النموذج الإنساني الذي حمل لواء دعوة الله إلى الكون، وما تزال تمثل الضوء الكاشف للأمة الإسلامية خلال مختلف عصورها جيلًا بعد جيل، وما تزال شمائل الفاروق كحاكم قدوة حسنة لأجيال المسلمين، وتجدد هذه القدوة في نفوس المسلمين هذه الصورة كلما ادلهمتَ الأحداث، وأحاطت بهم الأزمات، فلا يجدون سبيلًا إلى الخروج منها إلا بالتماس هذا المنهج المتجدد الذي جعله الفاروق نموذجًا له، وبذلك أعطى البشرية ذلك الضوء الذي جددها وأحياها وأخرجها من الظلمات إلى النور بإذن ربها.

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه عبقريًا لم يصنع صنيعه أحد في الإسلام، وإنه لحق ما قاله الرسول الكريم ﷺ عنه: لم أرَ عبقريًا يفري فريُه، فهو بألمعيته وبصيرته، قد عرف حقيقة السعادة، وحقيقة العظمة في دنيانا هذه، فأخذ منهما بالمكيال الأوفى، ألا ورب عمر إن مشهدًا واحدًا كهذا الذي رأيناه في تاريخ عمر لخير مما طلعت عليه شمس وما غربت من عروش وتيجان، وزخرف وصلف!!

أي تواضع، وأي بساطة، وأي حنان ومودة تنساب من نفس هذا الإنسان الذي رفع الله به من قدر الحياة، أين مظاهر السلطان، حتى المشروعِ والضروري منها في حياة الفاروق؟ لكن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يكن رجلَ سلطان، لأنه فوق السلطان، وهو لا يستعير عظمته من شيءٍ خارج نفسه، إنما يهب العظمة لكل ما يقترب منه، ويتصل به.

هو رجل لا يتكلف البساطة، بل يتنفسها، ويطيء أكنافه في غبطةٍ للكبير والصغير، يمر يومًا في شوارع المدينة، فيرى غلمانًا يلتقطون البلح من أفنية النخل، فلا يكاد الغلمان يبصرونه حتى يتفرقوا، ويذهبوا بعيدًا، إلا غلام واحد ظل مكانه لم يهرب.

فيقترب منه الفاروق، فيتكلم الغلام ويقول: يا أمير المؤمنين، إن هذا البلح مما ألقته الريح!! فيقول له عمر: أرني أنظر إليه يا غلام، فإن ما تلقيه الريح لا يخفى علي، وينظر إلى البلح، ويفحصه ثم يقول للغلام: لقد صدقت يا فتى.

وتتهلل أسارير الطفل، ويقول لأمير المؤمنين في براءةٍ: أترى هؤلاء الغلمان الواقفين هناك يا أمير المؤمنين؟ قال الفاروق: نعم، قال الغلام: إنهم ينتظرون أن أذهب وحدي فيغيروا علي، ويأخذوا ما معي، فهل تمضي معي؟ ويضحك الفاروق عمر، ويربُت على كتفه، ويقول للغلام: امض معي، وسأبلغك مأمنك، ويأخذ بيده، ويسير إلى جانبه في طرقات المدينة، حتى يشارف داره.

عبرة

يا أيها الإخوة الكرام، هذا السلوك الباهر الذي يتبدى من الفاروق إنما ينبثق من طبيعةٍ استوفت كل عناصر الكمال، فلا شيء يميز الطبائع المتفوقة السوية لإنسان، مثل نأْيها عن الغرور، ولو كان ثمة رجلٍ لا بُدَّ للغرور أن يتسور حصونه المنيعة، لفرط مزاياه وروعة أمجاده وانتصاراته، لكن نرى كل هذا التواضع من رجلٍ كان حاكم على الأرض، فما هذا السلوك القويم من هذا الرجل الفريد؟!

يا شباب، لهذا الخليفة العظيم مواقف كثيرة جدًّا، ويمكن أن نهتدي بها، فإذا طبَّق كل إنسان هذه السيرة في بيته، في عمله إذا كان رئيسًا لدائرة، وعنده عدد من الموظفين فتواضع لهم، وعدل بينهم، وسوَّى نفسه معهم حتى أحبوه، فلما أحبوه أحبوا دينه، وأحبوا إسلامه، وأحبوا منهجه في الحياة، عندئذٍ الإسلام ينمو، الإسلام لا ينمو بالكلام، ولكن ينمو بالمثل العُليا، وينمو بالتطبيق.

الفاروق وإبل الصدقة

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه واحد من الذين أعزهم الله بالإسلام، وأعز الإسلام بهم، فقد كان رجلًا قد اكتملت فيه أوصاف الرجولة كلها، وبطلًا قد تمت له سمة البطولة في أسمى معانيها، فصنع لنفسه تاريخًا عامرًا بالمآثر الخالدة، زاهيًا بالأمجاد الخالدة، زاخرًا بالبطولات النادرة، والمواقف الإنسانية السامية، رجلٌ فتح الله على يديه البلدان، ومصر الأمصار، وكان درة تاج الإسلام، وها هو يسطر على جبين التاريخ صفحاتٍ مضيئة تتألق روعةً وجمالًا وإجلالًا من الورع والخوف من الله جل وعلا.

وخلاصة القول فيه: إنه إنسان قد تجسدت فيه معاني الإنسانية، ورجل قد اكتملت فيه معالم الرجولة، وجندي قد سمت جنديته إلى المعالي حتى قيل: إنه لا شيء منها لم يبلغه عمر، إنه خلاصة الخلاصة من أصحاب النبي ﷺ بعد الصديق بلا منازع، أحبه الناس على اختلاف درجاتهم، وشهد له أعداءه بالنبل والفضل على كرهٍ منهم، والفضل ما شهدت به الأعداء، وإليكم جميعًا ذلك المشهد الذي يعجز القلم عن وصفه أو حتى مجرد التعليق عليه.

شيء غريب، ونموذج فريد، هذا الذي نقرأه في سيرة هذا الرجل العظيم، يقف القلم عاجزًا عن البيان، أنحن في عالم الخيال، أم في عالم الحقيقة؟، فاقرأ يا أخي الكريم هذا الموقف الرائع العظيم:

قدم الأحنف بن قيس رضي الله عنه على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في وفدٍ من أهل العراق، فقد قدموا عليه في يوم صائف شديد الحر، كان الفاروق لف العمامة على رأسه، فإذا ببعيرٍ من إبل الصدقة تفلت من حظيرتها. فقال الفاروق: يا أحنف، ضع ثيابك وهلم معي، فأعن أمير المؤمنين على هذا البعير، فإنه من إبل الصدقة، فيه حق اليتيم، والأرملة، والمسكين.

فقال رجل من القوم: يغفر الله لك يا أمير المؤمنين، فهلا تأمر عبدًا من عبيد الصدقة فيكفيك ذلك، فقال الفاروق: وأي عبد هو أعبد مني ومن الأحنف؟! إنه من ولي أمر المسلمين فهو عبد للمسلمين، يجب عليه لهم ما يجب على العبد لسيده في النصيحة وأداء الأمانة.

عبرة

يا خالق هؤلاء الرجال سبحانك، يا ترى ماذا فعل القرآن في نفوس هؤلاء الرجال؟ وتأمل حال هذا الخليفة العظيم الذي دانت له أعظم إمبراطورتين في تاريخ الفرس والروم، وهو يذهب خلف إبل الصدقة، فقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه خليفة للمسلمين وإمامًا لهم، فتح الله له فتحًا مبينًا، حتى هابته ملوك الأرض، وتدحرجت عند قدميه تيجانها، وجرت بين يديه الأموال كالأنهار، مع كل هذه العظمة، كان بهذا التواضع، وهذه الخدمة، وهذا الحرص، وتلك الخشية من الله عز وجل.

يا شباب، متى امتلأ القلب بعظمة الله تعالى محا ذلك من القلب كل ما سواه، ولم يبق للعبد شيء من نفسه وهواه، ولا إرادة إلا لما يريده منه مولاه، فحينئذٍ لا ينطق العبد إلا بذكره، ولا يتحرك إلا بأمره، فإن نطق نطق بالله، وإن سمع سمع به، وإن نظر نظر به، وإن بطش بطش به.

أساس العدل

الإنسان حينما يرتفع شأنه، قد يرتفع بماله، وقد يرتفع بقوته، وقد يرتفع بحسبه، وقد يرتفع بعلمه، وقد يرتفع بذكائه، فالصديق رضي الله عنه من هؤلاء القلة المعدودين على أصابع اليد؛ حينما أصبحوا في قمة المجتمع الإسلامي ما تغيروا، ولا تبدلوا، ولا رأوا أنفسهم فوق المجتمع، فلذلك حينما تولى الخلافة ذهب إلى السوق للتجارة كأنه واحد من عامة الناس، فهو ثابتٌ على عبوديته لله عز وجل، فهذا المنصب لم يبدل أخلاقه.

فلقد اتبع أبو بكر الصديق رضي الله عنه المنهج الرباني في إقرار العدل، وتحقيق المساواة بين الناس، وراعى حقوق الضعفاء، فرأى أن يضع نفسه في كفة هؤلاء الواهنة أصواتهم فيتبعهم بسمعٍ مرهف وبصرٍ حاد، وإرادة واعية لا تستذلها عوامل القوة الأرضية فتملي كلمتها.

إنه الإسلام في فقه رجل دولته النابه الذي قام يضع القهر تحت أقدام قومه، ويرفع بالعدل رؤوسهم فيؤمن به كيان دولته، ويحفظ لها دورها في حراسة الملة والأمة، لقد قام الصديق منذ أول لحظةٍ بتطبيق هذه المبادئ السامية، فقد كان يدرك أن العدل عزٌ للحاكم والمحكوم، ولهذا وضع الصديق سياسته تلك موضع التنفيذ وهو يُردد قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (النحل: ٩٠).

لقد كان الصديق رضي الله عنه قدوة في عدله وحلمه، يأسر القلوب ويبهر الألباب، فالعدل في نظرهِ دعوة عملية للإسلام، فيه تفتح قلوب الناس للإيمان بالله، فلقد عدل بين الناس في العطاء، وطلب منهم أن يكونوا عونًا له في هذا العدل، وعرض القصاص من نفسه في واقعةٍ تدل على العدل والخوف من الله سبحانه، فقد كان يريد أن يطمئن المسلمون إلى دينهم، وحرية الدعوة إليه، وإنما تتم الطمأنينة للمسلمين ما قام الحاكم فيهم على أساسٍ من العدل المجرد من الهوى، ونحن في هذه السطور نعيش مع مشهدٍ يدل على ذلك، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد الرائع.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: إن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قام يوم الجمعة فقال: إذا كنا بالغداة فأحضروا صدقات الإبل نقسمها، ولا يدخل علينا أحد إلا بإذن، فقالت امرأة لزوجها: خذ هذا الخطام لعل الله يرزقنا جملًا، فأتى الرجل فوجد أبا بكر وعمر رضي الله عنهما قد دخلا إلى الإبل فدخل معهما. فالتفت أبو بكر إليه ثم قال: ما أدخلك علينا يا رجل؟ ثم أخذ منه الخطام فضربه، فلما فرغ أبو بكر من قسم الإبل دعا الرجل فأعطاه الخطام.

وقال: استقد مني يا رجل.

فقال عمر: يا خليفة رسول الله لا يستقد منك، ولا تجعلها سنة.

فقال أبو بكر: فمن لي من الله يوم القيامة يا عمر؟!قال عمر: أرضه يا خليفة رسول الله.

عندئذٍ أمر الصديق غلامه أن يأتيه براحلة ورحلها، وقطيفة وخمسة دنانير، وجعل يعتذر للرجل حتى أرضاه.

عبرة

يا أيها الإخوة الكرام، الحكم على هذا الأساس يقتضي من الحاكم أن يسمو فوق كل اعتبارٍ شخصي، وأن يكون العدل والرحمة مجتمعين، وقد كانت نظرية أبي بكر في تولي أمور الدولة قائمةً على إنكار الذات، والتجرد لله سبحانه تجردًا مطلقًا جعله يشعر بضعف الضعيف، وحاجة المجتمع، ويسمو بعدله على كل هوى، وينسى في سبيل ذلك نفسه وأبناءه وأهله، ثم يتتبع أمور الدولة جليلها ورقيقها بكل ما أتاه الله من يقظةٍ وحذر.

وبناء على ما سبق كان يرفع العدل لواءه بين الناس، فالضعيف آمن على حقه، وكله يقين أن ضعفه يزول حينما يحكم العدل، فهو به قوي لا يمنع حقه ولا يضيع، والقوي حين يظلم يردعه الحق ولو كان الخليفة، وينتصف منه للمظلوم حتى لو كان من عامة الشعب، فلا يحتمي أحد بجاهٍ أو سلطان أو قرابة لذي سطوةٍ أو مكانة، وذلك هو العز الشامخ، والتمكين الكامل في الأرض.

وما أجمل ما قاله الإمام ابن تيمية رحمه الله: إن الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة ولو كانت مسلمة، بالعدل تستصلح الرجال، وتستغزر الأموال.

يا شباب، المؤمن العاقل هو الذي لا يغتر بهذه الدنيا، ولا يسكن إليها، ويطمئن بها، بل يقصر أمله فيها، ويجعلها مزرعة يبذر فيها العمل الصالح ليحصد ثمراته في الآخرة، ويتخذها مُطيةً للنجاة على الصراط الممدود على متن جنهم، فالدنيا معبر وطريق للآخرة، والمؤمن إما غريب فيها أو عابر سبيل، فهو لا يركن إليها، ولا يشغل بزخرفها، ويخدع بما فيها؛ إنما يستشعر المؤمن في نفسه وقلبه دائمًا وأبدًا، وأن يعيش في هذه الدنيا عيش الغريب عن وطنه، البعيد عن أهله وعياله، فهو دائمًا وأبدًا في شوقٍ إلى الوطن.

الأمير المتواضع

من أراد الله به خيرًا وهبه عقلًا رشيدًا، وقلبًا ودودًا، ونفسًا زكية، وفطرةً سوية نقية، لا يعكر صفوها ما في البيئة من زيغٍ وانحرافٍ أو تناقضٍ واختلاف، والشأن فيمن كان كذلك أن يبحث عن الحقيقة الإيمانية في نفسهِ أولًا ثم في الكون الواسع الفسيح الذي يحتويه ويعيش فيه، ويتطلع ببصرهِ إلى آيات الله في الأرض وفي السماء، وقد كان الصالحون يعدون الإمارة تكليفًا وليست تشريفًا، فضربوا أروع الأمثال في الزهد، والتواضع، والعدل، والخوف من الله.

ضيفنا في هذه السطور، أستاذ الزهد واليقين، الرجل الذي ضرب أروع الأمثال في الزهد، والتواضع، والعدل، والخوف من الله جل وعلا، رجل ظل طوال رحلة عمره باحثًا عن الحق حتى استقرت قدماه على الصراط المستقيم، لقد بذل هذا العملاق الكبير النفس والنفيس لله ربه، فمن الله عليه بنعمة الإيمان.

نحن على موعدٍ مع رجلٍ استجاب قلبه قبل أن تستجيب جوارحه لنداء الحق، فذهب يطوف البلدان بحثًا عن الحق والحقيقة، إنه الرجل الذي نصر الله عز وجل به المسلمين يوم الأحزاب، إنه الرجل الذي اشتاقت الجنة إليه، إنه درة أهل بيت النبوة، الذي قال عنه الرسول الأعظم: سلمان منا أهل البيت، نحن نلتقي مع التقي الزاهد سلمان الفارسي رضي الله عنه.

كان سلمان الفارسي رضي الله عنه قد ملأت نفسه حب الغنى، وحب زخارف الحياة وملأها، وعزف عزوفًا عن الدنيا وأموالها، ومناصبها، وجاهها، ولمَ لا؟ فقد عهد رسول الله ﷺ إليه وإلى أصحابه جميعًا: ألا يدعوا الدنيا تتملكهم، وألا يأخذ أحدهم منها مثلًا إلا زاد الراكب، فلم يكن في بيته وهو أمير على المدائن كلها إلا مطهرة يشرب منها، ويتوضأ فيها، ومع هذا يحسب نفسه مترفًا.

حتى عندما كان أميرًا على المدائن، لم يتغير من حاله رضي الله عنه شيء، فقد رفض أن يناله من مكافأة الإمارة درهم، وظل يأكل من عمل الخوص، ولباسه ليس إلا عباءة تنافس ثوبه القديم في تواضعها.

ففي ذات يومٍ وهو سائر في الطريق يلتمس حاجات الناس، لقيَ رجلًا قادمًا من الشام، ومعه حمل تين وتمر، وكانَ الحمل يئود بالرجل ويتعبه، فلم يكد يبصر أمامه رجلًا يبدو عليه أنه من عامة الناس وفقرائهم حتى بدا له أن يضع الحمل على كاهله، حتى إذا أبلغه وجهته أعطاه شيئًا نظير حمله، فأشار إلى الرجل فأقبل عليه.

فقال له الشامي: احمل عني هذا يا رجل، فقال سلمان: على الرحب وسعة، وحمل عنه حمله، ومضيا معًا، وإذا هما في الطريق بلغا جماعة من الناس، فسلّم عليهم. فأجابوا واقفين: وعلى الأمير السلام.

تعجب الرجل الشامي من كلام الناس، وسأل الرجل نفسه، هل هذا أمير المدائن؟ ولقد زادت دهشته حين رأى بعض الناس يسارعون نحو الرجل ليحملوا عنه قائلين: عنك أيها الأمير، فعلم الرجل أنه أمير المدائن سلمان الفارسي رضي الله عنه، فسقط في يده، وهربت كلمات الاعتذار والأسف من بين شفتيه، واقترب ينتزع الحمل من على ظهر أمير المدائن، لكن سلمان هزَّ رأسه رافضًا وهو يقول: لا ورب سلمان حتى أبلغك منزلك!

عبرة

يا أيها الإخوة الكرام، لقد كان بعضنا يظن حين يسمع عن تقشف بعض الصحابة وورعهم، مثل أبي بكر، وعمر، وأبي ذر وغيرهم، أن مرجع ذلك لطبيعة الحياة في الجزيرة العربية، حيث يجد العربي متاع نفسه في البساطة، فها نحن أمام رجلٍ من أهل فارس، بلاد البذخ، والترف، والمدنية، ولم يكن من فقراء الناس بل من صفوتهم، فما باله يرفض المال، والثروة، والنعيم، ويصرُّ على أن يكتفي في يومه بدرهمٍ يكسبه من عمل يده، رغم أنه أمير على المدائن كلها، فقد كان سلمان زاهدًا في الدنيا لم ينظر إلى حطامها يومًا، ولم يستمتع بعد إسلامه بطعامٍ شهي، أو ثيابٍ فخمة أو ببيتٍ واسع يجد فيه راحته.

الله بيننا وبين عمر

إن بساطة عمر بن الخطاب رضي الله عنه تكشف الحماقة الكبرى التي يخوض فيها كل من يأخذه الزهو والصلف بمنصبٍ يناله، أو نصرٍ يبلغه، أو ثروةٍ يجمعها، فما الصلف والتكلف إلا عبء ثقيل يحمله المخدوعون به، ويصطلون بعذابه وهم لا يشعرون، أما البساطة الصادقة التي عاشها عمر فتلك هي السعادة حقًّا، السعادة التي يتمثلُ فيها رجوع النفس إلى جوهرها، وتفوقها على كل خلابةٍ وغرور، سبحانه رب عمر لقد ألهمه رشده، ووقاه شر نفسه، ومنحه من استقامة الشخصية وجلالها ما جعله نسيج وحده، لا في بلده وحده، ولا في عصره وحده، بل ملء كل مكان، وعبر الزمان، جميع الزمان.

حيثما نلقاه نلقى روحه، نلقى بساطته وإخلاصه وصدقه، حتى ليتركنا في حيرة، كيف توافر لهذا الرجل كل هذا القدر من الإيمان، والأمانة، والبساطة، وهو الذي أصبحت الأموال تتكدَّس بين يديه في أفناء المدينة أكوامًا وتلالًا، وأحاطت به قلوب الشعوب التي حررها من ظالم الروم، وغطرسة الفرس، وأحاطت به في هُيام وحبٍ وفتون يسلُب الحليم لبهُ كل قوى الإغراء بالزهو، والحض على الاستعلاء، ثم لا نجد أثاره -أدنى أثاره- من زهو أو استعلاء، بل على العكس نجد قممًا تزحم الأفق؛ قمة الزهد، وقمة العدل، وقمة الورع، وقمة البساطة والتواضع، شوامخ يُعلي الرجل بناءها بفضائل نفسه، وبطولة روحه، واستقامة نهجه.

فقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه نموذجًا رائعًا للحاكم الذي عرف مسؤوليته تجاه رعيته، وقد راقب الله فيمن تحت ولايته من الناس، فأحبهم وأحبوه ورضي عنهم ورضوا عنه، عفى فعفوا، وصدق فصدقوا، ومن هذه الصور الرائعة بين الحاكم والشعب ما رُوي عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: خرجنا مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى حرة، حتى إذا كنا بمرتفعٍ إذ بنارٍ بعيدة.

فقال عمر: يا أسلم إني لأرى هناك ركبًا حبسهم الليل والبرد فانطلق بنا إليهم، فيقول أسلم: فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم، فإذا هي امرأة معها صبية صغار، وإذا بقدرٍ منصوبة على النار، وصبيانها يتضاغون من الجوع، فقال عمر: السلام عليكم يا أهل الضوء -وقد كره أن يقول يا أهل النار، قالت المرأة: وعليكم السلام، فقال عمر: أأدنو؟ قالت: ادن بخير أو دع، فدنا عمر، قال عمر: ما بكم؟ قالت: قصر بنا الليل والبرد، قال: فمال هؤلاء الصبية يتضاغون؟ قالت: الجوع، فقال: فأي شيء في هذه القدر؟ قالت: ماء أسكتهم به حتى يناموا، والله بيننا وبين عمر.

ما أصعب هذه الكلمات التي يهتز لها قلب وجنان كل مؤمن، فما بالك بقلبٍ مثل قلب عمر.

يقول عمر: رحمك الله، وما يدري عمر بكم؟ قالت: يتولى أمرنا، ثم يغفل عنا، الله بيننا وبينه، قال أسلم: فأقبل عمر علي، فيقول انطلق بنا، فأتينا نهرول حتى أتينا دار الدقيق، فأخرج عدلًا من دقيق، وكبة من شحم، ثم حملها عمر على ظهره، فقلت: أحملها عنك يا أمير المؤمنين، قال: لا أم لك، أتحمل عني وزري يوم القيامة؟! يقول أسلم فانطلقنا حتى أتيناها، فألقى عمر العدل عندها، وأخرج من الدقيق شيئًا، وجعل يقول: دري عليَّ وأنا أحرك، وجعل ينفخ تحت القدر، والدخان يتخلل لحيته، فلو

رأيته لرأيت عجبًا، ثم أنزل القدر فأتته بصحفةٍ فأفرغ فيها الطعام، ثم جعل يقول لها: أطعميهم، وأنا أسطح لهم، فلم يزل كذلك حتى شبعوا، ثم ترك عندها فضل ذلك الطعام، ثم قام وهي تقول: جزاك الله خيرًا، كنت أولى بهذا الأمر من عمر، قال: قولي خيرًا.

ثم تنحى عنهم ناحية واستقبلهم، وقد ربض مربضًا يراقبهم، يقول أسلم: قلت إن له شأنُ وهو لا يكلمني حتى رأى الصبية يصطرعون، ثم ناموا، فقال عمر: يا أسلم ما أسهرهم إلا الجوع، فأحببت ألا أنصرف حتى أرى ما رأيت.

عبرة

يا أيها الإخوة الكرام، هكذا كان خلفاء المسلمين يعملون على مصالح الرعية، ويعرفون أنهم مسؤولون يوم القيامة عن الكبير والصغير، والغني والفقير، والرجال والنساء على حدٍ سواء، لقد ارتقى شعور الفاروق في الاهتمام برعيته إلى الشعور بالمسؤولية نحو الدواب، حتى كان يقول: لو عثرت بغلة بشط الفرات لخشيت أن يسألني الله عنها لمَ لم تمهد لها الطريق يا عمر؟

وهذا يا إخوة، لا ينبع إلا من نفسٍ تحاسب نفسها، ولا يصدر عن أي قلبٍ إلا من قلبٍ يخشى الله ويتقيه.

يا شباب، أحيانًا الإنسان يفعل مثلَ هذا، يفعل هذا استعراضًا، يفعل هذا تمثيلًا، يفعل هذا لينتزع إعجاب الناس، لكن هذا الخليفة العظيم حينما فعل هذه المواقف المتواضعة كان يحرص فيها على طاعة الله عز وجل، وعلى خدمة الخلق، أليس هو القائل مرة لأحد الولاة: ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارقٍ أو ناهب؟ فقال هذا الوالي وفق السنة والشريعة: أقطع يده، قال عمر: إذًا فإن جاءني من رعيتك من هو جائعٌ أو عاطل فسأقطع يدك، قال له: يا هذا إن الله قد استخلفنا عن خلقه لنسُدَّ جوعتهم، ونستر عورتهم، ونوفر لهم حرفتهم، فإن وفينا لهم ذلك تقاضيناهم شكرها، إن هذه الأيدي خلقت لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعةِ عملًا التمست في المعصية أعمالًا، فاشغلها في الطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية.

رضينا برسول الله قسمًا وحظا

تختلف ميادين العظمة في هذه الحياة، فمن العظماء من تقتصر عظمتهم على عبقريةٍ في العلم، ومنهم من تقتصر على عبقريةٍ في الحكم، ومنهم من تبرز عبقريته في الحرب، ومنهم من تتجلى عظمتهم في الفضيلة والأخلاق، وسيدنا محمد ﷺ نواحي العظمة كلها في ذاته الكريمة، فما من ناحية من نواحي الحياة إلا كان فيها عظيمًا، كانٍ في العلم والحكمة سيد العلماء والحكماء، يتنزل عليه الوحي من ربه بما يفيض على الإنسانية حكمةً وأدبًا وتشريعًا متقنًا خالدًا.

وكان في الخلق والأدب مثال الكمال في ضبط النفس، ورقة القلب، وسماحة اليد، وكان في الحكم والرئاسة عظيم العظماء، لم يعرف التاريخ مثله في سياسته وحسن قيادته، وتأليفه بين القلوب، وقدرته على توجيه إمكانيات الأمة كلها في طريقٍ واحد، وغاية واحدة، وكان في الحرب بطلًا لا يعرف التردد، رحيمًا لا يعرف القسوة، يضع الأمور في مواضعها، فإذا كان العفو أنفع للناس، وأرجى للخير، كان سيدَ من عفا وسامح، وهكذا كان رسول الله ﷺ المثل الكامل لكل عظيم، والقدوة الكريمة لكل عبقري، ونحن في هذه السطور نعيش مع مشهدٍ من المشاهد العظيمة في حياة الرسول الأعظم، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد الرائع للرسول الكريم بعد غزوة حنين.

لما انتهت القوات الإسلامية من غزوة حنين ظافرين غانمين، وزَّع الرسول القائد صلوات ربي وسلامه عليه العطايا في قريش وقبائل العرب والمهاجرين، ولم يكن في الأنصار منها شيء، فتساءل الأنصار في مرارةٍ: لماذا لم يعطهم رسول الله ﷺ حظهم من العطايا؟ وأخذوا يتهامسون بذلك حتى كثرت منهم القالة حتى قال قائلهم: لقد لقي والله رسول الله ﷺ قومه، فسمع سعد بن عبادة رضي الله عنه كلام قومه، فذهب إلى رسول الله ﷺ، وقال: يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبته، فقسمت في قومك وأعطيت عطايا عظامًا في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار منها شيء.

فسأله النبي ﷺ وقال: وأين أنت من ذلك يا سعد؟

قال سعد: يا رسول الله ما أنا إلا رجل من قومي!!

فقال له رسول الله: إذًا فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة يا سعد.

فخرج سعد، فجمع الأنصار، فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا، وجاء آخرون فردهم، فلما اجتمعوا له أتاه سعد.

قال سعد: يا رسول الله قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: يا معشر الأنصار، مقالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها عليَّ في أنفسكم؟ يا معشر الأنصار، ألم آتكم ضلالًا فهداكم الله بي، وعالةً فأغناكم الله بي، وأعداءً فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، الله ورسوله أمنُّ وأفضل.

فقال رسول الله: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟ قالوا: بم نجيبك يا رسول الله؟ لله ورسوله المن والفضل. فقال رسول الله: أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم: أتيتنا مكذبًا فصدقناك، ومخذولًا

فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلًا فآسيناك، أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فو الذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا، لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار، فبكي القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسمًا وحظًا، ثم انصرف رسول الله ﷺ، وتفرقوا.

عبرة

يا شباب، ما قام به النبي ﷺ من إقناع الأنصار رضي الله عنهم، وذلك ببيانه البديع الذي غيَّر به مشاعرهم، وذلك بعدما بيَّن بأسلوبه الرائع السبب الذي من أجله تصرَّف ذلك التصرف في قسمة الفيء، الأمر الذي كان غائبًا عن الأنصار تصورُه، فلما فهموا مراد النبي ﷺ اقتنعوا حالًا، علموا أنه ما تركهم إلا إعلاءً لشأنهم، واعتقادًا منه بعلو كعبهم في الإيمان بهذا الدين.

لقد قدم النبي ﷺ لبيان السبب في إعطاء تلك العطايا الكبيرة في بعض زعماء القبائل بمقدمةٍ بيَّن بها فضل الأنصار، كما ختم كلمته ببيان فضلهم والدعاء لهم ولذرياتهم، ولقد وُفِّق ﷺ تمام التوفيق في إقناع الأنصار بوجهة نظره، فتغيرت مشاعرهم وملامحهم من إضمار السخط وإظهار النقد إلى إظهار الرضا والفرح والسرور، والتأثر البالغ مما صدر منهم الذي عبَّروا عنه بالدموع الغالية التي انسكبت على لحاهم، وبقولهم: رضينا برسول الله ﷺ قسمًا وحظًا.

لقد أشفق الأنصار رضي الله عنهم من أن يقيم رسول الله ﷺ بمكة ويتركهم، لكن النبي الكريم ﷺ الوفي لن يخلف وعده الذي وعدهم به يوم بيعة العقبة من عدم التحول عنهم إذا نصره الله تعالى وظهر أمره، وحتى لو لم يكن هناك وعد فإن وفاءه لأولئك الأماجد الكرام الأسود الأشاوس الذين نصر الله بهم الإسلام وأقام بهم دولته، إن وفاءه لهم يمنعه من أن يتحول عنهم، ولذلك قال: المحيا محياكم، والممات مماتكم، وبهذا اطمأن الأنصار وامتلؤا سعادة وحبورًا.

غفر الله لك يا أبا بكر

حين تتطلع حياتنا الإنسانية إلى أساتذة تتلقى عنهم ومن سيرتهم فنَ الإيمان والتقوى، فإنها واجدة على رأس تلك القلَّة النادرة الباهرة، شيخ الإسلام الكبير أبا بكر الصديق رضي الله عنه ، فقد كان رضي الله عنه مثالًا للخلق الفاضل، والسلوك النبيل، أليفًا ودودًا يحب الناس ويحبونه، مطبوعًا على الخير والسماحة والتواضع ولين الجانب، لم يتعال على أحدٍ قط في جاهليةٍ ولا في إسلام، فإذا مدحه مادح استحى وأخذته رعدة، وقال لمادحه: أنا أعلم بنفسي منك، والله أعلم بنفسي مني، اللهم اغفر لي ما يعلمون، وما لا يعلمون، وما أعلمه من نفسي، وما لا أعمله منها، وكان وهو حاكم على الأرض يخدم نفسه بنفسه، مبالغة في التواضع، وحذرًا من الوقوع في الرياء أو فيما يشبه الرياء.

وقد كان رضي الله عنه خائفًا من ربه، متواضعًا مع الخلق، مجاهدًا في سبيل ربه، متصفًا بالرحمة، من الكاظمين الغيظ، العافين عن الناس، سخيًا كريمًا.

وكان له حظ وافر من الملكة الروحية إلى جانب هذه الملكات الخلقية والعقلية، فاكتملت لديه خصال الخير كلها، وتمت له شُعب الإيمان بحذافيرها، فبدا للناس كأنه ملكًا يمشي بينهم في تواضع جم، وكان كالنجم في السماء يرى لمعانه في الماء، وأعني بالملكة الروحية: القلب الحي، والضمير اليقظ، والشعور المفعم بالحب في صوره المتألقة: حب الله، وحب رسوله، وحب أصحابه، وحب الحق، وحب العدل، وحب العيش في سلام، إلى غير ذلك مما هو في طريقه، ونحن في هذه السطور نعيش مع المشهد الماتع بين الصديق والصحابي الجليل ربيعة الأسلمي رضي الله عنهما .

قال ربيعة الأسلمي رضي الله عنه: كنت أخدم النبي ﷺ، فأعطاني أرضًا وأعطى أبا بكر أرضًا، وجاءت الدنيا فاختلفنا في عذق نخلة، فقلت أنا: هي في أرضي يا أبا بكر، وقال أبو بكر: بل هي في حدِّي، فكان بيني وبين أبي بكر كلام، فقال أبو بكر: كلمة كرهتها، وندم الصدِّيق على ذلك.

فقال لي: يا ربيعة، رد عليَّ مثلها حتى تكون قصاصًا، قال ربيعة: لا أفعل، قال أبو بكر: لتقولن أو لستعدين عليك رسول الله ﷺ، فقال ربيعة: ما أنا بفاعل، ثم فارق أبو بكر الأرض، وانطلق إلى رسول الله ﷺ، وانطلقت وراءه، فجاء ناس من قومي أسلم، فقالوا لي: رحم الله أبا بكر، في أي شيءٍ يستعدي عليك رسول الله ﷺ وقد قال لك ما قال؟ قلت: أتدرون من هذا يا قوم؟ هذا أبو بكر الصديق، هذا ثاني اثنين، وهذا شيبة المسلمين، إياكم لا يلتفت فيراكم تنصروني عليه فيغضب، فيأتي رسول الله ﷺ فيغضب لغضبه، فيغضب الله عز وجل لغضبهما فيهلك ربيعة، قالوا: ما تأمرنا به يا ربيعة؟ قال ربيعة: ارجعوا.

ثم انطلق أبو بكر إلى رسول الله ﷺ فتبعتُه وحدي حتى أتى النبي ﷺ، فحدثه الحديث كما كان، فرفع رسول الله ﷺ رأسه فقال: يا ربيعة مالك والصديق؟ قلت: يا رسول الله كان كذا وكذا، فقال لي كلمة كرهتها فقال: قل لي كما قلت لك حتى يكون قصاصًا فأبيت، فقال رسول الله ﷺ: أجل فلا ترد عليه، ولكن قل: غفر الله لك يا أبا بكر، فقلت: غفر الله لك يا أبا بكر، فولىَّ أبو بكر رضي الله عنه وهو يبكي.

عبرة

يا أيها الإخوة الكرام، لله أي وجدان هذا الوجدان، وأي نفس تلك النفس؟! بادرةً بدرت منها لمسلم فلم ترض إلا اقتصاصه منها، وصفحه عنها، تناهيًا بالفضيلة، واستمساكًا بالأدب، وشعورًا تمكنً من الجوانح، وأخذ بمجامع القلوب، فكانت عنده زلة اللسان ولو صغيرة ألمًا يتململ منه الضمير فلا يستريح إلا بالقصاص منه، ورضا ذلك المسلم عنه، كانت كلمة هينة، ولكنها أصابت من ربيعة موجعًا، فإذا أبو بكر يُزلزلُ من أجلها، ويأبى إلا القصاص عليها، مع أنه يومئذٍ الرجل الثاني في الدولة بعد رسول الله ﷺ، وهي كلمة لا يمكن أن تكون من فُحش القول أبدًا: لأن أخلاقه لا تسمح له بهذا، ولم يؤثر عنه حتى في الجاهلية شيء من هذا، فكيف في الإسلام؟

لقد خشيَ الصديق مغبة تلك الكلمة، ولهذا اشتكى لرسول الله، وهذا أمر عجيب حقًّا، فإن أبا بكر قد نسى أرضه، ونسى قضية الخلاف، وشغل باله أمر تلك الكلمة لأن حقوق العباد لا بُدَّ فيها من عفو صاحب الحق، وفي هذا درس للشيوخ والعلماء والحكام والدعاة في كيفية معالجة الأخطاء، ومراعاة حقوق الناس، وعدم الدوس عليها بالأرجل.

وبالرغم مما ظهر من رضا ربيعة، وتوجيه النبي ﷺ إلى عدم الرد على أبي بكر فإن أبا بكر قد بكى من خشية الله تعالى، وهذا دليل على قوة إيمانه، ورسوخ يقينه.

يا شباب، كان أصحاب رسول الله ﷺ يعرفون قيمة بعضهم، فهذا صحابي جليل، هذا أمين سر رسول ﷺ، هذا ثاني اثنين، هذا الصديق، تحدث مشادة بينه وبين أحد الصحابة، فهل من السهولة أن يتطاول عليه؟ إن هذا الصحابي الجليل له قلب عامر بذكر الله، فلما رأى في وجه أخيه كراهية كلمة قالها، ندم ندمًا شديدًا، وهذا الندم، وهذا الاختلال، لا يصلحه إلا أن يقتص منه، أي هذا هو أسلوب الأدب بين الإخوة، فإذا قال لك أخوك كلمة قاسية، فقل له: غفر الله لك، قال: فولَّى أبو بكر وهو يبكي، عرف مقامه عند رسول الله ﷺ، ومقامه عند الصحابة، كما عرف أدب هذا الصحابي الجليل، والهداية قد تنجم من موقف أخٍ مسلم نحو أخيه، تنبع من أدبٍ جم، وذوقٍ رفيع.

إخلاص نادر الوجود

أرسل الله رسوله محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق، فاستجاب له فور ظهوره أناس طال انتظارهم إليه وكانوا معه على موعدٍ كأبي بكر، وعلي، وزيد، وعثمان، وطلحة، فقد أسلم هؤلاء من غير عوائق ولا كبوات، وأخذوا يدعون الناس إليه على بصيرةٍ من ربهم، فهدى الله على أيديهم أناسًا كثيرين من السادة والعبيد، والأغنياء والفقراء.

وتخلف عنه أقوام أخذتهم العزة بالإثم في بادئ الأمر، فأعلنوا الحرب على هذا الدين القويم، وخاضوا مع المسلمين معارك ضارية، ثم هداهم الله إلى الحق المبين فآمنوا به على علم ويقين، ودافعوا عنه بكل ما أوتوا من قوةٍ مادية ومعنوية، فكانوا سيوفًا سلها الله على أعداء دينه، فأحرزوا النصر لهذا الدين في شتى الميادين، وسجل التاريخ لهم في أنصع صفحاته بطولاتهم الفذة ومآثرهم الخالدة، فكانت سيرتهم دروسًا جليلة الأثر عظيمة الثمرات، لأن حياتهم بما كان فيها من جهدٍ مشكور، وكفاحٍ مبرور تعتبر مشاعل ساطعة تنير الطريق لكل من يريد أن يسهم بنصيبٍ وافر في إقامة الدين، وعمارة الأرض وإصلاحها ونشر الإسلام فيها.

ومن هؤلاء الذين كان لهم في نصرة الإسلام مواقف حاسمة وبطولات نادرة أضحت مضرب الأمثال في كل زمانٍ ومكان أبو سليمان خالد بن الوليد رضي الله عنه، ونحن هنا نتكلم عن موقفٍ واحد له، نعيش فيه العظمة الإنسانية في مشهدٍ من أبْهى مشاهدها، وهو يوم عزله عن قيادة الجيش.

كان خالد يقود القوات الإسلامية في اليرموك الضارية، ويستلُ النصر من بين أنياب الروم استلالًا فذًا، بقدر ما هو مضن ورهيب، وإذا به يفاجأ بالبريد القادم من عاصمة الخلافة الإسلامية المدينة يحمل كتاب الخليفة الجديد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفيه تحية الفاروق للجيش الإسلامي، ونعْيُه لخليفة رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه، ثم أمره بتنحية خالد عن القيادة العامة للجيش الإسلامي على جبهة الشام، وتولية أبي عبيدة بن الجرَّاح مكانه.

قرأ خالد الكتاب وهمهم بالدعاء والترحم على الصديق، والتوفيق لعمر، ثم طلب من حامل الكتاب ألَّا يبوح لأحدٍ بما فيه، وألزمهُ مكانًا أمره ألا يغادره، وألا يتصل بأحد، واستأنف قيادته للمعركة مُخْفيًا موت أبي بكر وأوامر عمر رضي الله عنهما حتى يتحقق النصر الذي بات وشيكًا وقريبًا، ودقَّت ساعة الظفر، واندحر الروم، وتقدم البطل من أبي عبيدة مؤديًا إليه تحية الجندي لقائده، وظنها أبو عبيدة في أول الأمر دعابة من دعابات القائد الذي حقق نصرًا لم يكن في الحسبان، بيد أنه ما فتئ أن رآها حقيقة وجدًّا، فقبَّل خالدًا بين عينيه، وراح يُطري عظمة خالد وسجاياه.

وثمت رواية تاريخية أخرى تقول: إن الكتاب جاء إلى أبي عبيدة نذكرها هنا أيضًا، تقول: بعث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فور توليه الخلافة خطابًا لأبي عبيدة ليتولى أمر القيادة العامة للجيوش الإسلامية في جبهة الشام، مكان سيف الله خالد بن الوليد رضي الله عنهما، وكان خالد على وشك الدخول في معركة اليرموك الطاحنة بعد بضعة أيام.

قرأ أبو عبيدة الكتاب، وقدَّر الموقف العام للقوات الإسلامية، وفكر في حال المسلمين قبل هذه الموقعة الفاصلة، فأخفى عن الجيش وخالد بن الوليد أمر كتاب أمير المؤمنين حتى لا يُفسد على المسلمين

المعركة، فلما انتهت المعركة بنصرٍ هائل للمسلمين على الرومان البيزنطيين وتدمير جيوشهم، تقدم أبو عبيدة بن الجراح في أدبٍ جم وتواضعٍ شديد إلى خالد بن الوليد، فقال: يا أبا سليمان هذا كتاب أمير المؤمنين إليك، فقال خالد: يرحمك اللهُ يا أبا عبيدة ما منعك أن تخبرني حين جاءك الكتاب من أمير المؤمنين؟ فأجاب أبو عبيدة رضي الله عنه: إني كرهت أن أكسر عليك حربك، وما سلطان الدنيا نريد، ولا للدنيا نعمل، وإن ما ترى سيصير إلى زوال وانقطاع، وإنما نحن إخوان، وقوَّام بأمر الله عز وجل، وما يضر الرجل أن يلي عليه أخوه في دينه لا في دنياه، بل يعلم الوالي أنه يكون أدناهما إلى الفتنة، وأوقعهما في الخطيئة لما يعرض له من الهلكة، إلا من عصم الله عز وجل وقليل ما هم.

وسواء كان الأمر ذلك أو ذاك، فإن مسْلك خالد في كلتا الحالتين هو الذي يعنينا، ولقد كان مسلكًا بالغ الروعة، والعظمة، والجلال، ولا أعرف في تاريخ أمة من الأمم موقفًا مثل موقف خالد هذا، فقد كان موقفًا ينبئ بإخلاصه العميق، وصدقه الوثيق، فسواء عليه أن يكون أميرًا أو جنديًا، فإن الإمارة كالجندية، كلاهما سبب يؤدي به واجبه نحو الله عز وجل الذي آمن به، ونحو الرسول ﷺ الذي بايعه، ونحو الدين الذي اعتنقه وسار تحت رايته، وجهده المبذول وهو أميرٌ مُطاع، كجهده المبذول وهو جندي مُطيع، ولقد هيأ له هذا الانتصار العظيم على النفس، كما هيَأه لغيره طراز الخلفاء الذين كانوا على رأس الأمة المسلمة في ذلك الوقت.

عبرة

يا شباب، لله در ابن الوليد حين عزل وهو في أوج انتصاره، فما ترك العزل في نفسه أثرًا، فهو لا فرق عنده أن يكون قائدًا عامًا، أو قائدًا مرؤوسًا، أو جندي من عامة الجيش، فهذه والله العظمة الإنسانية في أبهى مشاهدها، فلقد كان مسلكًا بالغ الروعة والعظمة والجلال من سيف الله المسلول، والله يا إخوة إنني أتعجب من هذا القدر العظيم من الإخلاص الذي لا يخطر على قلب بشر، فخالد رضي الله عنه يجاهد في سبيل الله عز وجل لا من أجل منصب ولا جاه ولا رئاسة ولا زعامة.

نتعلم أيضًا من هذين العملاقين دروسًا بالغة الأهمية في حياتنا العملية، فهذا أبو عبيدة يؤثره الفاروق بالولاية العامة على جبهة الشام، فيزهد بها ويتأخر في إبلاغ خالد بذلك إيثارًا للمصلحة العامة حتى تنقضي المهمة التي خطط لها خالد، ثم يعرض الأمر، وهو يفهم حقيقة الولاية تمامًا، فهي مغْرم وليست بمغنم، والسعيد من لم يبتل بها، لكن من ابتُليَ بها فعدل ونصح فهي خير في الدنيا وثواب جزيل في الآخرة، وخالد يلوم أخاه أبا عبيدة أن أسرَّ في نفسه هذا التكليف ولم يبلغه إياه في حينه، وهو لا يريد أن يتقدم أبا عبيدة بشيء إلا أن يكون ذلك تكليفًا من قبل الخليفة فالطاعة إذًا واجبة على الجميع.

وهنا تبدو لنا روح الطاعة والتجرد من حظ النفس لدى هؤلاء الأماجد الكرام، فقد وجه أبو بكر خالدًا لأعنف حروب الردة، فتوجه لها طائعًا مختارًا، وكان كذلك في حروب العراق، حتى إذا كان من فتح المدائن قاب قوسين أو أدنى صدر له أمر بالتوجه إلى الشام فسلم طائعًا مختارًا، وأبو عبيدة بعد أن كان أمير الشام وقائد جيوشها يصبح قائد جيش واحد فيسلم الأمر لخالد طائعًا مختارًا، ثم يرجع بعد ذلك أميرًا عامًا فلا يزيد شيئًا أمام نفسه، بل يتقبل التكليف ببطءٍ ويعلن زهده في الدنيا ومناصبها، ويشير إلى خطورة المسؤولية إلا على من عصمه الله، ثم يعود خالد جنديًا مطيعًا لأبي عبيدة يتوجه حيثما وجهه.

وما هذه إلا لمحات موجزة عن تشخيص السمو الأخلاقي الذي بلغه هذا العملاقان، ولو تعمق الإنسان في طريقة العمل بينهما لخرج بنتائج باهرة، تُعتبر مُثلًا عالية للأسوة الحسنة، ولو أن هذه التصرفات من تثبيت أمير ثم عزله وتثبيت آخر ثم تكليف الأول بالمسؤولية، لو أن ذلك تم بين أبناء الدنيا وطلاب الجاه لَوجدنا الغيرة تبرز قرونها، والحسد يرسل لهيبه فيحرق الأخضر واليابس، ولسادت الفوضى وعم الفساد، لأن القائد الأخير سيتكبَّر عن استشارة القائد الأول، والقائد الأول سيكتم خبرته ومواهبه حتى لا تكون سببًا في نجاح القائد الثاني، والنتيجة تكون في انحدار مستوى العمل وخسارة الأمة، وقد وقعت الأمة الإسلامية في كثيرٍ من أطوار تاريخها ضحيةً لمثل هذه الأمراض الخلقية، منذ أن ذهب ذلك الرعيل الأول الذي تغذى بغذاء الإيمان المحمدي، وآثر الآخرة على الدنيا.

روائع من حب الصحابة

جندية الصديق الرفيعة

يظهر الحب العميق الذي سيطر على قلب أبي بكر لرسول الله ﷺ في الهجرة، كما يظهر حب سائر الصحابة أجمعين في سيرة الحبيب المصطفى ﷺ، وهذا الجيل الرباني كان نابعًا من القلب وبإخلاص، لم يكن حبَ نفاقٍ أو نابعًا من مصلحةٍ دنيوية أو رغبةٍ في منفعة أو رهبةٍ لمكروهٍ قد يقع، ومن أسباب هذا الحب لرسول الله ﷺ صفاته القيادية الرشيدة، فهو يسهرليناموا، ويتعب ليستريحوا، ويجوع ليشبعوا، كان يفرح لفرحهم، ويحزن لحزنهم، فمن سلك سنن الرسول ﷺ مع صحابته في حياته الخاصة والعامة، وشارك الناس في أفراحهم وأتراحهم، وكان عمله لوجه الله، أصابه هذا الحب إن كان من الزعماء أو القادة أو المسئولين في أمة الإسلام.

فالصديق رضي الله عنه يعلم أن معنى الصحبة في طريق الهجرة أنه سيكون وحده برفقة رسول الله ﷺ بضعة عشر يومًا على الأقل، وهو الذي سيقدم حياته لسيده وقائده وحبيبه المصطفى ﷺ، فأي فوزٍ في هذا الوجود يفوق هذا الفوز؟ أن يتفرد الصديق وحده من دون أهل الأرض، ومن دون الصحابة جميعًا برفقة سيد الخلق وصحبته كل هذه المدة.

وتظهر في هذه الرحلة المباركة معاني الحب في الله في خوف أبي بكر رضي الله عنه وهو في الغار من أن يراهما المشركون ليكون الصديق مثلًا لما ينبغي أن يكون عليه جندي الدعوة الصادق مع قائده الأمين، حين يحدق به الخطر من خوفٍ وإشفاق على حياته، فما كان أبو بكر ساعتئذٍ بالذي يخشى على نفسه الموت، ولو كان كذلك لما رافق رسول الله ﷺ في هذه الهجرة الخطيرة وهو يعلم أن أقل جزائه القتل إن أمسكه المشركون مع رسول الله ﷺ، ولكنه كان يخشى علي حياة الرسول الكريم ﷺ وعلى مستقبل الإسلام إن وقع لرسول الله ﷺ في قبضة المشركين.

إن الإيمان الذي يصل إلى حد بذل النفس والمال وكل الإمكانات من أجل نصر القضية التي يؤمن بها صاحبها لا بُدَّ أن يصل إلى نتائج إيجابية فعالة، فكيف إذا كانت هذه الجهود تبذل لنصرة دين الله تعالى، والحال أن من نصر هذا الدين كان الله تعالى معه بنصره وحمايته، أخرج الإمام مسلم عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: خرج أبي مع أبي بكر فقال: حدثني يا أبا بكر كيف صنعتما ليلة سريت مع رسول الله ﷺ؟

قال: نعم، أسرينا ليلتنا كلها، حتى قام قائم الظهيرة، وخلا الطريق لا يمر فيه أحد، حتى رُفعت لنا صخرة طويلة لها ظل لم تأتِ عليه الشمس بعد، فنزلنا عندها، فأتيت الصخرة فسويت بيدي مكانًا ينام فيه رسول الله ﷺ في ظلها، ثم بسطت عليه فروة، ثم قلت: نم يا رسول الله، وأنا أنفض لك ما حولك فنام.

وخرجتُ أنفض ما حوله، فإذا أنا براعي غنم مقبل إلى الصخرة يريد منها الذي أردنا، فلقيته فقلت: لمن أنت يا غلام؟ فقال: لرجلٍ من أهل المدينة، قلت: أفي غنمك لبن؟ قال: نعم، قلت أفتحلب لي؟ قال: نعم، فأخذ الشاة فقلت له: انفض الضرع من الشعر والتراب والقذى، فحلب لي في قدحٍ معه كُثْبةٍ من لبن، قال: ومعي إداوة أرتوي فيها للنبي ﷺ، ليشرب ويتوضأ.

قال: فأتيت النبي ﷺ وكرهت أن أوقظه من نومه، فوافقته استيقظ، فصببت على اللبن من الماء حتى برد أسفله، فقلت: يا رسول الله اشرب من هذا اللبن، قال: فشرب حتى رضيت، ثم قال: ألم يأن الرحيل؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: فارتحلنا بعد ما زالت الشمس.

عبرة

يا أيها الإخوة الكرام، ما الذي يحمل أبا بكر على الفرح بالصحبة في تلك الرحلة الشاقة الخطرة؟! إنه الإيمان القوي بالإسلام، وما دام وجود هذا الدين وقيامه مترتبًا على سلامة النبي ﷺ، وتمكنه من الدعوة فلم لا يستسهل أبو بكر كل صعبٍ من أجل حماية النبي ﷺ؟ ولمَ لا يبكي فرحًا بصحبته والفوز بخدمته والدفاع عنه؟!

في هذا الموقف تلخيص لبعض أحداث رحلة الهجرة النبوية، وهي تُبين شيئًا مما قام به أبو بكر رضي الله عنه في خدمة النبي ﷺ خلال هذه الرحلة، ولئن بيَّن أبو بكر شيئًا من ذلك فإن ما سكت عنه أعظم، فكم هي الأعمال الصالحة التي اكتسبها أبو بكر خلال تلك الرحلة المباركة ورُفعت له!

إن الإيمان العميق، والعقيدة الراسخة، يجعلان صاحبهما أقدر على تحمل التبعات، والنهوض بأعباء الرسالة التي آمن بها، إنهم بالإيمان صبروا على أذى المشركين في مكة، وبالإيمان شقوا طريقهم في المدينة، وتحملوا لأواءها حتى قامت على أكتافهم أمة الإسلام.

لقد هاجر المسلمون من مكة وقلوبهم مملوءة باليقين بوعد الله لهم، وكانت المحنة التي يعيشون فيها تضاعف الإيمان في قلوبهم، لأنهم يعلمون أن هذا الطريق لا يمكن أن يكون ممهدًا سهلًا، فحياة الأنبياء كلها مشقات، وحياة المصلحين كلها عقبات، وما داموا قد عزموا على السير في مثل طريقهم، فلا بُدَّ لهم أن يتحملوا مثل تحملهم حتى تكون العاقبة لهم، وبهذا الإيمان العميق هاجر المسلمون من مكة، وبهذه العقيدة الراسخة توجهوا إلى المدينة، وكانت الأوضاع هناك قد تهيأت لقبول الدين الذي حمله إليهم المهاجرون.

شدة حب الصحابة لرسول الله

لقد برهن الأنصار رضوان ربي عليهم في شتى مواقفهم على أن إيمانهم برسول الله ﷺ وبرسالته كان إيمانَ حبٍ أفعمت به قلوبهم، وبادلهم رسول الله ﷺ هذا الحب بحبٍ أجل وأعظم، عم به رجالهم ونساءهم شيبهم وشبابهم، غلمانهم وأطفالهم، فقال لهم: يا معشر الأنصار والله وأنا أحبكم، ويعلم الله أن قلبي يحبكم، وأنتم من أحب الناس إلي.

ووشائج الإيمان إذا قامت على الحب كانت صورة للنفس الإنسانية في أصفى صفائها، وصورة للفطرة البشرية في أنقى نقائها، تعجز عظائم الأحداث عن فصم عراها، وهكذا كان إيمان الأنصار حبًا مؤمنًا، وكان حبهم إيمانًا مؤثرًا، فاستحقوا من دون سائر الناس الاستئثار برسول الله ﷺ وحياته ومثواه.

ضيفنا في هذه السطور، رجل سطَّر التاريخ له في أنصع صفحاته مآثرَ خصه الله بها دون غيره من الناس؛ تفضلًا منه ونعمة، فهو الأنصاري الذي شرفه الله تعالى بنزول نبيه ﷺ ضيفًا في بيته لمدة سبعة شهور، سعد في خلالها بخير ما يسعد به إنسان في الوجود، ونال من تخليد الذكر ما لم ينله أهل الكرم والسخاء قاطبة.

هل يستطيع إنسان في هذه الدنيا أن يتصور أو يتخيل مدى الفرحة التي يشعر بها من رأى النبي ﷺ ولو مرة واحدة في منامه؟! فكيف بمن رآه حال اليقظة؟ فكيف بنا ونحن نريد أن نصف مشهدًا لرجلٍ نزل الرسول الأعظم ﷺ في ضيافته؟ نحن على موعدٍ مع الشهيد الكريم أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه.

كان من لطائف حب الأنصار لرسول الله ﷺ، حب أبي أيوب له حينما تحين آثاره لبركاته في الطعام، فيقول أبو أيوب: كنا نصنع لرسول الله ﷺ طعامًا، فإذا جيء بفضله سأل أبو أيوب عن موضع أصابع رسول الله ﷺ، فيتتبع موضع أصابعه، هو وأم أيوب يبتغيان البركة بذلك.

ففي يوم صنع له طعامًا فيه ثوم، فرده رسول الله ولم يرَ ليده فيه أثرًا، فسأل عن موضع أصابع رسول الله ﷺ، فقيل له لم يأكل منه شيء، ففجئته فزعًا، وقال: أحرام هو يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: لا، ولكني أكرهه، فأنا رجل أناجي ربي، فأما أنتم فكلوه، فقال أبو أيوب: فإني أكره ما تكره يا رسول الله.

عبرة

يا أيها الإخوة الكرام، إن ما قام به أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه من إكرام الرسول ﷺ إلى هذا الحد يُعد من مواقفه المأثورة رضي الله عنه، وكونه ﷺ يُفضل من الطعام دليلًا على أن السنة أن يأكل الإنسان قدر طاقته من الطعام، وأن ذلك لا يعد جحودًا للنعمة ما لم يكن في ذلك سرف أو خيلاء، وما جاء في هذا الموقف من تبرك أبي أيوب رضي الله عنه بموضع أصابع النبي ﷺ من الطعام مثلٌ من حب الصحابة الكبير لرسول الله ﷺ واعتقادهم لفضله العظيم.

يا شباب، من علامات الحب أن تنفعل لمحبوبك حتى تأتمر من غير أمرٍ وتنتهي من غير نهي، ولكن بشرط وهو: أن تلاحظ تصرف محبوبك، فما كان يأتيه ويحبه فقد صارً أمرًا من غير أمر، وما كان يكرهه ويعافه ويجافيه فأنت كذلك تكرهه وتأباه ولو لم ينهك عن ذلك، هذا الذي قصدته، فإذا رأيت محبوبك يقبل على شيءٍ ما، ولكنه لم يأمرك ولم يقل لك: افعل كذا، فمجرد إقباله على هذا الشيء تعتبره أمرًا في حقك، وإن لم يأمرك حبيبك، يا شباب هذه علامة المحب أن يراقب أحوال محبوبه، فإذا رأى محبوبه يأتي الفعل مرارًا وتكرارً فعله.

أجيبوا طلب رسول الله

قال ﷺ: إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم، ونحن على موعدٍ مع رجلٍ لا يملك جمال الخلقة، ولكن يمتلك جمال الخُلق، إنه ليس جميل المظهر، ولكنه نقي السريرة، يحمل إيمانًا في قلبه أشد رسوخًا وثباتًا من الجبال الرواسي، إنه الصحابي الجليل جُليبيب الأنصاري رضي الله عنه، إن المقاييس البشرية القاصرة تختلف تمامًا عن المقاييس الإلهية، فقد يكون الإنسان مذمومًا في أعين الناس، وهو عند الله من أفضل الناس.

وها هو النبي ﷺ يشهد لجليبيب بأنه صاحب مكانة عظيمة عند الله عز وجل، فعن أنس قال: كان رجل من أصحاب النبي ﷺ يقال له جليبيب في وجهه دمامة، فعرض عليه رسول الله ﷺ التزويج، قال: يا رسول الله إذًا تجدني كاسدًا، فقال رسول الله: غير أنك عند الله لست بكاسد.

تلك هي المقاييس الإلهية التي تسقط أمامها كل مقاييس البشر أصحاب العقول القاصرة والملكات المحدودة. ففي ذات يومٍ قال رسول الله ﷺ لجليبيب: ألا تتزوج يا جليبيب؟

فقال: ومن يزوجني يا رسول الله وأنا شاب فقير لا نفقة عندي، ولا صداق؟

فقال رسول الله: أنا أطلب لك الزوجة الصالحة، والله تعالى يغنيكما من فضله.

فقال رسول الله لرجل من الأنصار: يا فلان زوجني ابنتك فلانة.

فاستطار الرجل فرحًا بما سمع وقال: نعم يا رسول الله، ونعم عين زوج رسول الله، وأكرم بك يا رسول الله من صهر، فقال رسول الله: لا أريدها لنفسي، قال الرجل: لمن تريدها يا رسول الله؟ قال رسول الله: لجليبيب، فقال الرجل: أناظرني يا رسول الله حتى أستشير أمها، فأنا لا أريد أن أقطع في أمرٍ كهذا دونها.

فمضى الرجل إلى بيته كاسف البال حزين النفس، فقد كان يعلم بأن زوجته لا ترضى بفتى مثل جليبيب زوجًا لبنتها، وكان في نفس الوقت لا تطيب نفسه بأن يرد طلبًا لرسول الله، مهما كان مطلبه عزيزًا، فلما بلغ البيت، نادى زوجته وقال: يا أم فلانة، فأقبلت عليه.

فقال: إن رسول الله ﷺ يخطب ابنتك، فقالت: ابنتي، رسول الله ﷺ يريد ابنتي يا لسعدها! نعم نزوج رسول الله ﷺ، وهل فوق ذلك الشرف من شرف؟

فقاطعها الرجل وقال: ولكنه لا يريدها لنفسه، قالت: فلمن يريدها إذًا؟ قال الرجل: لجليبيب، فقالت: لجليبيب؟! لا ورب الكعبة، لا أزوجها من جليبيب، فقال الرجل: ماذا أقول لرسول الله ﷺ؟ فقالت: قل له ما تشاء، تقدم له ما يحضرك من عذر، فما أنا بالتي ترضى جليبيًا زوْجًا لابنتها ولا صهرًا لها.

حاول الرجل أن يسترضي امرأته ويستلينها حتى لا يرفض طلب رسول الله، والزوجة تشتد على زوجها وتصر على الرفض، فلما يئس الرجل من إقناعها، وهمَّ بالمضي إلى رسول الله ﷺ لإبلاغه القرار؛

بادرت إليهما ابنتهما، وكانت قد سمعت بعض الحديث الذي بينهما، وقالت من خطبني منكم؟ فقالت الأم: خطبك النبي ﷺ لجليبيب، وقد رفضت أن أزوجك منه.

فقالت الفتاة: ويحكم! أتردون على رسول الله ﷺ أمره؟ والله ما أنا بالتي ترفض طلبًا لرسول الله، أجيبوا طلب رسول الله ﷺ، فالنبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، أعطوني لجليبيب، وثقوا بأن الله لن يضيعني أبدًا، فسكتت الأم على مضض.

ومضى الرجل إلى رسول الله وقال: أنت وما تريد يا رسول الله، زوج ابنتنا من جليبيب، فانبسطت أسارير رسول الله ﷺ، ودعا للبنت وقال: اللهم صب عليها الخير صبًا صبًا، ولا تجعل عيشها كدًا كدًا، وزوجها من جليبيب.

عبرة

يا شباب، كان جليبيب رجلًا فقيرًا معدومًا، عليه أسمال بالية، جائع البطن، حافي القدمين، مغمور النسب، لا جاه، ولا مال، ولا عشيرة، ليس له بيت يأوي إليه، ولا أثاث في البيت، ولا متاع، يشرب من الحياض العامة بكفيه مع الواردين، ينام في المسجد، وسادته ذراعه، فراشه الأرض، هل هناك أقل من ذلك؟ أي إنه إنسان من الطبقة الدنيا، لا بيت ولا أهل ولا مال ولا حرفة.

لقد طلب رسول الله ﷺ الفتاة التي يريد جليبيب زواجها، فأرسل النبي ﷺ إلى والديها يعرض عليهما هذه الرغبة، وكأنهما لم يرغبا في ذلك لدمامته وفقره كما ذكرنا، لكن الفتاة كانت مؤمنة فاضلة عاقلة، فساءها موقف أبويها ورغبت في الزواج منه، وتلت عليهما قول رب العزة: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا) (الأحزاب: ٣٦)، وهكذا يجب أن يكون المسلم.

المنحة بعد المحنة

ضيفنا في هذه السطور شخصية من الشخصيات العالمية الهامة، نهاب الخوض في أعماقها، لأن دواعي العظمة فيها مجهولة لدينا إلى حدٍ كبير، إن عرفنا منها جانبًا فاتتنا جوانب لم نلقِ إليها بالًا؛ لجهلنا بكيفية البحث إلى حدٍ كبير في مثل هذه الشخصيات، وعدم توفر الوسائل التي تعيننا على معرفة المخبوء منها في طوايا النفس والوجدان، ولكن ما لا يُدرك كله لا يترك جله، فعلينا إذًا أن نتتبع آثار العظمة في هذا الإنسان، وجوانبها المتألقة.

نحن على موعدٍ مع إنسان لم يكن عظيمًا فقط، بل هو أعظم إنسانٍ عرفته الإنسانية بعد أنبياء الله عليهم السلام، إنه ليس نبيًا معصومًا، ولكنه إنسان عظيم اجتمعت فيه كل أوصاف العظمة الإنسانية المهذبة، ومؤمن جمع في أقواله وأفعاله وأحواله كلها شعب الإيمان مجتمعة، نحن نلتقي مع الصديق أبي بكر رضي الله عنه، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد الرائع للصديق رضي الله عنه في حب الصديق للرسول الكريم ﷺ.

إن سنة الابتلاء ماضية في الأفراد والجماعات والشعوب والأمم والدول، وقد مضت هذه السنة في الصحابة الكرام، وتحملوا رضوان الله عليهم من البلاء ما تنوء به الرواسي الشامخات، وبذلوا أموالهم ودماءهم في سبيل الله، وبلغ بهم الجهد ما شاء الله أن يبلغ، ولم يسلم أشراف المسلمين من هذا الابتلاء، فلقد أوذي أبو بكر رضي الله عنه وحثى على رأسه التراب، وضُرب في المسجد الحرام بالنعال، حتى ما يعرف وجهه من أنفه، وحُمل إلى بيته في ثوبه ما بين الحياة والموت.

فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: لما اجتمع أصحاب النبي ﷺ وكانوا تسعة وثلاثين رجلًا، ألح أبو بكر الصديق رضي الله عنه على الرسول ﷺ في الظهور وعدم الاختفاء، فقال ﷺ: يا أبا بكر إنا قليل، فلم يزل أبو بكر يلح على إظهار الحق حتى وافقه النبي ﷺ على ذلك.

وظهر رسول الله والمسلمون معه، وتفرقوا في نواحي المسجد كل رجلٍ في عشيرته، وقام أبو بكر خطيبًا في الناس – فكان رضي الله عنه أول خطيبٍ دعا إلى الله تعالى وإلى رسول الله ﷺ – فثار عليه المشركون، وثاروا على المسلمين معه، فضربوا أبا بكرٍ ضربًا شديدًا، حتى إن عتبة بن ربيعة دنا منه فجعل يضرب وجهه بنعلين مسقوفتين، ثم يجثو على بطن أبي بكر حتى ما يُعرف وجهه من أنفه.

وعندما جاء بنو تيم قوم الصديق، وأجلوا عنه المشركين، وحملت بنو تيم أبا بكرٍ في ثوبٍ حتى أدخلوا منزله وهم لا يشكون في موته، ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة ثأرًا لأبي بكر.

أما أبو بكر فمغمى عليه وهو لا يتكلم، ورجع إليه قومه، فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر فما تكلم إلا آخر النهار، ترى بما تكلم أبو بكر به؟ قال: ما فعل رسول الله ﷺ، فسبه قومه وعذلوه إذ هم مشركون ثم تركوه.

وقالوا لأمه أم الخير: انظري أن تطعميه شيئًا أو تسقيه إياه، فقامت أمه إليه تلح عليه أن يطعم شيئًا وهو يقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فتقول: والله يا بني ما لي من علمٍ بصحابك، فقال: اذهبي إلى أم

جميل فاطمة بنت الخطاب رضي الله عنها فسليها، فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله؟ قالت أم جميل: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله، ولكن إن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك فعلت، قالت: نعم.

فمضت أم جميل إلى أبي بكر فوجدته صريعًا، فقالت والله إن قومًا نالوا هذا منك لأهل فسقٍ وكفر، وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم، قال الصديق: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالت أم جميل: هذه أمك تسمع. قال: فلا شيء عليك منها. قالت: إنه سالم صالح بحمدٍ من الله. قال الصديق: أين هو الآن؟ قالت: في دار الأرقم بن أبي الأرقم. قال الصديق: فإن لله عليَّ ألا أذوق طعامًا ولا شرابًا حتى آتي رسول الله ﷺ.

لقد أحب الصديق رسول الله حبًا يفوق حب النفس والمال والأهل والولد، وقد انتظروا حتى هدأت الرجل، وسكن الناس، ثم خرجت أمه وأم جميل يتكأ عليهما، حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ، فلما رآه نبي الرحمة ﷺ قبله وأكب عليه المسلمون، ورق له رسول الله ﷺ رقة شديدة لما يرى منه، فقال أبو بكر: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي، ثم قال: يا رسول الله، هذه أمي برت بولدها، وأنت مبارك، فادع الله لها وادعها إلى الله أن يستنقذها من النار، فدعاها ودعا لها رسول الله ﷺ، ودعاها إلى الإسلام فأسلمت.

عبرة

يا شباب، إن هذا الموقف العظيم في طياته دروس وعبر لكل مسلم حريص على الاقتداء بهؤلاء الصحب الكرام منها: إصرار الصديق على الظهور بدعوة الإسلام وسَط الطغيان الجاهلي؛ رغبة في إعلام الناس بذلك الدين الذي خالطت بشاشته القلوب، رغم علمه بالأذى الذي قد يتعرض له وصحبه، لقد أشرب قلبه حب الله ورسوله أكثر من نفسه، ولم يعد يهمه بعد إسلامه إلا أن تعلو راية الإسلام، ويرتفع النداء: لا إله إلا الله محمد رسول الله في أرجاء مكة حتى لو كان الثمن حياته، وكاد أبو بكر فعلًا أن يدفع حياته ثمنًا لعقيدته وإسلامه.

لقد تميز الصديق رضي الله عنه بالجرأة والشجاعة، فقد كان لا يهاب أحدًا في الحق، ولا تأخذه لومة لائم في نصرة دين الله والعمل له والدفاع عن رسول الله ﷺ، فقد حرص رضي الله عنه على إعلان الإسلام وإظهاره أمام الكفار، وهذا يدل على قوة إيمانه وشجاعته، فقد تحمل الأذى العظيم حتى إن قومه كانوا لا يشكون في موته.

يا شباب، رجل بين الحياة والموت ينسى نفسه، ويذهل عن كل ألم يُمض جسده ليتذكر شيئًا واحدًا فقط هو السؤال عن حال رسول الله ﷺ، ثم يرفض تناول الطعامٍ والشراب مع إلحاح أمه عليه حتى يروي غليله ويطفئ لهيب شغاف قلبه بالاطمئنان على سلامة رسول الله ﷺ، واكتحال عينيه برؤيته، إن الآلام الجسدية، وإن كانت مبرحة مضنية فإنها لا تساوي شيئًا أمام حرقة القلب بفقد أعز شيءٍ يملك حبه ويهيمن على مشاعره، ولئن عجزت الأقلام وكلت القرائح عن تصوير الدرجات العلى من الحب فإن موقف أبي بكر رضي الله عنه هذا يُجسم القمة في هذه الدرجات، وإنني لأجدني في موقفٍ مثل هذا عاجزًا عن تصوير كل ما يجول في خاطري ومشاعري من جلال هذا المشهد المثير.

يظهر هنا أيضًا بر الصديق بأمه وحرصه على هدايتها في قوله لرسول الله ﷺ: هذه أمي برت بولدها وأنت مبارك فادعها إلى الله وادع الله لها عسى أن يستنقذها بك من النار، إنه الخوف من عذاب الله والرغبة في رضاه وجنته، ولقد دعا رسول الله ﷺ لأم أبي بكر بالهداية فاستجاب الله له، وأسلمت أم أبي بكر وأصبحت من ضمن الجماعة المؤمنة المباركة التي تسعى لنشر دين الله تعالى، ونلمس رحمة الله بعباده ونلحظ من خلال الحدث: قانون المنحة بعد المحنة.

الفتى الصادق

المرء يعرف بأصغريه؛ قلبه ولسانه، فالقلب مشكاة الأنوار، ومعدن الأسرار، وينبوع الحكمة إذا ظل على فطرته النقية التي فطره الله عليها، واللسان ترجمانه، يُعبر عما يكنه، ويضمره بصدقٍ ووفاء، ولا يخذله في أي موقفٍ من المواقف، لأنه يندفع إلى الحق من خلال ما في القلب من إيمانٍ بالله ويقينٍ صادقٍ بقضائه وقدره، فيلهج بما عليه ضميره في شجاعةٍ أدبية، ولا يخشى في الله لومة لائم، ولا يبالي أرضيَ الناس أم سخطوا، ومن أصحاب النبي ﷺ صغار صدقوا الله ورسوله في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم كلها، وكانوا أبطالَ عقيدةٍ وجهاد، ينصرون الله ورسوله في جميع المواطن، ولا يدخرون وسعًا في إحقاق الحق، وإبطال الباطل.

إن الولاء والبراء أصلٌ عظيم من أصول العقيدة، ولقد أوجب الله علينا موالاة المؤمنين والبراءة من الشرك والمشركين: (لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ) (آل عمران: ٢٨).

ضيفنا في هذه السطور، فتى دخل الإسلام صغيرًا وعمره لم يتجاوز عشرة أعوام، تغلغل الإيمان في أعماق قلبه، ورسخت جذوره وارتفعت أغصانه حتى بلغت عنان السماء، وها هي شجرة الإيمان تثمر له الخشوع والخوف والحب والرجاء والإنابة والتقوى، فلقد كان الفتى عابدًا زاهدًا، عاش حياةً هانئة مطمئنة، كيف لا هو الذي امتلأ قلبه حبًا لله ورسوله، نحن على موعدٍ مع الصحابي الجليل، والفتى المؤمن عمير بن سعيد رضي الله عنه.

ونحن في هذه السطور نتعايش بقلوبنا مع مشهدٍ من أعظم مشاهد الوفاء والحب، ضرب في هذا العملاق مثل عظيم في الولاء والبراء لله ولرسوله وللمؤمنين، فتعالوا بنا لنطوف بين صفحات التاريخ لنتعرف على هذا المشهد الجليل عن قرب، لنرى ما يفعل الإيمان في القلوب.

لقد نشأ الفتى عمير بن سعد رضي الله عنهما يتيمًا، وتجرع مرارة اليُتم والفقر منذ نعومة أظفاره، فقد مات أبوه وهو ما زال صبيًا صغيرًا، ولم يترك له شيئًا من حطام الدنيا، وتزوجت أمه الجلاس بن سويد رضي الله عنه، وكان من أثرياء الأوس، فاحتضن الجلاس عُميرًا واعتبره ابنًا له، وأغدق عليه من كل صنوف الخير حتى جعله ينسى أنه يتيم، وتمر الأيام وتمضي الأعوام وما زالت المحبة تزداد بينهما شيئًا فشيًا.

وفي السنة التاسعة من الهجرة علم النبي ﷺ أن الروم البيزنطيين يستعدون للقيام بحملة كبرى ضد عاصمة الإسلام المدينة المنورة لضرب دعائم الإيمان والتوحيد، فعزم رسول الله ﷺ على ضرب التكتل الروماني قبل أن يتحرك لغزوة المدينة، وطلب النبي ﷺ من الصحابة أن يتبرعوا كي يعد الجيش، وكان الوقت صيفًا ولم يحصد الناس بعد، وكان الناس في عسرٍ كبير وقلة من الأموال.

رغم ذلك تسابق المسلمون ليتبرعوا بكل ما يستطيعون عليه، وكان عمير في المسجد يرى تسابق المسلمين وتضحيتهم، وكانت تلك المشاهد التاريخية التي رآها عمير أمام عينيه من البذل والإنفاق والتضحية تُعرض أمام عينيه، وكأنها خيال لا يحدث إلا في دنيا الأحلام، وما زالت تلك المشاهد يراها بعيني قلبه حتى عاد إلى بيته وهو يسأل نفسه ويتعجب من تباطؤ الجلاس عن البذل رغم ما

يملكه من مال، وذهب الفتى ليُخبر عمه الذي قام على تربيته بما حدث، كي يجعله يساهم في إعداد الجيش، وقص عليه أخبار الصحابة، وتسابقهم نحو الخير، لكن الجلاس رد عليه وقال: إن كان محمد صادقًا فيما يدعيه من النبوة فنحن شر من الحمير.

فاستغرب الفتى مما سمع، فما كان يظن أن رجلًا له عقل الجُلاس وسنه يقول هذا الكلام، فهذه الكلمة تخرج الإنسان من الإيمان إلى الكفر، ماذا يفعل عمير مع هذا الكلام؟ أيذهب ويقول للنبي ﷺ، ويفضح الرجل الذي بمنزلة الوالد، أم يتستر عليه وهذه خيانة لله ورسوله؟ لقد رأى أن في السكوت عن الجُلاس والتستر عليه خيانة لله ورسوله، وإضرارًا بالإسلام الذي يكيد له المنافقون ويأتمرون به، فقرر الفتى أن يذهب إلى المسجد ليقول للنبي ﷺ، فأخبر النبي ﷺ بما سمع من الجلاس بن سويد، فبعث النبي ﷺ إلى الجلاس.

وما هو إلا قليلٌ حتى جاء الجُلاس فحيًّا رسول الله ﷺ وجلس بين يدي النبي ﷺ، وقال رسول الله له: ما سمعه من عمير، فقال الجُلاس: كذب عليك يا رسول الله، وافترى علي، فما تفوهت بشيء من ذلك، وقد جعل هذا الكلام الناس يتهامسون أيهما الصادق، وأيهما الكاذب، التفت النبي ﷺ فإذا الفتى احتقن وجه، وكان يبكي ويقول اللهم أنزل على نبيك الحق، فقال الجلاس: يا رسول الله ﷺ إن ما ذكرت هو الحق، وإن شئت تحالفنا، وإني أحلف بالله أني ما قلت شيئًا مما نقله لك عمير.

فنزل الوحي على النبي ﷺ وهو جالس حتى زال أثر الوحي عن النبي ﷺ، وقد نزل قول الله تعالى: (يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ۚ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ۚ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ ۖ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ.) (التوبة: ٧٤).

فارتعد الجلاس من هول ما سمع، ثم قال: بل أتوب يا رسول الله، قررها ثلاث، لقد صدق عمير فيما قال، وكنت أنا كاذب، أسأل الله أن يقبل توبتي، جعلت فداك يا رسول الله، وهنا توجه النبي ﷺ إلى الفتى وكان يبكي من الفرح، فمد الرسول يده وأمسك أذنه برفق، وقال: يا عمير وفت أذنك ما سمعت يا غلام.

عاد الجُلاس إلى حظيرة الإسلام وحسُن إسلامه، وقد عرف الصحابة صلاح حاله مما كان يغدقه على عميرٍ من بر، وقد كان يقول كلما ذكر عمير: جزاه الله عني خيرًا، فقد أنقذني من الكفر، وأعتق رقبتي من النار.

عبرة

يا أيها الإخوة الكرام، تفتَّح قلب عمير للإيمان، وتمكَّن الإيمان من قلبه، وألفى الإسلام في نفسه الصافية الشفافة تربة خصبة فتغلغل فيها، فإذا به في هذه المشكلة غلام في سن العاشرة حُمِّل ما لا يطيق، فإن سكت على عمِّه وتستر عليه فقد خان الله ورسوله، لأن النبي يحسبه مؤمنًا، بينما هو منافق وليس مؤمنًا، بل كافرٌ محسوب على النبي أنه من أصحابه، وإن أذاع هذا الكلام كان عقوقًا لعمه، وهو الذي أنقذه من الفقر واليتم، وأكرمه، وأطعمه، وألبسه، ورعاه، وقدم له كل ما يحتاج، إنه موقف عسير وخطير وشديد، وإنه لصراع عنيف، وكان على الفتى أنْ يختار بين أمرين، أحلاهما مُرٌّ، إن أبلغ النبي فقد عقَّ عمه، وإن سكت عنه فقد خان النبي ﷺ.

يا شباب، كان الصدق نجاة للمؤمن، بينما كان الكذب مهلكة للمنافقين، فلقد كان الصحابة رضي الله عنهم يتلاقون على الفضائل ويتعارفون بها، فإذا أساء أحدٌ السيرة وحاول أن ينفرد بمسلكٍ خاطئ، بدا بعمله هذا كالأجرب بين الأصحاء، فلا يطيب له مقام بينهم حتى يبرأ من علته، وكانت المعالم الأولى للجماعة المسلمة في عهد النبي صدق الحديث، ودقة الأداء، وضبط الكلام، أما الكذب والاختلاف والتدليس والافتراء؛ فهي أمارات النفاق، وانقطاع الصلة بالدين، أو هي اتصال بالدين على أسلوب المدلسين والمفترين، أي على أسلوب الكذابين في مخالفة الواقع، والإسلام يوصي أن تُغرس فضيلة الصدق في نفوس الأطفال، حتى يشبوا عليها وقد ألفوها في أقوالهم وأحوالهم كلها.

فلقد كان النبي ﷺ يُعلم الأمهات والآباء أن يُنشؤوا أولادهم تنشئة حسنة يقدسون فيها الصدق، ويتنزهون عن الكذب، ولو أنه تجاوز عن هذه الأمور وحسبها من التوافه الهينة لخشيَ أن يكبر الأطفال وهو يعتبرون الكذب ذنبًا صغيرًا وهو عند الله عظيم، وقد مشت الصرامة في تحري الحق ورعاية الصدق حتى تناولت الشئون المنزلية الصغيرة، فقد يندفع الإنسان إلى الكذب حين يعتذر عن خطأ وقع فيه، ويحاول التملص من عواقبه، وهو فرار من الشر إلى مثله أو أشد، والواجب أن يعترف الإنسان بغلطه، فلعل صدقه في ذكر الواقع وألمه عما بدر منه يمسحان هفوته ويغفران زلته.

ريح الجنة والشهادة

من المؤمنين رجال أسلموا لله حين ظهر الإسلام في سماء يثرب، وتعمَّق في قلوبهم حب الله ورسوله، فصدقوا ما عاهدوا الله عليه، وجاهدوا في الله حق جهاده حتى انتصر الحق على الباطل، ومن هؤلاء الرجال الصحابي الجليل سعد بن الربيع رضي الله عنه ، آثار هذا الصحابي العلم تشهدُ له، وترسم سيادته وجهاده وفراسته، وتبصره بمصالح المسلمين، وهو مع هذه المحاسن لا يعرفه شطرٌ كبيرٌ من محبي الصحابة، وممن يطلعون على تاريخ رجال عصر النبوة، ويعكفون على دراسة حياتهم، وعلى الرغم من أن آثار هذا الرجل باقية إلى الآن تشهد بصدقه، فإننا مقصرون في حقه، وحق كثيرين ممن لهم أنصع الأعمال في التاريخ الإسلامي الزاهر المزهر بالعطاء والمحاسن.

فمنذ أن أعلن سعد بن الربيع رضي الله عنه إسلامه، ومنذ اليوم الأول للإعلان عن قيام الدولة الإسلامية في المدينة، وضع سعد نفسه جنديًا مخلصًا، وأمينًا لله ولرسوله ولدعوة الإسلام، وجاهد في سبيل الله بنفسه وماله وكل ما يملك، وأبلى بلاءً حسنًا في بدر الكبرى، وجاهد جهاد الأبطال، وأظهر من ضروب البسالة والشجاعة ما أدهش الكفار، فلقد قتل أحد رؤوس المشركين وهو رفاعة بن أبي رفاعة.

ومع هذا كله فقد كان سعد رضي الله عنه يؤثر الصمت والهدوء، ويقاتل في سبيل الله، وانتهت غزوة بدر بانتصار المسلمين، ورجعت قريش عقب بدر إلى مكة تجر أذيال الخيبة والمرارة بعد أن مُنيت بهزيمة ساحقة.

وجاءت أحد الطاحنة ودارت رحى معركةٍ ضروب بين الفريقين؛ جند الله، وحزب الشيطان، واستنفر المشركون كل ما في مكنتهم للوصول إلى النبي ﷺ والتخلص منه، ولكن هيهات، فأنى لهم ذلك وقد حفظ الله نبيه ﷺ، وقد أيده بالملائكة من السماء، وبالأنصار في الأرض.

ولا ينسى التاريخ موقف سعد يوم أُحد، فقد كان سعد بن الربيع رضي الله عنه كالسيل العرم يصول ويجول ناحية رسول الله ﷺ، فما رمى رسول الله ﷺ ببصره إلى ناحيةٍ إلا اندفع سعد جهتها يزلزل العدو، عندئذٍ اجتمع نفر من قريش واحتوشوه فأشرعت رماحهم نحوه، فسقط سعد صريعًا وهو يدفع ثمن الجنة ليتخذه الله شهيدًا، ولما انتهت تلك المعركة بدأ النبي صلى الله عليه سلم يتفقد القتلى والجرحى.

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه، قال النبي ﷺ: من ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع؟ فقلت: أنا يا رسول الله ﷺ، فقال لي: يا زيد إن رأيته فأقرئه مني السلام، وقل له: يقول لك رسول الله، كيف تجدك يا سعد؟ قال زيد: فجعلت أطوف بين القتلى، فأتيته وهو بآخر رمق، وبه سبعون ضربة ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم.

فقلت: يا سعد ابن الربيع، إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام، ويقول لك: أخبرني كيف تجدك؟ فقال سعد: وعلى رسول الله ﷺ السلام، قل له: يا رسول الله أجدني أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم إن خلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم عين تطرف، وفاضت نفسه من وقته.

عبرة

يا شباب، في هذا الخبر موقف جليل في الثباتِ والتضحيةِ يقدمه علم من أعلام الأنصار وأحد نقبائهم في بيعة العقبة، سعد بن الربيع رضي الله عنه، فقد ثبت في ميدان المعركة، وكان ممن واجهوا هجوم الأعداء الأخير حتى استشهد رضي الله عنه.

وإن ما في هذا الخبر من إصابته بسبعين إصابة ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم، يدل على قوة احتماله، وأنه كان يقارع القوم وهو مثخن بالجراح حتى سقط على الأرض، ولقد ظل اهتمامه بالنبي ﷺ حتى فاضت روحه مذكرًا قومه الأنصار بوجوب فداء النبي ﷺ بأرواحهم، وأنهم لا عذر لهم إن وصل إليه الأعداء وفيهم رجل على قيد الحياة.

يا شباب، حينما سمع سعد بن الربيع قول النبي ﷺ: من يردهم عنا، وهو رفيقي في الجنة؟ فما لامست هذه الكلمة أسماع سعد حتى انتقل إلى عالم آخر، نعم إنها الجنة، فقد بايعوا رسول الله يوم بايعوه لأجلها، هي تلك التي باعوا لله أموالهم وأنفَسهم ثمنًا لها، فلقد آن وقت الوفاء بالعهد، وقد تراءت الجنة لسعد مزدانة متألقة، وتهيأ لدخولها فانخلع من الدنيا.

مثل من انتصار الإيمان على هوى النفس

إذا تغلغل الإيمان في أعماق قلب المؤمن وملأ عليه كيانه كله، كان أقوى في ثباته وشموخه من الجبل الأشم، لا يزعزعه عن معتقده إرهاب عتلٍ جبار، ولا إغراء خبيثٍ محتال، لأن الإيمان طمأنينة لا يجتمع معها خوف من أحد إلا الله، وسكينة يزداد بها المؤمن إيمانًا مع إيمانه كلما تفكر وتدبر في آيات الله الكونية والقرآنية، ومن المعلوم لدينا أن أصحاب النبي ﷺ كانوا من أكمل الناس إيمانًا، وأصدقهم يقينًا، ولاسيما الذين أتوا حظًا وافرًا من العلم والبطولة وكثرة ملازمتهم للنبي ﷺ، فإن هؤلاء هم الربانيون الذين أعز الله بهم الإسلام وقوى بهم أركانه.

ضيفنا في هذه السطور، صحابي جليل وهبهُ الله شرف الخصال، وحسن الخلال، ومجد الفعال، فهو شريفُ الأعراق، كريم الأخلاق، وهو من بيتٍ في الفضل قديم، وليس له إلا الشَريف نديم، والعزّ صاحب وحميم، هذا الصحابي أحد شهداء الأنصار، وأحد أبطالهم المغاوير، تجودُ علينا حدائق كتب السيرة والتواريخ بثمار جهادية رائعة من سيرته، نحن على موعدٍ مع الصحابي البطل أبو خيثمة مالك بن قيس بن ثعلبة الخزرجي رضي الله عنه.

انطوى هذا الرجل على الإسلام لأنه رأى في كنههِ حقيقة ذاته، ولقيَ في سماحته عناصر فطرته، ووجد مع نبيه ﷺ النجاة فتلاشى في محبته، وأخلص لدينه إخلاص الأصفياء، فكان من السُعداء، وكان من القوم الذين هم في طُرق الخيرات يسارعون: (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ) (المؤمنون: ٨).

أسلم هذا الصحابي مع غيره من رجال الأنصار الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ويؤوون وينصرون بكل تفانٍ وجود وشجاعة، ولا نعلم كيف أسلم في البداية، إذ لا تسعفنا المصادر بمعلوماتٍ تبل الصدى، وتروي الغُلة في هذا المضمار، لكن لا ينسى أحد موقف أبو خيثمة يوم تبوك، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد الرائع من محاسبة النفس.

عن محمدٍ بن إسحاق قال: إن أبا خيثمة رضي الله عنه بعد أن سار رسول الله ﷺ نحو تبوك أيامًا، تأخر عن المسيرة، ثم دخل إلى أهله فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائطه، وقد رشت كل واحدة منهما عريشها، وبردت له فيه ماء، وهيأت له فيه طعامًا، فلما دخل قام على باب العريش فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له، فقال رسول الله ﷺ في الضح أي في الشمس والريح والحر، وأبو خيثمة في ظلٍ بارد، وطعامٍ مهيأ، وامرأة حسناء، وفي ماله مقيم، ما هذا بالنصف - أي بالإنصاف، والله لا أدخل عريشَ واحدةٍ مًنكما حتى ألحق برسول الله ﷺ فهيئا لي زادًا، ففعلتا، ثم قدم جمله فارتحل.

ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تبوك، وقد كان أدرك أبا خيثمة عمير بن وهب الحجمي رضي الله عنهما في الطريق يطلب رسول الله ﷺ فترافقا حتى إذا دانا من تبوك، قال أبو خيثمة لعمير بن وهب: إن لي ذنبًا فلا عليك أن تخلف عني حتى آتي رسول الله ﷺ، ففعل حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ، وهو نازل بتبوك قال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل.

فقال رسول الله ﷺ كن أبا خيثمة، فقالوا يا رسول الله: هو والله أبو خيثمة، فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله ﷺ، فقال رسول الله له: أولى لك يا أبا خيثمة، ثم أخبر رسول الله ﷺ الخبر، فدعا له ففاز

بدعوة الحبيب ﷺ.

عبرة

يا شباب، في هذا الموقف صورة من محاسبة النفس في حال حضور القلب، ويقظة الضمير، فقد رأى أبو خيثمة ما أعدت له زوجتاه من الماء البارد، والطعام، مع الظل المبرد، والإقامة، فتذكر رسول الله ﷺ وما هو فيه من التعرض للشمس والريح والحر، فأبصر وتذكر وتيقظ ضميره وحاسب نفسه، ثم عزم على الخروج، وخرج وحده يقطع الفيافي والقفار حتى التقى بعمير بن وهب رضي الله عنه ولعله كان قادمًا من مكة.

يا سادة، هذه الصورة تبين لنا مثلًا من سلوك المتقين الذين تمر عليهم لحظات ضعفٍ يعودون بعدها أقوى إيمانًا مما كانوا عليه إذا تذكروا وراجعوا أنفسهم، لقد تذكر أبو خيثمة رضي الله عنه رسول الله ﷺ الذي كان في شعوره أنه يحبه أكثر مما يحب نفسه، ولكن ما باله هذه المرة يُؤثر نفسه بالراحة والمتعة، ورسول الله ﷺ يقاسي الشدائد؟! لقد تذكر سريعًا، وخرج لعله يدرك ما فاته، وظل يشعر بالذنب حتى وصل إلى النبي ﷺ في تبوك، وحصل على رضاه وسروره.

جامع القرآن

إن كل جهدٍ مادي أو أدبي، نفسي أو بدني، يبذله المؤمن في سبيل الله مهما يبلغ من ضآلة حجمه فهو محسوب له في حسناته عند الله عز وجل، لا يضيع منه مثقال ذرة حتى الخطوة التي تمشيها قدمه، وحتى جنيه يُنفقه، وحتى الإحساس بالجوع أو العطش أو التعب، فلا عجب أن نرى دينًا كالإسلام يقدم لنا في مرحلة قوته وازدهاره نماذج رائعة للتضحية والبذل والكفاح والجهاد، وبأعدادٍ هائلة تُقدم كل ما تملك من نفسٍ ومال في سبيل الله وهي قريرة العين.

ضيفنا في هذه السطور رجل عظيم كان من أكمل الناس إيمانًا، وأصدقهم يقينًا، كان من الذين أوتوا حظًا وافرًا من العلم والبطولة، كان من هؤلاء الربانيون الذين أعز الله بهم الإسلام وقوى بهم أركانه، رجل غدا بفضل القرآن وتفقهه فيه منارة شامخة للمسلمين، كان الفاروق عمر يقول عنه: من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت لابن ثابت.

نحن على موعدٍ مع صاحب الموقف العظيم في يوم جمع القرآن في عهد الصديق، وقد أمره الصديق بذلك، ويا لها من منقبة عظيمة أن يختار الصديق زيد لأعظم وأجل مهمة في الكون، ألا وهي جمع القرآن الكريم في مصحفٍ واحد، نحن الآن في ضيافة الرجل العظيم جامع كتاب الله؛ زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه.

إنني عندما بدأت في كتابة تلك السطور عن هذا الصحابي الجليل أحسست كأنني أقف أمام جبلٍ عظيم قد امتلأ بالحسنات والدرجات العليا حتى ملأ ما بين السموات والأرض، ولم لا؟ فإنك إذا حملت المصحف بيمينك، واستقبلتهُ بوجهك، ومضيت تتأنَّق في روضاته اليانعات، سورة بعد سورة، وآية بعد آية، فاعلم أن من بين الذين يدينونك بالشكر والعرفان على هذا الصنيع العظيم، الصحابي الجليل زيد بن ثابت رضي الله عنه، إن وقائع جمع القرآن في مصحف لا تذكر إلا ويذكر معها هذا الصحابي الجليل.

فحين تُنثر زهور التكريم على ذكرى المباركين الذين يرجع إليهم فضل جمع القرآن وترتيبه وحفظه، فإن حظ زيد بن ثابت رضي الله عنه من تلك الزهور لحظ عظيم.

كان زيد بن ثابت رضي الله عنه طفلًا صغيرًا اشتاقت نفسه للجهاد في سبيل الله، وقد أراد هذا الفتى الصغير أن ينال شرف الجهاد والشهادة في سبيل الله مع رسول الله ﷺ في بدر الكبرى.

أقبل الغلام الصغير الذي لم يتم الثالثة عشرة من عمره بعد، وكان يتوهج ذكاءً وفطنة، ويتألق نجابةً وحمية، وفي يده سيف يساويه في الطول تمامًا، أو يزيد عنه قليلًا، وكان النبي ﷺ يلقي النظرات الأخيرة على أول جيشٍ يتحرك تحت قيادته للجهاد في سبيل الله، وتثبيت كلمته في الأرض، بعد أن أسس النبي ﷺ دولة الإسلام، وبعد أن تجهز أصحابه لمواجهة ألد أعدائهم قريش المشركة الكافرة، والرسول القائد صلوات ربي وسلامه عليه شأنه شأن كل القادة، كان يستعرض جيشه قبل أن يعطي أمرًا بالتقدم.

وهنا أقبل على الصفوف غلامًا صغيرًا، ودنا من النبي ﷺ، وقال: جُعلت فداك يا رسول الله، ائذن لي أن أكون معك، أجاهد أعداء الله تحت رايتك، فنظر إليه الرسول الكريم ﷺ نظرة سرورٍ

وإعجاب، وربَت على كتفه بلطفٍ وود، وطيَّب خاطره، وصرفه لصغر سنه.

عاد الغلام الصغير إلى البيت يجرجر سيفه على الأرض حزينًا أسوان؛ لأنه حرم شرف صحبة رسول الله وعادت من ورائه أمه النوار بنت مالك رضي الله عنها، وهي لا تقل عنه أسىً وحزنًا، والنساء كن بطلات في ذلك العصر، كانت المرأة ترجو أن يكون ابنها في عداد المجاهدين، وكانت المرأة في هذا العصر الذهبي الخالد تزهو إذا قيل لها: إن ابنها استشهد في سبيل الله.

كانت هذه الأم تتمنى أن تكتحل عيناها برؤية غلامها وهو يمضي مع الرجال مجاهدًا تحت راية رسول الله، وكانت تأمل أن يحتل المكانة التي كان من المنتظر أن يحظى بها أبوه لدى النبي ﷺ لو أنه ظل على قيد الحياة.

ولكن لما رأته على هذه الحالة لم تُطيب خاطره بكلماتٍ وكفى، فإنها كانت تدرك بعمق مواهبه وإمكاناته، فلفتت نظره إليها، وقالت له: إن لم يكن باستطاعتك أن تجاهد بالسيف والدرع كما يفعل المجاهدون في المعركة فباستطاعتك أن تخدم رسول الله ﷺ بالعلم الذي عندك.

لقد كانت القراءة والكتابة مزية لدى زيد رضي الله عنه، فوق أنه يحفظ الكثير من آيات القرآن الكريم، وهذا مجال يتفوق فيه الفتى على غيره ليخدم الإسلام، وحين ذهبت به أمه إلى رسول الله ﷺ، وعرضت عليه إمكانات ولدها، وما يمتلكه في غير مجال الجهاد والحرب اختبره رسول الله ﷺ وسمع منه، ولما علم قدراته وطاقاته قال له: اذهب فتعلَّم لغة اليهود فإني والله ما آمنهم على كتابي، فذهب زيد وتعلم لغة اليهود في أقل من سبع عشرة ليلة، ولعله كان عنده بعض الخلفية عنها، واستطاع في هذه مدة أن يتم تعلمها وإتقانها.

وبعد ذلك جعله رسول الله ﷺ من كتبة الوحي، وكفاه شرفًا بذلك، حتى بعد وفاة رسول الله ﷺ أن أوكَل إليه خليفة رسول الله الصديق أبو بكر مهمة جمع القرآن، وكان عمره وقتئذ ثلاث وعشرين عامًا فقط.

عبرة

يا أيها الإخوة الكرام، المؤمن دائمًا صاحب همةٍ عالية، المؤمن دائمًا ينشط لطاعة الله عز وجل، المؤمن دائمًا يسخر كل طاقاته الفكرية والمادية وخبراته في سبيل الله، فحق للصحابة أن يرضى الله عنهم لأن أمر الله عندهم عظيم، ودعوة النبي ﷺ إلى الجهاد ملأت قلوبهم، لذلك كانت المدينة تموج موجًا استعدادًا لمعركة بدر.

هذا يقودنا إلى أن الناس إذا تواطؤوا في عصرٍ على تعظيم شيء فكل الناس يتجهون إليه، حتى الصغار يقلدون الكبار، فلو تنافس الناس في الزخرفة والزينة، لرأيت حديث الناس كله عن زخرفة بيوتهم وزينتها، ولو تنافس الناس كلهم في جمع الأموال لرأيت حديثهم كله عن جمع الأموال، ولو تنافس الناس في طلب رضوان الله عز وجل لرأيت الناس جميعًا يتحدثون في هذا المجال، ففي كل عصر بحسب اتجاه الناس موضوع يهمهم جميعًا.

يا شباب، أقول لكم هذا الكلام: لو أن أحدكم اعتنى بابنه عناية بالغة حتى تعلم القرآن، أو حتى تعلم حديث رسول الله، أو تعلم أحكام الفقه، وحمله على طاعة الله، وعلى أداء الصلوات، وعلى التقرب إلى الله بالطاعات، فالأب إذا رأى ابنه على هذا الحال، والله يدخل على قلبه سعادة لا أستطيع وصفها،

ولو كانت هذه الأسرة متقشفة، حياتها خشنة، طعامها خشن، بيتها صغير، دخلها قليل، لكانت في غاية السعادة.

فلَكَم نبغَ ذلك الطفل ولكم أفاد أمة الإسلام به، وكان ذلك ثمرة أم مسلمة استطاعت أن تهب الأمة أعظم ثروة، فترى إذًا كم يكون أجرها ومكافأتها، والأمثلة كثيرة جدًّا في هذه الأمة، فكم نحتاج مثل زيد وأم زيد رضوان ربي عليهم.

روائع من شجاعة الصحابة

قاهر الصعاب

إن أبا بكر الصديق رضي الله عنه أعظم إنسان عرفته البشرية بعد الأنبياء عليهم السلام ، لا يرفع الكاتبون من قَدره بما يسطرون عنه وعن فضائله، إنما يرفعون من أقدار أنفسهم حين يؤهلونها للحديث عن هذا الطود الشامخ، وهذا الجبل العظيم، فبساطة خُلُقه تتواءم مع بساطة خلقه، وكما أن بساطة شمائله تتضمن مع عظمةٍ خارقة، إنه رجل اختارته الأقدار ليكون على رأس أساتذة البشرية جميعًا في فن الإيمان والعظمة، إنه هو الرجل الذي اختير لتكون أيامه السطور الأولى في نَعْي أعظم إمبراطوريات عصره وعالمه – الروم وفارس، ومع ذلك كان أكثر حياءً إذا أُلقيت عليه كلمة ثناء، حين ذلك كان الدمع يُبلّل عينيه، ويُردِّدُ ويقول: اللهم اجعلني خيرًا مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون!!

لقد أثبت هذا الخليفة العظيم جدارته بالمكانة التي بوَّأه الله إياها في قلوب الناس، وفي قلب التاريخ، ولقد تحرك تجاه الأحداث الداهمة بأسلوبٍ يكشف عن مدى ما يستطيع الإيمان أن يقهر من صعاب ويأتي من معجزات، فتعالوا بنا لنرفع الستار عن أحد جوانب عظمته في إنفاذ بعث أسامة بن زيد رضي الله عنهما، لقد تجلى في هذا الموقف إيمان أبي بكر رضي الله عنه بربه وبرسوله على نحوٍ يجعل من هذا الرجل الشاهق الباهر نسيج وحده في الإيمان.

قبل وفاة الرسول ﷺ كان قد أعدَّ جيشًا بإمرة أسامة بن زيد رضي الله عنهما، وجهته كانت إلى الشام؛ لرد عدوان الرومان على التخوم الإسلامية، وكان الجيش يوم مات الرسول ﷺ مُعسكرًا على بُعد ثلاثة أميال من المدينة يتهيأ للسير، وأرجأت وفاة الرسول زحفه، واختلف الرأي بعد هذا في أمره، فرأى فريق من الصحابة وعلى رأسهم الفاروق أن بعث جيش أسامة إلى الشام مخاطرة رهيبة في الوقت الذي أصحبت عاصمة الإسلام مهددة بغزو المرتدين، ورأوا ضرورة عودة الجيش إلى المدينة.

وقالوا: يا أبا بكر، لا ترسل جيش أسامة إلى تخوم الشام فإن معه وجوه الناس وشجعانهم، وما نقدر على شيءٍ إذا أخلينا المدينة من هذا الجيش، وما لنا بقتال الروم من حاجةٍ ونحن في فتن!

المسألة حين تُقاس بالمنطق المجرد يا إخوة لا يبدو الصواب إلا في هذا الرأي الذي تبنَّاه الصحابة وعلى رأسهم الفاروق عمر، وحتى أسامة قائد الجيش كان هذا رأيه، لكنَّ أبا بكر رضي الله عنه يستمد منطقه من إيمانه، وكل قضية عنده تتسع للاجتهاد إلا قضية أبرم الله فيها حكمًا، فليكن ما أمر به الرسول ﷺ مهما تكن المستحدثات والظروف، ومهما تكن الأخطار التي تهدد المدينة.

لقد واجه الصديق الخطر بإيمانه الراسخ كجبالٍ رواسي، وأنصت التاريخ ليسمع جواب خليفة رسول الله ﷺ، فقد قال لهم: ثكلتكم أمهاتكم! أنا أحل لواء عقده رسول الله ﷺ؟ والله لو جرت السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله ﷺ، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته.

لم يعد ثمَة نزاع في الأمر، ولم يكن أبو بكر بتصميمه هذا مُفتئتًا على آراء الآخرين، لأن القضية أساسًا ليست مما يُعرض للشورى بعد أن قال فيها رسول الله ﷺ كلمته وأعطى أمره، والصديق يُوثر أن تتخطفه السباع على أن يرد للرسول قضاء أو يعطل مشيئة.

وكان هذا فتحًا في الإسلام عظيمًا، فتحه الله على أبي بكر ليكون معجزة من معجزات النبوة، أمد الله أبا بكر بقوةٍ من عنده، فاستطاع أن يقف وحده أمام هذه الجزيرة الهائجة المائجة، وقف الصديق وحده أمام هذه الفتن العمياء وهذه القبائل المرتدة.

وعاد بعض الصحابة وعلى رأسهم عمر أيضًا يطلبون من الصديق أن يجعل على رأس الجيش قائدًا غير أسامة الذي لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره، وكان قائدًا محدود الخبرة، ولاسِيَّما في هذا الجيش شيوخ الصحابة وأجلائهم.

وهذه المسألة أيضًا إذا بحثت في ضوء المنطق المجرد يبدو الرأي سديدًا، لكن أبا بكر في هذا شأنه في كل أمرٍ؛ يُستمد منطقه من إيمانه، فالذي ولى أسامة قيادة هذا الجيش هو رسول الله ﷺ، ولقد رضيه الصحابة ورسول الله حي، أفيخلع أبو بكر رجلًا ولاه الرسول ﷺ؟

فلم يكد عمر يعرض الرأي المقترح على أبي بكر حتى ثار الرجل الحليم ثورة ما ثار مثلها قبل ولا بعد، ولندع شاهد عيان –هو الفاروق نفسه يصف لنا هذا المشهد فيقول:

وثب أبو بكر من مكانه وأخذ بلحية عمر، وقال: ثكلتك أمك وعدمتك يا بن الخطاب! أيُوليه رسول الله، وتأمرني أن أعزله؟! فخرج عمر إلى الناس فقالوا: ما صنعت؟ فقال: امضوا ثكلتكم أمهاتكم! ما لقيت بسببكم من خليفة رسول الله ﷺ.

ثم قام الصديق وعمر يتبعه إلى حيث كان الجيش معسكرًا، فدعاهم للتحرك على بركة الله، ومضى الجيش، وزوده بوصايا ما عرفتها الإنسانية من قبل، وسار الصديق مع الجيش ماشيًا في توديع الجيش وأسامة راكبًا، فقال أسامة: يا خليفةِ رسول الله إما أن تركب وإما أن أنزل، فقال الصديق: والله لست بنازل ولست براكب، وماذا عليَّ أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة؟

كل أمر عنده سهل، وكل جَلل يهون إلا أمرًا يدعوه إلى الخروج قيد أُنملة عن طاعة الله ورسوله، إن بينه وبين الله عقدًا موْثقًا يتمثلان في إيمانه الراسخ الصامد، وإنه لمصمم على أن يحمل حتى الموت الالتزامات كافة التي يفرضها هذا الإيمان، وهو على يقينٍ أن الإيمان يحمل معه بصيرته التي تهدي إلى الحق وإلى الصواب.

ولما اشتد الكرب والبلاء على المسلمين، وزلزلت المدينة، إذا تجرأ المرتدون على مهاجمة المدينة، وازداد الصحابة حيرة وجزعًا، حتى حار عمر القوي في ذلك، فقال عمر: يا خليفة رسول الله تآلف الناس وأرفق بهم!

لكنَّ أبا بكر لا تعرف نفسه الحيرة، فقال لعمر: ماذا يا ابن الخطاب؟ لقد رجوت نصرك وجئتني بخذلانك، فقال عمر: كيف تقاتل قومًا يشهدون أنه لا إله إلا الله؟! فقال الصديق رضي الله عنه: والله لأقاتلن من فرَّق بين الصلاة والزكاة، ثم قال كلمته الحاسمة التي حفظها التاريخ عنه: والله لو منعوني عقالًا كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه بالسيف، ولو تخليتم عني لجاهدتهم وحدي، ثم خرج الصديق إليهم بنفسه، ورتب المجاهدين لقتالهم، فلم تكن إلا فترة قصيرة حتى ردهم عن المدينة، ولم يمض العام الأول من خلافة الصديق إلا والجيوش الإسلامية تقرع أبواب الروم وفارس.

عبرة

يا شباب، الأحوال تتغير وتتبدل، والشدائد لا تشغل أهل الإيمان عن أمر الله، فما أشد التحول وأخطره! وما أسرعه كذلك! فسبحان الله الذي يقلب الأحوال كما يشاء، تأتي وفود العرب مذعنة منقادة مطيعة وبهذه الكثرة، حتى سُميَ العام التاسع عام الوفود، ثم تتقلب الأحوال في أقل من عامين، فتأتي القبائل العربية للإغارة على المدينة المنورة عاصمة الإسلام، بل جاءت للقضاء على الإسلام والمسلمين، ولا غرابة في ذلك، فإن من سنن الله الثابتة في الأمم أن أيامها لا تبقى ثابتة على حال، بل تتغير وتتبدل، وقد أخبر بذلك الذي يقلب الأيام ويصرفُها عز وجل بقوله: (وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) (آل عمران: ١٤٠).

فالصديق يُعلم الأمة إذا نزلت بها الشدة وألمَّت بها المصيبة أن تصبر، فالنصر مع الصبر، وأن لا تيأس ولا تقنط من رحمة الله، وليتذكر المسلم دائمًا أن الشدة مهما عظمت والمصيبة مهما اشتدت وكبرت فإن سنن الله الثابتة: (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥)، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا).

ومن الدروس المستفادة من بعث جيش أسامة: أن الشدائد والمصائب مهما عظمت وكبرت لا تشغل أهل الإيمان عن أمر الدين، فإن وفاة الرسول الكريم ﷺ لم تشغل الصديق عن أمر الدين، وأمر ببعث أسامة في ظروفٍ كالحة مظلمة بالنسبة للمسلمين، ولكن ما تعلَّمه الصديق من رسول الله من الاهتمام بأمر الدين مقدم على كل شيء، وبقيَ هذا الأمر حتى ارتحل من هذه الدنيا.

يا أيها الإخوة الكرام، أحيانًا الإنسان يختار أنصاف الحلول، يأخذ ويعطي، يكون مرنًا، لكن الصديق أمام قضية مبدأ، أما الآن أصحاب مصالح، يضحي بالخمسين ليأخذ المئة، يقفون عند أنصاف الطرق، يتفاوضون على أنصاف الحلول، لكن هذا الصحابي الجليل قال: واللهِ لو منعوني عقالَ بعيرٍ كانوا يعطونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه بالسيف، وسأله عمر بن الخطاب هذا السؤال الحرج: كيف تقاتل قومًا يشهدون أنه لا إله إلا الله؟ فقال الصديق رضي الله عنه: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقًا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها.

صاعقة الإسلام.. وحديقة الموت

آثار هذا الصحابي العلم تشهد له، وترسم سيادته وجهاده، وفتوحاته وفراسته، وتبصره بمصالح المسلمين، وهو مع هذه المحاسن كان أحد أعلام صدر الإسلام، ومن أنصار رسول الله ﷺ الذين ظلوا يسارعون إلى مواطن الحق وأرواحهم على أكفهم، لا ينالهم تردد في تقديمها خالصة لوجه الله سبحانه وتعالى، لقد كان البراء بن مالك رضي الله عنه لا يهتم بمظهرٍ قدر اهتمامه بمخبره الذي هو محل نظر الرب سبحانه، فتحْتَ أسماله البالية تسكن العظمة، لقد كانَ طرازًا فريدًا من البشر، قلما يجود الزمان بمثله.

كان البراء بن مالك رضي الله عنه من يراه وهو يقاتل يرى عجبًا يفوق العجب، فلم يكن البراء رضي الله عنه حين يجاهد المشركين بسيفه ممن يبحثون عن النصر أو الغنائم، لا، بل كان يبحث عن شيءٍ واحد فقط، ألا هو الشهادة في سبيل الله، ويستعجل مجيئها، فقد كانت كل أمانيه أن يموت شهيدًا، يقضي نحبه فوق أرض معركةٍ من معارك الحق، من أجل ذلك لم يتخلف عن مشهدٍ ولا غزوة مع النبي ﷺ.

وذات يوم مرض فذهب إخوانه يعودونه، فقرأ في وجوههم الخوف عليه، فقال لهم: لعلكم ترهبون أن أموت علىً فراشي، لا ورب البراء، لن يحرمني الله الشهادة.

تبدأ هذه القصة منذ الساعات الأولى لوفاة النبي الكريم ﷺ والتحاقه بالرفيق الأعلى، حيث طفقت قبائل العرب تخرج من دين الله أفواجًا كما دخلت في هذا الدين أفواجًا، حتى لم يبق على الإسلام إلا أهل مكة والمدينة والطائف وقرية هاجر، وجماعات متفرقة هنا وهناك ممن ثبت الله قلوبهم على الإيمان.

صمد الصديق رضي الله عنه صمود الجبال الرواسي أمام هذا الإعصار، وتلك الفتنة التي كادت تقضي على الأخضر واليابس، فقام رضي الله عنه يتصدى لتلك الفتنة المدمرة العمياء، وعقد أحد عشر لواءً لمواجهة المرتدين، وكان أقوى المرتدين بأسًا وأكثرهم عددًا بنو حنيفة أصحاب الكذاب مسيلمة، فحشد لهم الصديق جيشًا بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه ومجموعة من أبطال الأنصار والمهاجرين، وكان في طليعة هؤلاء المجاهدين صاعقة الإسلام البراء بن مالك رضي الله عنه.

التقى الجيشان في معركة سهل عقرباء اليمامة، ولقد كانت بطولة البراء يوم اليمامة خليقة به، خليقة بالبطل الذي كان الفاروق يُوصي ألا يكون قائدًا أبدًا، لأن جسارته وإقدامه، وبحثه عن الموت، كل هذا يجعل قيادته لغيره من المقاتلين مخاطرة تشبه الهلاك.

نادى خالد: الله أكبر، فانطلقت الصفوف الإسلامية إلى مقاديرها، وانطلق معها عاشق الشهادة، وراح يجندل الرجال بسيفه، وهم يتساقطون كأوراق الخريف تحت وميض بأسه، فلما اشتد الكرب على المؤمنين ناداه أخوه وقائده خالد بن الوليد، وقال: تكلم يا براء، فصاح البراء بأعلى صوته: يا أنصار الله، لا يفكر أحد منكم بالرجوع إلى المدينة، فلا مدينة لكم بعد اليوم، وإنما هو الله وحده ثم الجنة.

هذه الكلمات تدل على روح قائلها، وتُنبئ بخصاله، أجل إنما هو الله والجنة، ففي مثل هذه المواقف الصعبة لا ينبغي أن تدور الخواطر حول شيء آخر، حتى المدينة عاصمة الإسلام، والبلد الذي خلَفوا

فيه ديارهم ونساءهم وأولادهم، لا ينبغي أن يفكروا فيها، لأنهم إذا هُزمُوا اليوم، فلن تكون هناك عاصمة للإسلام.

سرت كلمات البراء في أبطال الجيش الإسلامي، ومضى وقت وجيز حتى عادت المعركة إلى نهجها الأوَّل، المسلمون يتقدمون يسبقهم نصر مُؤزر، والمرتدون يتساقطون في حضيض هزيمة قاسية، والبراء هناك مع إخوانه يسيرون براية محمد ﷺ إلى موعدها العظيم، وانبرى البراء يشق الصفوف ويعمل سيفه في رقاب أعداء الله حتى زلزل الله أقدامهم، واندفع المشركون إلى الوراء هاربين، واحتموا بحديقةٍ كبيرة دخلوها ولاذُوا بها، وهي حديقة رحبة الأرجاء، عالية الجدران، فأغلق مسيلمة والآلاف المؤلفة من جنده عليهم أبوابها وتحصنوا بعالي جدرانها، وجعلوا يمطرون المسلمين بنبالهم من داخلها، فتتساقط عليهم تساقط المطر.

عند ذلك تقدم مغوار المسلمين البطل الباسل البراء، وصعد فوق ربوة عالية وصاح: يا معشر المسلمين، ضعوني على ترسٍ وارفعوا الترس على الرماح، ثم اقذفوني إلى الحديقة قريبًا من بابها، فإما أن أستشهد، وإما أن أفتح لكم الباب.

ألم أقل لكم؟ إنه لا يبحث عن النصر بل عن الشهادة فقط، لقد تصور في هذه الخطة خير ختام لحياته، وخير صورةٍ لمماته، فهو حين يقذف به إلى الحديقة، يفتح للمسلمين بابها، وفي نفس الوقتَ تنوشُه سيوف المشركين وتمُزق جسده، وفي نفس الوقت كذلك تكون أبواب الجنة تأخذ زينتها، وتتفتَّح لاستقبال عريس جديد مجيد!!

وفي لمح البصر جلس البراء على ترس، فقد كان ضئيل الحجم نحيل الجسم، ورفعته عشرات الرماح حتى نزل في قلب حديقة الموت، نزل البراء عليهم نزول الصاعقة، فلما رأته قوات بني حنيفة أقلبت إليه من كل حدبٍ وصوب، وما زال البطل يجالدهم أمام باب الحديقة حتى قتل عشرة منهم وفتح الباب، وبه بضع وثمانون جرحًا ما بين ضربة بسيف، وطعنة برمح، ورمية بسهم، فتدفق المسلمون على حديقة الموت من أسوارها وأبوابها، وأعلموا السيف في رقاب جند مسيلمة الكذاب، حتى قتلوا منهم قريبًا من عشرين ألفًا، ووصلوا إلى مسيلمة فأردوه قتيلًا.

ولكن حلم البراء لم يتحقق، فلا سيوف المشركين اغتالته، ولا هو لقيَ المصرع الذي كان يمني به نفسه، صحيح أن جسد البطل تلقَّى يومئذٍ من سيوف المشركين بضعًا وثمانين ضربة، وقد حمل البراء بن مالك إلى متاعه ليداوى، وأقام عليه خالد بن الوليد رضي الله عنه بنفسه شهرًا يعالجه حتى جاء الشفاء من الله، ولكن هذا الذي أصابه كان دون غايته، وما يتمنى.

عبرة

يا أيها الإخوة الكرام، إن المتأمل لهذا الموقف العظيم يتملكه العجب، ويندهش من إقدام هذا البطل الكبير على تنفيذ هذه الخطة الفدائية، فإن أي إنسان يلقي بنفسه وسط الأعداء سيتصور الموت قتلًا بأبشع أنواع القتل، فهل كان البراء بن مالك رضي الله عنه يتصور ذلك وهو يلقي بنفسه؟ نعم كان البراء يتوقع ذلك، ولكنه من قوم تهون أنفسهم في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى، وقد أقدم على هذا الأمر الهائل ابتغاء الظفر بالشهادةً، وفتح الباب للمسلمين، فإن تم له ذلك فسيكون عريسًا جديدًا للجنة في ذلك اليوم.

فلندع يا إخوة هذا التصور، ولنتأمل في نتيجة هذا الموقف، كيف استطاع وحده أن يُجْلي الأعداء، وأن يفتح الباب؟ وكيف سلم من سلاح الكفار؟ لا شك عندي في أن هذه كرامة من كرامات الله تعالى لأوليائه المؤمنين، لأن سلامته وقد أحاط به الأعداء على هذه الصورة من الأمور الخارقة للعادة، وقد ثبت أن الملائكة عليهم السلام يقاتلون مع المؤمنين كما سبق وذكرنا، فلعل الملائكة كانوا معه في هذه المعمعة إما بالقتال والحماية أو بالحماية فقط حتى أنجز هذه المهمة الخطيرة.

لقد أطَلَّ على المرتدين شبحٌ مخيف، ربما ظنوا أنه من عالم آخر، إذ يبعد أن يصل البشر العاديين إلى هذه الشجاعة الفائقة، والمقدرة الخارقة، فلذلك فسحوا له اًلمجال لذهولهم من نزوله المفاجئ، وكان بإمكانهم أن يتنظموه وهو بالهواء برماحهم، فلما هبط إلى الأرض قاتلهم حتى أجلاهم عن الباب، ويبدو أنهم قد أصيبوا منه برعبٍ عظيم، مما جعل مقاومتهم إياه ضعيفة، واستطاع أن يتغلب عليهم في النهاية، وأن يفتح الباب بمشهدٍ منهم، وهكذا فتح الباب فاندفعت جحافل الحق الهادرة لتقضي على جحافل الباطل المبهوتة، وكان البراء من أسباب تمكين المسلمين من أعدائهم، وقد تأسى به بعض جنود الحق لما لم يتسع لهم الباب فعلوا على الأسوار وهبطوا على أعدائهم كالصواعق المحرقة.

فارسٌ ليس له مثيل

لقد سبقت كلمة الله عز وجل لينصرن الحق وأهله، وليخذلن الباطل وجنده، فالحق سيف قاطع لأعناق الكارهين له، والصادِّين عن سبيله، والباطل زاهق لا محالة وإن عظم أتباعه، وقوي أشياعه، وجند الحق هم أهل الإيمان واليقين، يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، مخلصين له الدين، ينتظرون منه جل شأنه إحدى الحسنيين: الشهادة أو النصر أو هما معًا، وهم راضون بقضاء الله وقدره، مستبشرين بنعمة الله وفضله، وأعظم جند الله في الأرض على الإطلاق هم أصحاب النبي ﷺ، فهم خير أمةٍ أُخرجت للناس، لأنهم أعلام الهدى، وصناع التاريخ، وطلاب الحق في كل مكان.

ضيفنا في هذه السطور، الأنصاري الشهيد، أسطورة الفداء والتضحية، وآية من آيات الجهاد والفداء، ألا ما أحوج الأمة إلى رجالٍ أمثال البراء في وقتٍ جف فيه الإخلاص، واشرأبت فيه الأعناق إلى الدنيا، وقل فيه الجهد لهذا الدين القيم، لقد كان هذا البطل هو أسطورة ساحات الوغى بلا منازع، أبلى بلاءً حسنًا في كل المشاهد.

نحن على موعدٍ مع مغوار الأنصار العملاق، والشبح الذي أطاح برؤوس أهل اليمامة، بطل من أعظم وأشجع أبطال الحروب، وقاهر دولة فارس المقدام، أتعرفون هذا الاسم الذي لمع في سماء الهدى؛ احفظوه جيدًا فإن المرء يُحشر مع من أحب إنه البراء بن مالك رضي الله عنه أعظم فرسان الأنصار وأشجعهم شجاعة. كان البراء فارس من فرسان الرسول ﷺ، ومن أعلام الفرسان الأبرار الأخيار، وكان بطلًا من أبطال الحرب المشهود لهم، شهد مع رسول الله ﷺ جميع المشاهد.

فإذا أردنا أن نتعرف على أسماء المجاهدين الذين حضروا بدرًا وأُحدًا، والمشاهد جميعًا بالمعية النبوية، ألفينا أن هذا العَلَم كان من السابقين في هذا المضار، وممن فاحت أعمالهم كأزاهير الرياض عبقًا، ولهذا العلم الكبير سجلٌ حافل بألوان العظائم في حروب فارس، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد الرائع له في معركة جلولاء.

ظل البراء بن مالك رضي الله عنه يتوق إلى الشهادة التي فاتته في حديقة الموت يوم اليمامة، وطفق يخوض المعارك واحدة بعد أخرى شوقًا إلى تحقيق أمنيته الكبرى، وحنينًا إلى اللحاق بنبيه الكريم ﷺ، وينطلق مع جيوش الإسلام التي ذهبت تشيع قوى الظلام إلى مصارعها، هناك حيث تقوم إمبراطوريتان فانيتان هما الروم والفرس، تحتلان بجيوشهما الباغية بلاد الله، وتستعبدان عباده.

ففي معركة جلولاء سنة ١٦ هجرية وقيل في معركة تستر على جبهة العراق لجأ الفرس في قتالهم إلى كل وحشيةٍ دنيئة يستطيعونها، فقد استعملوا كلاليب من فولاذٍ مثبتة في أطراف سلاسل محماة بالنار حتى غدت أشد توهجًا من الجمر، يلقونها من حصونهم، فتخطف من تناله من المسلمين الذين لا يستطيعون منها فكاكًا، وقد كان البراء وأخوه أنس قد وُكل إليهما مع جماعةٍ من المسلمين أمر واحدٍ من تلك الحصون.

ولكن أحد هذه الكلاليب سقط فجأة، فتعلق بأنس بن مالك، ولم يستطع أنس أن يمس السلسلة ليخلص نفسه، التي كانت تتوهج لهبًا ونارًا، وأبصر البراء ما يحدث لأنس فأسرع نحو أخيه الذي كانت

السلسلة المحماة تصعد به على سطح جدار الحصن، فقبض البراء على السلسلة المحماة بيديه وراح يعالجها في بأسٍ شديد حتى قصمها وقطعها.

وقد نجا أنس، وألقى البراء ومن معه نظرةً على كفيه فلم يجدوهما مكانهما، لقد ذهب كل ما فيهما من لحم، وبقيَ هيكلهما العظمي مسمرًا محترقًا! وقضىَ البراء مرة أخرى في علاجٍ بطيء حتى برئ، لكن كل هذا الذي أصابه كان دون غايته وما يتمنى، بيد أن ذلك لا يحمل البراء علَى اليأس.

عبرة

يا أيها الإخوة الكرام، إن المسلمين يقاتلون من أجل الحياة الآخرة فقط، وأسرع الوسائل للوصول إلى المنازل العليا فيها أن ينالوا الشهادة في سبيل الله تعالى، فلذلك كان المسلمون الأوائل يتسابقون إليها، أما الكفار فإنما يقاتلون من أجل الدنيا، ولن يصلوا إليها إلا بالبقاء على قيد الحياة، فلذلك كانوا يتَّقون الموت ويلوذون بغيرهم، وهذا يعني أنهم يقاتلون بجزءٍ يسير من طاقتهم، ويبذلون أكثر طاقتهم في الدفاع عن أنفسهم، بينما يبذل المسلمون كل طاقتهم في الهجوم على أعدائهم.

وبينما نرى طالب الحياة الدنيا يبتعد عن الأهوال ومواطن الخطر نرى طالب الحياة الآخرة يخوض غمارها بإقدامٍ وقوة فيفز من بين يديه طلاب الحياة الدنيا، ولذلك فإن طالب الشهادة في سبيل الله تعالى لا يُقتل ًغالبًا حتى يُقتل أو يهزم أعدادًا كبيرة من الأعداء، فلذلك كان الواحد منهم عن عشرةٍ من غيرهم ممن هم مثله في القوة والشجاعة، ومن أجل هذا كانوا ينتصرون على أضعافهم في العدد.

الأسد في براثنه

من أصحاب النبي ﷺ من هو الفقيه المعلِّم، ومنهم من هو الذكي الملهم، إنهم رجال صدقوا الله فآتاهم رحمة من عنده، وعلمهم من لدنه علمًا، وجمع بينهم في إخوةٍ لم يعرف التاريخ لها مثيلًا في العالمين، وقد قلنا في كثيرٍ من أحاديثنا عن أصحاب النبي ﷺ: إنهم كما كانوا عبادَ محاريب، وكانوا جنودَ ميدان، يصدقونً الله عز وجل عند لقاء العدو، فيثبتون في مواقفهم ثبوت الجبال الرواسي، فيضربون فوق الأعناق، لا يهابون الموت ولا يكرهون لقاءه.

ضيفنا في هذه السطور، عملاق يملك ذكاءً يندر وجوده، وسرعة بهدية تجعله يعالج أعتى المواقف والأزمات بُيسر وسهولة، وهو في الوقت ذاته يؤتمن على أخطر الأسرار ولا يذيعها ولو انطبقت السماوات على الأرض، كان رجلًا يعرف المنافقين بسيماهم فلا يخطئ واحدًا منهم لأن الرسول ﷺ علَّمهُ كيف يعرفهم وكيف يبلو أخبارهم، وتلك خصوصية خصه الله بها دون غيره من الصحابة.

نحن على موعدٍ مع صاحب سر رسول الله ﷺ، إنني أشعر وأنا أكتب تلك السطور عن هذا الصحابي الجليل، وكأن الكون كله ينظر ويتأمل ماذا سنقول، أيها المسلمونٍ أعيروني القلوب قبل الأسماع لتعلموا كيف استطاع هذا الرجل أن يقدم لدين الله ما لا يستطيع جيلٌ بكل طاقاته وإمكانياته أن يقدم نصف ما قدَّم، ولست مبالغًا في ذلك؛ فهو واحدٌ ممن تربوا بين يدي الحبيب ﷺ، الذي ربَّاه الله جل وعلا وصنعه على عينيه ليربِّي به الأمم والأجيال عبر العصور والأزمان، نحن نلتقي مع كاتم سر رسول الله، وصاحب مهمة الاستطلاع الخطيرة يوم الأحزاب؛ حذيفة بن اليمان رضي الله عنه .

كان حذيفة واحدًا من هؤلاء الأبطال الذين أسهموا بنصيبٍ وافر في نصرة الإسلام في عصر النبي ﷺ، وفي عصر الخلفاء الراشدين، وأعظم مهمة وكلت إليه، وحسبت له هي تلك المهمة التي أسندها إليه النبي ﷺ في غزوة الأحزاب، فتعالوا بنا لنتعرف على هذه المهمة الخطيرة.

استعان الرسول القائد صلوات ربي وسلامه عليه بحذيفة بن اليمان رضي الله عنهما في موقفٍ من أشد المواقف خطرًا على الأمة، فقد اجتمعت الأحزاب لتدمير دولة الإسلام، وإبادة المسلمين في المدينة، حيث أحاط العدو بالمسلمين من كل جانب، ومن فوقهم، ومن تحتهم، وقد طال الحصار، واشتد البلاء والكرب على المسلمين، وبلغ منهم الجهد والضنك كل مبلغ، وكان الجوع المضني قد بلغ مبلغًا وعرًا بين أصحاب النبي ﷺ، حتى زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر من شدة الخوف، وأخذ البعض يظنون بالله الظنون.

لم يكن حال التحالف الوثني اليهودي على دولة الإسلام في هذه الساعات الحاسمات بأحسن حالٍ من المسلمين المحاصرين، فقد صب عليهما الله عز وجل غضبه ما أوهن قواهما وزلزل عزائهما، فأرسل عليهما ريحًا صرصرًا تقلب خيامهما، فدبَّ الفشل في صفوف كفار قريش وحلفائهم من اليهود، هنا أراد النبي ﷺ أن يقف على آخر تطورات الموقف هناك في معسكر أعدائه.

كان الليل مظلمًا ورهيبًا، وكانت العواصف تزأر وتصطخب، كأنما تريد أن تقلع جبال الصحراء الراسيات من مكانها، وكان الموقف كله بما فيه من حصارٍ وعنادٍ وإصرار يبعث على الخوف

والجزع.

وفي مثل هذه المواقف الحاسمة في تاريخ الحروب، يكون الفريق الخاسر من يتراجع أولًا، ويكون النصر لمن يصبر على بلاءٍ قليلًا، ففي مثل هذه اللحظات التي تكتب فيها مصائر الأمم، يكون لاستخبارات الجيش الفضل الأول في حسم المعارك، وهذا ما احتاج إليه الرسول القائد صلوات ربي وسلامه عليه لطاقات رجلٍ في عبقريةٍ وبراعة، ولا يكون إيمانه إلا وثيقًا، ولا يكون ولاؤه إلا عميقًا، وكذلكم كان حذيفة بن اليمان في إيمانه وولائه، فإيمانه وولاؤه لا يعترفان بالعجز، ولا بالضعف، بل ولا بالمستحيل، لمَ لا؟ فهو صاحب سر رسول الله ﷺ، فعزم ﷺ أن يبعث حذيفة إلى قلب جيش المشركين تحت جنح الظلام، ليأتيه بأخبار القوم.

فلنترك لحذيفة الكلام ليحدثنا عن رحلة الموت هذه، قال حذيفة: لقد رأينا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعود، وأبو سفيان والأحزاب فوقنا، وبني قريظة أسفل منا، نخافهم على نسائنا وذرارينا، وما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة، ولا أشد ريحًا منها، فأصوات ريحها أمثال الصواعق، وهي ظلمة ما يرى أحدٌ منا إصبعه، فجعل المنافقون يستأذنون رسول الله ﷺ ويقولون: إن بيوتنا عورة وما هي بعورة، فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له، فيتسللون وهم نحو ثلاثمائة أو أكثر من ذلك.

عند ذلك قام النبي ﷺ، وجعل يمر بنا واحدًا واحدًا حتى مر عليّ، وما عليّ شيء يقيني من البرد إلا مرط لامرأتي ما يجاوز ركبتي. قال حذيفة: فأتاني وأنا جاث على ركبتيّ. فقال: من هذا؟ فقلت حذيفة يا رسول الله. فقال: حذيفة؟ فتقاصرت إلى الأرض كراهية أن أقوم من شدة الجوع والبرد. قلت: نعم يا رسول الله، قال: قم، فقمت. فقال: إنه كائن في القوم خبر، فتسلل إلى عسكرهم وائتني بخبرهم. قال حذيفة: وكنت من أشد الناس فزعًا وأشدهم قرآ أي بردٌ.

فلما خرجت قال رسول الله ﷺ: اللهم احفظه من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه وشماله، ومن فوقه ومن تحته، فوالله، ما تمت دعوة رسول الله لي حتى انتزع الله من جوفي كل ما أودعه فيه من خوف، وأزال عن جسدي كل ما أصابه من برد، فلما وليت، قال: يا حذيفة لا تحدثن في القوم شيئًا حتى تأتيني، فقلت: نعم يا رسول الله.

فلما دنوت من معسكر القوم، نظرت في ضوء نارٍ لهم توقد، وإذا رجل يقول بيده على النار، ويمسح خاصرته، ويقول: الرحيل، الرحيل، ولم أكن أعرِف أبا سفيان من قبل، فانتزعت سهمًا من كنانتي حتى أرمي به أبا سفيان، فذكرت قول رسول الله ﷺ لي: لا تحدثن في القوم شيئًا فأمسكت عن ذلك.

ثم مضيت أتسلَّل في جنح الظلام حتى دخلت المعسكر وصرت كأني واحد منهم، وما هو إلا قليل حتى قام أبو سفيان فيهم خطيبًا وقال: يا معشر قريش إني قائل لكم قولًا أخشى أن يبلغ محمدًا، فلينظر كل رجلٍ منكم من جليسه، فما كان مني إلا أن أخذت بيد الرجل الذي كان جنبي وقلت من أنت؟ قال: أبو عامر، ثم سئل كل واحد من صاحبه.

هنا قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار قرار، لقد هلكت رواحلنا، وتخلت عنا بنو قريظة، ولقينا من شدة الريح ما ترون، فارتحلوا فإني مرتحل، فلما مضى الجيش رجعت إلى النبي ﷺ بخبر القوم، فسر به سرورًا شديدًا وحمد الله وأثنى عليه.

عبرة

يا أيها الإخوة الكرام، الإسلام قد يمر بنكبات، وقد يمر بهجماتٍ شرسة، وقد يمر بمؤامراتٍ على مستوى العالم كله، لكن المؤمن لا يتزحزح، ولا يسيء الظن بربه وهو صابر، وهو صامد بالتعبير الحديث، فالنبي ﷺ احتاج في هذه المعركة الحرجة إلى هذا الصحابي الجليل، أراد النبي أن يبعث إلى جيش العدو رجلًا يندس فيهم ليأخذ أخبارهم، فالقرار الصحيح يحتاج إلى معلوماتٍ صحيحة، تقصي الحقائق.

فرسول الله ﷺ قائد محنك فذ، يجب أن يتخذ قرارًا، فالأمر خطير جدًّا لا بُدَّ من صحابي على مستوى عالٍ من الذكاء، وسرعة البديهة، والفطنة، وكتمان السر، عليه أن ينطلق إلى جيش العدو في جنح الظلام، وهناك يتقصى الأخبار ويعود إلى النبي، لأن النبي الكريم جاءته معلومات مضطربة، يريد أن يعرف الحقيقة.

وفي هذا الخبر وصف بليغ للحال الشديدة التي واجهها رسول الله ﷺ وأصحابه، حيث الخوف والجوع والبرد القارس، وعدم توافر الأكسية الواقية من البرد، إضافة إلى الريح الشديدة آخر ليلة، ومن كان يعاني هذه المعاناة القاسية لا ينتظر منه عادة أن ينجح في العمل الذي توجه إليه، ولكن مع ذلك نجح المسلمون في حماية المدينة من جميع الأحزاب الذين هم خارج المدينة من قريش وغطفان، والذين هم داخلها، وهم يهود بني قريظة، وهذا دليل على ارتفاع مستوى الإيمان واليقين عند الصحابة رضي الله عنهم ، مما دفعهم إلى بذل كل ما لديهم من طاقة وجهد حتى أصبحوا وكأنهم قد ضُوعفوا في العدد عدة مرات.

شهيد يمشي على الأرض

ضيفنا في هذه السطور رجل قدَّم حياته فداءً للحبيب ﷺ يوم أُحُد، إنه رجل أطلق عليه الرسول القائد لقب الشهيد الحي، إنه رجل كان يضع أقدامه في الدنيا وهو يعلم علم يقين أنه من أهل الجنة، إنه عملاق من عمالقة الإسلام، وفارس من أشجع الفرسان، ورجل من أولئك الرجال الذين كان لهم أطيب الأثر وأعظمه في الفتوحات الإسلامية الأولى، كان أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الثمانية الذين سبقوا للإسلام، وأحد الستة أصحاب الشورى.

نحن على موعدٍ مع عملاقٍ كانت بطولته يوم أحد من أروع البطولات في عالم الفروسية، وكانت بطولته أرفع بطولات الأبطال، فكان يقاتل قتال الليوث المغاوير، ويندفع إلى قلب الجيش الوثني فيبدد جموعه، ويغامر مغامرة منقطعة النظير، فينكشف عنه الأبطال والكماة الشجعان، لقد وقاه رسول الله بيده فشُلَّت إصبعاه، نحن نلتقي مع بطل أحد الشهيد الحي طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه.

طلحة رضي الله عنه هذا الذي لا يعرفه الكثير منَّا، والذي لم نقرأ عنه في مناهجنا شيئًا حال دون وقوع أكبر جريمة كانت ستعرفها الإنسانية في التاريخ، ولمعرفة السبب الذي جعل من طلحة شهيدًا يمشي على الأرض، ينبغي عليك أن تتحول بقلبك إلى جبل أحد على حدود المدينة المنورة، هذه المعركة التي انتصر فيها المسلمون في بادئ الأمر نصرًا عزيزًا، ثم أصيبوا بنكسةٍ عارضة بسبب تخلف الرماة عن أماكنهم، واشتغالهم بجمع الغنائم، وقد أمرهم الرسول القائد صلوات ربي وسلامه عليه أن يلزموا أماكنهم ولا يبرحوها، سواء انتصر المسلمون أم هزموا.

لقد تلقى المسلمون في أُحُد درسًا صعبًا، فقد تفرقوا من حول الرسول القائد ﷺ، وتبعثر الصحابة في أرجاء الميدان، وشاع أن النبي ﷺ قد قتل، وكان رد الفعل على الصحابة متباينًا، وكان الميدان فسيحًا، وكل مشغول بنفسه، إلا مجموعة من أبطال المسلمين.

الآن لتدع روحك ترافق أبا بكر الصديق رضي الله عنه وهو يلهث راكضًا في أرجاء الميدان كما لم يركض أحد من قبل متجهًا إلى جبل أحد؛ محاولًا مسابقة الزمن قبل فوات الأوان، قبل أن يفقد صديق عمره، وقد أحاط الكفار به من كل جانب، بعد أن سقط ثلاثون من أبطال الإسلام دفاعًا عنه، ليبقى بجانبه رجلٌ واحد فقط.

أخذ الصديق يسارع الخطى وأنفاسه تكاد تنقطع، ليلمح من بعيد وهو يمد ناظريه قبالة صديقه رجلًا يتحرك كالشبح، ويقاتل كالأسد الجسور ذودًا عن الرسول القائد صلوات ربي وسلامه عليه أمام رهطٍ من فرسان قريش، فتُرمى على رسول الله السهام فيتلقاها، وتُرمى عليه الرماح فيتصدى لها، فيتمنى الصديق أن يكون هذا الأسد هو نفسه ذلك الذي في باله، فإذا كان هو فإن صاحبه لا بُدَّ أن يكون في أمان بحراسة ذلك الصنديد المغوار، عندها قال الصديق: كن طلحة فداك أبي وأمي، وصدق ظن الصديق، لقد كان هذا الفدائي هو الشخص الذي يتمناه، إنه طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه .

هناك كان طلحة يقاتل ببسالةٍ ما عرفت كواسر الأرض مثلها، يدافع عن رسول الله ﷺ بجسده وروحه ووجدانه، فقد كانت السهام تتطاير نحو الرسول القائد ﷺ ليقفز طلحة كالفهد بسيفه والدماء تتصبب من كل مكان في جسده، وفجأة ينطلق سهمٌ خارق من أعظم رام سهامٍ عرفته العرب نحو

النبي ﷺ مباشرة، فتلمح عين طلحة السهم وهو يقاتل المشركين، فيسرع كالبرق الخاطف ليسبق هذا السهم قبل أن يصل إلى أعظم إنسان خلقه الله في الكون، وبينما السهم يخترق الفضاء متوجهًا بنجاح نحو صدر رسول الله، وإذ بيد طلحة تمتد لتحضن السهم احتضانًا في شرايينها، فيقول: حس، فينظر رسول الله ﷺ إلى يد طلحة والدماء تسيل من عروقها ليقول له: لو قلت بسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون.

وبينما رسول الله ينظر إلى طلحة بشفقةٍ وحنان، وصل أبو بكر ومعه أبو عبيدة، فيقول: فلما أقبلنا عليه نريد إسعافه قال: اتركاني وانصرفا إلى صاحبكما يريد طلحة، فإذا طلحة تنزف دماؤه، وفيه بضع وسبعون ضربة بسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، وإذا هو قطعت كفه، وسقط في حفرةٍ وقد أصيب بإغماءٍ من جراء إصابته الشديدة، فصب الصديق الماء على وجهه فاستفاق، وما كاد يسترد وعيه حتى قال أول ما قال: ما فعل رسول الله يا أبا بكر؟ فأجابه الصديق: إنه بخير يا أبا محمد، ففرح طلحة وقال: الحمد لله، كل مصيبة بعده جلل أي قليلة.

وهكذا يكون صدق الحب لرسول الله ﷺ، وإخلاص الجهاد في سبيل الله، ولذلك كان الصديق رضي الله عنه إذا جاء ذكر ليوم أحد يقول: ذلك يوم كان كله لطلحة، وقد تنبأ له النبي ﷺ بحياةٍ عامرة بالبطولة والتضحية فقال: من سرَّه أن ينظر إلى رجلٍ يمشي على الأرض وقد قضى نحبه فلينظر إلى طلحة بين عبيد الله.

عبرة

يا شباب، في هذا الخبر بيان لموقف جهادي عظيم لطلحة بن عبيد الله رضي الله عنه ، وهذا الجهاد تم في أخطر مرحلة من مراحل القتال، وذلك حينما أصيب المسلمون بالذهول لهول المفاجأة بهجوم خيول العدو من خلفهم، وإشاعة أن رسول الله ﷺ قد قتل، فقرر النبي ﷺ الانسحاب عن مركز القيادة بمن بقيَ معه للاعتصام بجبل أحد، فتولى طلحة ورفاقه حمايةَ النبي ﷺ حتى تمت عملية الانسحاب بسلامة النبي ﷺ بعد أن قدَّم الأبطال أرواحهم فداءً له، إن ما قام به هؤلاء الأبطال يُعد تضحيةً خالدة، وعملًا عظيمًا نالوا به الشرفين: شرف حماية النبي ﷺ والإسلام، وشرف الظفر بالشهادة، فرضيَ الله عنهم أجمعين.

فهذه الأخبار تبين لنا الجهد الكبير الذي بذله طلحة رضي الله عنه بشهادة الصحابة الكرام من الدفاع عن رسول الله ﷺ ووقايته من سلاح الأعداء، ولقد استمر يجمع بين حماية النبي ﷺ والدفاع عنه حتى فاء عددًا من الصحابة رضي الله عنهم، وكان طلحة قد أغمى عليه من كثرة ما واجه من سلاح الأعداء، ولقد استحق بهذا ثناء النبي ﷺ والحكم له بأنه قد أدَّى ما عليه كاملًا.

الأمير الفدائي

حب الفداء والتضحية والنضال روح تسري في كيان المؤمنين، وتجري جريان الدم في عروقهم إذا ما دعا الداعي: حيَّ على الجهاد، فهم جند الله في الأرض، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وهم يعلمون أن الجهاد في سبيله فريضةٌ محكمة، وضرورةٌ مُلحة، به تصان الأرض من الفساد، والفوضى، والاستبداد، وبه يتحقق النصر لهذا الدين الذي فطر الله الناس عليه.

وكان أصحاب النبي ﷺ يتنافسون في بذل أرواحهم وأموالهم في سبيل الله، لا يدخر أحدهم وسعًا في إحقاق الحق، وإبطال الباطل، وإخراج الناس من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان، وكان كل منهم يسعى جاهدًا لتعويض ما فاتهم من مواطن الخير وأعمال البر، ويعزم على ذلك عزمًا يثير الإعجاب، ولاسيما الذين تأخر إسلامهم وفاتتهم غزوة بدر وأُحُد وغيرهما من الغزوات، من هؤلاء الذين أرادوا أن يضربوا بسهمٍ وافر في التضحية والفداء

ضيفنا في هذه السطور؛ فهو من أصحاب النبي ﷺ الذين أيقنوا بأن الغاية الكبرى التي يجب أن يبذلوا من أجلها النفس والنفيس هي مرضاة الله عز وجل؛ فسلكوا الطريق واستعذبوا العذاب في سبيل الله، واسترخصوا المال والولد وقدموا كل شيءٍ وهم في قمة الرضا والاستبشار بما عند الله.

نحن على موعدٍ مع رجلٍ من العمالقة الصناديد الذين تألقوا في العصر النبوي، ومن الذين عُرفوا بالمكانة والرزانة والحصافة والاحترام، نحن نلتقي مع الصحابي الجليل سيد الأشعريين وكبيرهم أبا عامر الأشعري – وهو عم أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما، ونحن في هذه السطور نعيش مع مشهدٍ من مشاهد الشجاعة والبطولة لهذا الصحابي البطل، فتعالوا بنا لنتجول بين أروقة التاريخ لنتعايش معًا بقلوبنا مع هذه البطولة العظيمة.

كان أبو عامر الأشعري رضي الله عنه قد أوكل إليه الرسول القائد صلوات ربي وسلامه عليه قيادة سَرية، لتواجه بطل هوازن الذي لا يشق له غبار دريد بن الصمة، وصحيح أن دريدًا قد صار عجوزًا لا قدرة له على القتال، لكن رأيه وتجربته تقابل ألف سيفٍ من سيوف الشباب المقاتلين، ولو أطاع مالك بن عوف دريدًا لما خسر معركة حنين.

تحرك أبو عامر الأشعري نحو أوطاس، لما نزلت هوازن وعسكروا بأوطاس، فقابل أبو عامر دريدًا فقتله، فخرج له عشرة إخوة من هوازن، فحمل عليه أحدهم، فحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام، فرفض، ويقول: اللهم اشهد عليه، فقتله أبو عامر، ثم حمل عليه آخر، فحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام فرفض، فيقول أبو عامر: اللهم اشهد عليه، فقتله أبو عامر، ثم جعلوا يحملون عليه رجلًا بعد رجل ويحمل أبو عامر عليهم وهو يقول ذلك، حتى قتل تسعة وبقيَ واحد منهم.

فحمل على أبي عامر، وحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول: اللهم اشهد عليه،

فقال الرجل: اللهم لا تشهد عليّ، فكفَّ عنه أبو عامر فأفلت، ثم أسلم هذا الرجل فحسن إسلامه، فكان رسول الله ﷺ إذا رآه قال: هذا شريد أبي عامر.

وكان أبو عامر يتحرك بقواته، فرمى رجل من بني جشم بن معاوية بسهمٍ فأصاب أبا عامر في ركبته، فقال: أبو موسى من رماك يا عامر؟ فأشار أبو عامر إلى الرجل.

فقال أبو موسى: فقصدت إليه فاعتمدته فلحقته، فالتقيت أنا وهو، فاختلفنا أنا وهو ضربتين، فضربته بالسيف فقتلته، ثم رجعت إلى أبي عامر فقلت: إن الله قتل صاحبك.

قال أبو عامر: انزع هذا السهم مني يا ابن أخي.

يقول أبو موسى: فنزعته فنزل منه الماء.

فقال أبو عامر: يا ابن أخي، انطلق إلى رسول الله ﷺ فاقرئه منى السلام وقل له: استغفر لأبي عامر فإنه قتل، ثم سقط أبو عامر صريعًا على أرض أوطاس.

عبرة

يا شباب، على الرغم من تلك الرقة عند سيد الأشعريين التي كانت في قلبه، والحياء الذي اكتسى به قلبًا وقالبًا، إلا أنه كان إذا حمى الوطيس، وسكتت الألسنة، وصرخت السيوف فوق الرؤوس، كان هو الفارس المغوار الذي يبحث عن الشهادة في مظانها، وكأنه يبحث عن نصفه الآخر.

يا أيها الإخوة الكرام، إن الإيمان في حياة الفرد أهميته كبيرة جدًّا، وذلك لأن نور الإيمان عندما يدخل في القلب يُبدد جميع الظلمات، ويحرق جميع الشهوات، وكذلك الإيمان يصنع المعجزات ويتخطى كل الحدود، والمقاييس الأرضية، كما أن للإيمان دورًا في تقويم السلوك وحل المشكلات، وعندما يدخل الإيمان إلى قلب العبد وتشتعل جذوته تتبعه العديد من التغيرات القلبية، والحياتية للعبد.

فغاية المسلم التي يسعى إليها هي رضا الله عز وجل، وذلك لا ينال إلا بقصدهِ تعالى وحده والإخلاص له، والمسلم الذي يسعى إلى رضا الله لا بُدَّ أن يكون أمامه هدف واضح يجدّ في السعي إليه، ويسابق العمر في تحصيله، ومن ثمَّ يدرك أنه لن يصل إلى غايته إلا بالإخلاص لله تعالى.

صقر يوم اليمامة

أقدار الرجال تُعرف من خلال أعمالهم التي قاموا بها، ومدى نفعها للناس وتأثيرها في قلوبهم، وقدر كل امرئ ما كان يحسنه كما يقول الحكماء، وأصحاب النبي ﷺ كالنجوم الزاهرة، تتألق في جو السماء لتنير لأهل الأرض سبل الهداية والرشاد، ضيفنا في هذه السطور أحد هؤلاء الكواكب النيرة في سماء الكون، رجل سطر على جبين التاريخ صفحة، بل صفحات مضيئة تتألق روعةً وجمالًا وإجلالًا من الورع والخشية والتضحية والجهاد بالنفس والنفيس في سبيل الله جل وعلا.

لما بزغت شمس الإسلام في العلاء، وأرسلت سناءها إلى بيتٍ يطاول الجوزاء، وهذا البيت رفيعُ العماد، له شأن ومكانة في أم القرى، إنه بيت آل الخطاب الذي أتحف الدنيا برجالٍ زينوا جيْد الدنيا في عصر النبوة، ولا يزال ألقهم تتفتح براعمه الجميلة إلى ما شاء الله تعالى.

من هذا البيت المبارك نحن على موعدٍ مع أول رجاله إسلامًا وإيمانًا بدعوة الحبيب ﷺ إنه ليس الفاروق بل أخوه الأكبر زيد بن الخطاب رضي الله عنه، إنه التقيّ الذي تربَّى في حقل الإسلام، وسُقيَ بماء الوحي المحمدي، فكان زهرةً يانعة طاب ريحها وملأ أريجها أرجاء الكون كله، وما زلنا نشم عطر سيرته حتى يومنا هذا، فقد كان رضي الله عنه من ثلة السابقين الأولين، وثبت على إسلامه ثبات الجبال الرواسي، ولم تلن له قناة مرةً واحدة، ولما أذن الله عز وجل بالهجرة إلى المدينة، كان زيد من المهاجرين الأولين.

كان زيد بن الخطاب رضي الله عنه بطلًا باهرَ البطولة، وكان العمل الصامت الممعن في الصمت جوهر بطولته، وكان إيمانه بالله وبرسوله وبدينه إيمانًا وثيقًا، لم يتخلف عن رسول الله ﷺ في مشهدٍ أو غزوة، وكان في كل المشاهد له مع الرسول القائد صلوات ربي وسلامه عليه لم يكن يبحث عن النصر بل كان يسعى فقط للشهادة في سبيل الله.

ففي يوم أُحد كان له شأن عجيب، إذ تألق بفروسيته ذلك اليوم تألقًا كريمًا، وكان له في هذا اليوم قصة جميلة آسرة للمشاعر، ذكرها ابن سعد في الطبقات وقال: حينما حمى القتال بين المؤمنين والمشركين راح زيد يضرب هنا وهناك يبحث عن الشهادة، وأبصره أخوه عمر بن الخطاب وقد سقط درعه عنه، وأصبح أدنى منالًا للأعداء، فقال عمر لأخيه زيد: خذ درعي يا زيد قاتل بها، فقال زيد: أريد الشهادة مثلما تريد يا أخي، وظل يقاتل بدون درعٍ في فدائيةٍ، لعله يحصل على ما يريد، لكنه لم يحقق ما أراد.

قل لي بربك: بأي الرجلين نعجب بزيد أم عمر؟ إن كل واحد منهما حريص على الشهادة، وعلى أن يحظى بمرضاة الله عز وجل، ويود أن يتخذه الله شهيدًا، لذلك اندفع كلاهما اندفاع الفدائيين، وظل يجاهد بسنانه وسيفه دون درعٍ يقيه ضربات السيوف، وطعنات الرماح والحراب، وانحسرت المعركة عن استشهاد عددٍ كبيرٍ من الصحابة، إلا أن زيدًا كان من الذين أبلوا بلاءً حسنًا، ولم يصب في هذه المعركة التي حرص من خلالها على الشهادة.

وبعد وفاة رسول الله ﷺ ظهرت ردة في القبائل، وكان من أخطرها وأشرسها ردة بني حنيفة تحت قيادة نبيهم المزعوم مسيلمة الكذاب، فرماها خليفة رسول الله ﷺ الصديق بأحد رجالات الإسلام،

عبقري الحرب وسيف الله خالد بن الوليد رضي الله عنه، وبثلة من رجال عصر النبوة الصادقين فأخمدوا نارها، وأسكتوا أُوارها، وقلعوا أنيابها، وأحرقوا إهابها، وكان من بين ليوث الله هؤلاء زيد بن الخطاب رضي الله عنه الذي كان له دور متألق في هذه المعركة الفاصلة التي قضت على المرتدين، وأقضت مضاجع بني حنيفة.

جمع خالد بن الوليد جيش الإسلام ووزَّعه على مواقعه، ودفع لواء المهاجرين إلى زيد بن الخطاب، وبدأ يوم اليمامة مكفهرًا شاحبًا، فتقابل الفريقان المسلمون والمرتدون، وكانوا أكثر من أربعين ألف مقاتل، وكانت معركة حامية الوطيس ثبت فيها المسلمون رغم قلتهم في مواجهة بني حنفية، لكن قاتل بنو حنيفة أتباع مسيلمة قتالًا مستميتًا ضاريًا، ومالت المعركة في بدايتها على المسلمين، وسقط منهم شهداء كثيرين.

ورأى زيد مشاعر الفزع تراود بعض أفئدة المسلمين، فعلا ربوة عالية، وصاح في المسلمين: أيها الناس، عضوا على أضراسكم، واضربوا في عدوكم، وامضوا قدمًا، والله لا أتكلم حتى يهزمهم الله، أو ألقاه سبحانه فأكلمه بحجتي! ونزل من فوق الربوة عاضًا على أضراسه لا يحرك لسانه بهمس.

كان زيد يريد الرجال بن عنفوة هذا الرجل الذي أضل بني حنيفة، فراح يخترق الصفوف كالسهم باحثًا عن الرجال حتى أبصره، وراح يأتيه من يمين، ومن شمال، وكلما ابتلع طوفان المعركة غريمه وأخفاه، غاص زيد وراءه، فيقترب منه زيد ويبسط إليه سيفه، ولكن الموج البشري يبتلع الرجال مرة أخرى، فيتبعه زيد، وأخيرًا يمسك بخناقه ويضربه بسيفه فيسقط الرجال صريعًا على أرض المعركة.

ورغم موت الرجال إلا أن معظم الجيش الإسلامي كان قد فر خارج أرض المعركة، فقال زيد: اللهم إني أعتذر إليك من فرار أصحابي، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء يقصد مسيلمة وبنو حنيفة، ثم حمل خالد بن الوليد على المرتدين حملة خلخلت صفوفهم، وأخذت المعركة تمضي لصالح المسلمين، فرفع زيد ذراعيه إلى السماء يسأل الله الشهادة في هذا اليوم.

وهبت رياح الجنة فملأت نفسه شوقًا، ومآقيه دموعًا، وعزمه إصرارًا، وراح يضرب بكل قوة ضرب الباحث عن مصيره العظيم، وقتل زيد من بني حنيفة في هذا الهجوم اثني عشر رجلًا، فتجمع عليه بنو حنيفة، هنا سقط البطل شهيدًا، وظل يمسك بالراية حتى لا تسقط في أرض المعركة، وحقق الله لعباده المؤمنين النصر الهائل على جموع المرتدين.

كانت اليمامة من أعظم المعارك في حروب الردة، قُضيَ من خلالها قضاءً حاسمًا على المتنبئين في بلاد العرب، ولكن استشهد من المسلمين أكثر من ألف ومائتي رجل، وقد جزع أهل المدينة ومكة لمن استشهد من الصحابة باليمامة، واشتد حزنهم على الشهداء الأبرار، ولم يكن يعدل حزن المسلمين على هؤلاء الشهداء إلا فرحهم بما آتاهم الله من النصر.

كان من بين الشهداء كما ذكرنا زيد بن الخطاب رضي الله عنه، وكان معه في هذه المعركة الحاسمة ابن أخيه عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، بيْد أن ابن عمر عاد من اليمامة بعد أن أبلى بلاءً حسنًا، وبينما عمر يستقبل مع خليفة رسول الله الجنود الظافرين، راح يرمق بعينين مشتاقتين أخاه العائد، اقترب منه عبد الله بن عمر، وقال: لقد مات زيد يا عمر، فقال عمر في حزم ممزوج بالإيمان: ما جاء بك وقد هلك زيد؟ ألا واريت وجهك عني؟ فأجاب عبد الله إجابةً ألبسها البدر رواءه

وأوقد الإيمان فيها أضواءه: والله يا أبت قد حرصت على ذلك أن يكون، ولكن نفسي تأخرت فأكرمه الله الشهادة.

حزن الفاروق على زيد حزنًا شديدًا، وكان يقول: رحم الله زيدًا، سبقني إلى الحسنيين، أسلم قبلي، واستشهد قبلي، وكان يقول: ما هبت الصبا إلا وأنا أجد منها ريح زيد.

لم يغب زيدٌ عن عقل أخيه وقلبه ساعة من نهار، فقد كان يحبه، لا لأنه أخوه فحسب، بل لأنه كان يشبهه في خلْقه وخُلقه، وشجاعته وبطولته، ورحمته وعدله وعفته.

عبرة

يا شباب، الدنيا سوق عباد الله، والتجارة إما مع الله عز وجل، وربحها الحياة الطيبة في الدنيا، والسعادة الأبدية في جنة الله عز وجل في الآخرة، وإما مع الشيطان، وربح هذه التجارة الشقاء والضنك والهم والغم في الدنيا، والشقاء الأبدي، والجحيم السرمدي في الآخرة.

يا أيها الإخوة الكرام، لقد كانت للصحابة رضي الله عنهم مواقف عالية في الثبات والهجوم على الأعداء، وكانت معركة اليمامة معركة هائلة قابل فيها الصحابة ومن معهم قومًا بأسَهم شديد في القتال، ومما يبين بأسهم ما روُي عن خالد بن الوليد رضي الله عنه أنه قال: شهدت عشرين زحفًا، فلم أرَ قومًا أصبر لوقع السيوف ولا أضرب لها ولا أثبت أقدامًا من بني حنيفة يوم اليمامة.

ولعل من أسباب شدة بأسهم أنهم كانوا يقاتلون عن عقيدة، فقد كانوا يؤمنون بنبوة مسيلمة الكذاب، ولكن مهما كانت عقيدتهم فإنها لا تُعدُّ شيئًا أمام عقيدة المسلمين، ولا يمكن أن كون هناك موازنة بين العقيدتين، فلذلك انتصر المسلمون عليهم مع أنهم كانوا أقل منهم عددًا، ويقاتلونهم في بلادهم.

إنـي أهب نفسي لله

هذا الفارس هو الذي شق بسيفه صفوف المشركين في مكة حميةً لرسول الله ﷺ في صحراء مكة، فكان أول من امتشق حسامًا في الإسلام، إنه الفارس الكمي الذي بعثه الفاروق مددًا للمسلمين في مصر، عدَّهُ عليهم بألف فارس، فكان خيرًا لهم من آلاف من الأسود، هذا الفدائي الذي ما عرف تاريخ الفداء فتى أشجع منه شجاعة، ولا أجل تضحيةً، ولا أنبل غايةً، ولا أكثر بركة على الإسلام منه.

ضيفنا في هذه السطور، عملاق كان سيفًا مسلولًا على الأعداء، كان خير من رمى بسهم، وطعن برمح، وخير رجلٍ وهب نفسه وماله لله عز وجل، أو حبسه لصالح المسلمين في يوم كريهة، أو سد خلة أو في مؤنة قتال، كان يحب الشهادة في سبيل الله، ويبحث عنها في مظانها، حتّى إنه من حبه للشهادة كان يُسمي أولاده بأسماء الشهداء.

نحن على موعدٍ مع رجلٍ صاحب سيرة رائقة ترتاح لسماعها الأرواح، وترتع النفوس منها في مراتع الارتياح، من هؤلاء الذين أرادوا أن يضربوا بسهم وافر في التضحية والفداء، إنه صحابي فريد، ذو شخصية عظيمة، اجتمعت فيه كل صفات الخير، فهو بطل من أعظم أبطال الحروب، وفدائي من أعظم الفدائيين، لئن سألت الناس عنه في زماننا هذا لما عرفه إلا القليل، وهذه مصيبة كبرى من مصائبنا؛ إذ كم للإسلام من أبطال عُميت سيرتهم على أكثر أهل زماننا هذا.

نحن نلتقي مع البطل المقدام، والفارس الهُمام، والصائم القوام، الفدائي الذي ملأ ساحات الوغى فداءً وتضحيةً، إنه الفتى الذي بذل الكثير والكثير في سبيل الله، فجعل نفسه وماله وقفًا لله جل وعلا فأكرمه الله ورفعه في الدنيا والآخرة، حمل لقب فارس رسول، نحن في ضيافة حواري رسول الله الزبير بن العوام رضي الله عنه.

ظلَّ الزبير بن العوام رضي الله عنه سيفًا مسلولًا طوال حياة رسول الله ﷺ، فلم يتخلف عن غزوةٍ غزاها الرسول القائد صلوات ربي وسلامه عليه قط، وقد تحمل في سبيل ذلك ما شاء الله أن يتحمل، حتى إنه لم يبقَ عضو من أعضائه الظاهرة أو المستورة إلا وقد جُرح مع رسول الله ﷺ في المعارك.

ولو رحنا نستقصي صور بطولة الزبير بن العوام بعد وفاة النبي ﷺ لوجدناها لا تقل تألقًا وروعةً عما كانت عليه في عهد الرسول القائد ﷺ، وحسبُنا من هذه الصور المشرقة الوضاءة، ما كان منه يوم فتح مصر.

لقد قصد الأمير عمر بن العاص رضي الله عنه مصر لفتحها في ثلاثة آلاف وخمسمائة بطل من أبطال الإسلام، فما إن أوغل هناك في قلب مصر حتى وصل أمام حصن بابليون المنيع الذي تحصن فيه الروم لمدة سبعة أشهر، وقد عجز جيش عمرو بن العاص من إحداث أي اختراق للحصن، وكان هذا الحصن الفاتحة الحقيقية لمصر، فلما أبطأ الفتح بعث عمرو بكتابٍ إلى الفاروق يعلمه بالأمر، ويستمده بما يفيض عن حاجته من الجند.

عندها قرر الفاروق أن يحل هذه المشكلة، فتلفت الفاروق عمر حوله فلم يجد خيرًا من الزبير بن العوام يبعث به مددًا لجيش المسلمين في مصر، وكان الزبير يومئذ قد عزم على غزو أنطاكية في

أرض الشام، فقال له عمر: يا أبا عبد الله، هل لك في ولاية مصر؟ فقال: لا حاجة لي فيها، ولكن أخرج مجاهدًا لله، معاونًا للمسلمين، فإن وجدت عمرًا قد فتحها، لم أعرض لعمله، وقصدت إلى بعض السواحل فرابطت فيها، وإن وجدته في جهادٍ كنت معه.

فجهز الخليفة الجيش، وكتب إلى عمرو بن العاص يقول: أما بعد فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر، وأنتم تقاتلونهم منذ سنين، وما ذاك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم، وإن الله تعالى لا ينصر قومًا إلا بصدق نياتهم، وقد أمددتك بأربعة آلاف رجل، على كل ألف رجل مقام ألف رجل، وكانوا هم الزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد رضي الله عنهم.

ومن الشام إلى مصر تحرك الجيش الذي بين صفوفه رجل المهمات الصعبة الزبير بن العوام رضي الله عنه، ولما قدم الزبير على عمرو، وجدهُ ما زال يحاصر حصن بابليون، فركب جواده وطاف حول أسوار الحصن، ثم حدد لرجاله أماكنهم، وطال حصار حصن بابليون، وجعل الناس يقولون: إن في الحصن طاعونًا، فقال الزبير: إنما جئنا للطعن والطاعون، ومع ذلك لم يستطع المسلمون فتح هذا الحصن الهامة، فقال الزبير رضي الله عنه: إني أهب نفسي لله، وأرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين.

أعدَّ الزبير سلمًا وثيقًا متينًا، وأسنده إلى جدارٍ من جدران الحصن من ناحية سوق الحمام، وأمر رجاله إذا سمعوا تكبيره أن يُجيبوه جميعًا بصوتٍ واحد وأن يلحقوا به، وما هو إلا قليلٌ حتى امتشق الزبير سيفه، وصعد درجات السلم في طرفة عين، حتى تفاجأ الروم بفارس عظيم البنيان مفتول العضلات، يتسلق الحصن كأنه ماردٌ يشق الأسوار شقًا بيديه، وما هي إلا ثوانٍ معدودة حتى أصبح ذلك العملاق الإسلامي فوق أعلى نقطة في الحصن، وعند هذه اللحظة رفع هذا الأسد المغوار سيفه في عنان السماء، وصاح بصوتٍ زلزل الأرض كهزيم الرعد: الله أكبر، الله أكبر.

فانطلقت وراءه آلاف الحناجر تردد الله أكبر، الله أكبر، فزلزل دويها قلوب الروم، وهرع الجنود من ثكناتهم من هول ذلك المنظر العجيب، فألقى الزبير بنفسه داخل الحصن، وتتابع جندُ المسلمين على إلقاء أنفسهم وراءه، وأعملوا سيوفهم في رقاب الروم الذين أذهلتهم المفاجأة، وعمد الزبير وأصحابه إلى باب الحصن، ففتحوه، فاقتحمته جموع المسلمين، وانقضوا على عدوهم انقضاض الصاعقة، فهزموه شر هزيمة، وكتب الله النصر لجنده.

عبرة

يا أيها الإخوة الكرام، بهذه المغامرة الجريئة للزبير بن العوام رضي الله عنه تم الفتح الذي طال انتظاره على يد ليثٍ من ليوث الإسلام، وبطل من أبطاله العظماء، فلقد باع الزبير نفسه رخيصة لله تعالى، وفدى بها إخوانه، فصعد إلى أعلى السور بمفرده، وفي ذلك من الأخطار ما لا يتصور قدره، فإن الاحتمال المتبادر في ذلك أن يكون عرضًا لسهام الأعداء حتى يُردوه قتيلًا، ولكن الله تعالى أراد أن يكون الفتح على يديه؛ فأعمى بصائرهم عنه، وذهلوا بسماع التكبير الذي هو أقوى على الأعداء، وأنكى بهم من القذائف الفتاكة.

ولعلهم رأوا أنه من المستحيل أن يفادي رجل بنفسه فيصعد وحده فوق السور، فإنهم لم يروا في حياتهم من يرخص نفسه بهذه الصورة المذهلة، فتوقعوا أن المسلمين استطاعوا أن يصعدوا السور، وأن هذا الذي بدا لهم ما هو إلا طليعة المتسلقين، خصوصًا أن الأرض قد ارتجت من تكبير المسلمين، ففضلوا السلامة، ولاذوا بالفرار.

أيها الإخوة الكرام، ما دام الإنسان مخلوقًا للدار الآخرة وللسعادة الأبدية، فأثمن شيء في هذه الدنيا أن يرضى الله عنه، وهو الذي سوف تكون في رحابِهِ إلى أبد الآبدِين، حيث كان الأمر مع الصحابة رضي الله عنهم بِنَصِّ القرآن الكريم، قال تعالى: (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيباً) (الفتح: ١٨).

يا شباب، نحن إذا درسنا أفعال الصحابة ومواقفهم وصفاتهم وسجاياهم وتَضحياتهم لا نقصد من هذه الدراسة مجرد الاطّلاع، ولكن نقصد أن نتأسى بهم، وأن نقتَدِي بهم، وأن نجعلهم مثلًا عليا لنا، فَلذلك حينما ندرس تاريخ الصحابة ينبغي أن تبقى هذه الفكرة ماثلة في أذهاننا.

الشهيد.. الذي لم يركع لله ركعة واحدة!!

الله تبارك وتعالى هو رب كل شيء، وهو الذي يستحق وحده العبادة، وهو الذي يستحق الخضوع والتعظيم، وهو الأولى بالحب، فقد قال تعالى:(قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ) (الأنعام: ١٦٤) لذا يجب علينا التسليم الكامل لله تبارك وتعالى في كل أمر من الأمور، والاستعانة بالله وحده في كل النوازل، وغاية المسلم التي يسعى إليها في هذه الحياة هي رضا الله عز وجل عليه، وذلك لا ينال إلا بقصده تعالى وحده والإخلاص له، والمسلم الذي يسعى إلى رضا الله لا بُدَّ أن يكون أمامه هدف واضح يجد في السعي إليه، ويسابق العمر في تحصيله، ومن ثم يدرك أنه لن يصل إلى غايته إلا بالإخلاص لله تعالى وحده.

ضيفنا في هذه السطور عملاق عظيم لم يعِش بعد إسلامه إلا ساعات وفاز بالشهادة، بطل سطَّر يوم أُحد أروع البطولات في عالم الفروسية، وكانت بطولته يومئذ من أرفع بطولات الأبطال، فقد كان يقاتل قتال الليوث المغاوير، ويندفعُ إلى جيش قريش فيبدِّد جموعهم، وهو يغامر مغامرة منقطعة النظير، فينكشف عنه الأبطال والكماة الشجعان، ويتطايرون أمامه كما تتطاير أوراق الخريف أمام الرياح العاتية.

نحن على موعدٍ مع رجلٍ شق طريقه إلى الجنة دون أن يصلي في الإسلام صلاة واحدة، لقد أخلص لله وحده فكان من الفائزين، نحن نلتقي مع الصحابي الجليل عمرو بن ثابت رضي الله عنه، ولقبه أصيرم بن عبد الأشهل، ونتعايش مع موقفه البطولي يوم أُحد، فتعالوا بنا لنتجول بين صفحات التاريخ لنتعايش بقلوبنا وأرواحنا مع مشهد فريد عظيم لهذا الصحابي المحظوظ.

لقد نجح أول سفراء الرسول ﷺ مصعب بن عمير رضي الله عنه نجاحًا منقطع النظير في الدعوة إلى الله في يثرب، ولقد أسلم على يد هذا الداعية الفذ خلق كثر من الأنصار، فأسلم جميع بني عبد الأشهل في يومٍ واحد الرجال والنساء، أما عمرو بن ثابت رضي الله عنه فكان يأبى الإسلام.

وتمضي الأيام والأعوام، ويهاجر الرسول الكريم ﷺ وصحبه رضي الله عنهم إلى المدينة، وتتلمظ قريش بأحقادها، وتُعدُّ عدة باطلها، وتواصل مطاردتها الظالمة لعباد الله الصالحين، وتقوم غزوة بدر، فيتلقون فيها درسًا يفقدهم بقيةَ صوابهم، ويسعون إلى الثأر، وتجيء غزوة أُحد، ويعبئ المسلمون أنفسهم، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى أُحد، قذف الله الإيمان في قلب عمرو بن ثابت، فأسلم ثم أخذ سيفه فلحق بالجيش عند جبل أحد، فقاتل حتى أثبتته الجراحة.

وبعد المعركة أخذ بنو عبد الأشهل يتفقدون أرض المعركة، يودعون شهداءها، وإذا هم عند جثمان عمرو بن ثابت رضي الله عنه، وكان به رمق يسير، قالوا: إن هذا الأصيرم ما جاء به إلى المعركة؟ لقد تركناه وإنه لمنكر لهذا الأمر يعني الإسلام، فسألوه ما الذي جاء بك يا صيرم؟، أحدب على قومك أي حامية لهم أم رغبة في الإسلام؟

قال: بل رغبة في الإسلام، لقد آمنت بالله ورسوله، وأسلمت ثم أخذت سيفي فغدوت مع رسول الله ﷺ، ثم قاتلت مع رسول الله ﷺ رغبة في الجنة، حتى أصابني ما ترون، ثم لم يلبث إلا قليل حتى

فاضت روحه في أيديهم، فذكروه لرسول الله ﷺ، فقال: هو من أهل الجنة! فقال أبو هريرة: مات ولم يصل لله صلاة قط.

الحقيقة يا إخوة أن الحديث عن الصحابة ممتع، والحديث عن الشهادة ممتع كذلك، لكن الحقيقة عندما يتعرَّض الإنسان للخطر يعرف حجمه الحقيقي من بين هؤلاء الأبطال، فالكلام سهل لكن الإنسان عندما يشعر أنّ أجله قد اقترب يختل توازنه، فهؤلاء الصحابة رضي الله عنهم باعوا أنفسهم في سبيل الله.

عبرة

يا شباب، في هذا الخبر مثل واضح على أثر الجهاد في الإيمان بالله تعالى، فهذا الأصيرم عمرو بن ثابت كان قبل أُحد منكرًا للإسلام مباعدًا لقومه من المسلمين، فلما علم من غزو الكفار للمسلمين في بلادهم، لا طمعًا في بلادهم وأموالهم، وإنما فقط ليصرفوهم عن دينهم؛ عظم هذا الدين في نظر الأصيرم فدخل قلبه حب الإسلام، وكان إيمانه قويًا إلى الحد الذي حمله على المشاركة في الجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام، فلحق بقومه في أُحد وقاتل الأعداء حتى استشهد رضي الله عنه.

يا شباب، لقد كان في حس الأصيرم وأمثاله أن دينًا يحمل معتنقيه على التضحية بالأنفس والأموال من أجله، ويحمل أعداءه على تجييش الجيوش من أجل القضاء عليه؛ إنه دين عظيم في غاية الجلال والعظمة، وإن أدنى ذلك أن يسارع المقتنعون بعظمته إلى اعتناقه، ثم أن يبذلوا وسعهم وطاقتهم في الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله.

أسد الأنصار يوم اليمامة

المسلم إنسان تتكامل فيه جوانب الشخصية المثالية، فلا تعارض بين قوله وفعله، ولا تناقض بين سلوكه وفكره، بل هو إنسان يتوافق فيه القلب واللسان مع سائر أعضائه، كما يتناسق لديه العقل والفكر والعاطفة، وتتوازن عنده الروح والجسد، ينطق لسانه بما يعتقد، وتنعكس عقيدته على جوارحه، فتقوم سلوكه، وتسدد تصرفاته، فلا تتملكه الشهوة، ولا تطغيه بدعة، ولا تهوى به متعة، منطلقه في جميع شؤونه وأحواله شرع الله تعالى الحكيم، وهكذا كان أصحاب محمد ﷺ هذا الجيل الرباني الفريد.

ضيفنا في هذه السطور، كان من المسارعين إلى نُصرة الإسلام في كل موطن يحتاج فيه إلى النُصرة، وكان من هؤلاء المغاوير العظماء الذين لهم أياد بيضاء في أنصع صفحات التاريخ، فهو من أقوام هانت عليهم أنفسهم في سبيل الله، فلم يلتفتوا إلى أجسادهم، وإنما اهتموا بأرواحهم، فهو عملاق أعجوبة من أعاجيب الدهر، ونادرة من نوادر الزمان، وبطل عظيم من أبطال الأنصار.

نحن على موعدٍ مع رجلٍ غير معروف لدى كثيرٍ من المسلمين، لكن يكفيه أن يكون معروفًا عند رب العالمين، فلقد تعايش رضي الله عنه مع الإسلام قَلبًا وقالبًا، وامتلأ قلبه ثقة بنُصرة هذا الدين، فبذل كل ما يملك في سبيل نُصرة دينه، ثم قدَّم روحه فداءً لعقيدته، نحن نلتقي مع أسد الأنصار يوم اليمامة الصحابي الجليل أبي عقيل الأنيقي عبد الرحمن بن عبد الله ابن ثعلبة الأنصاري رضي الله عنه، ونحن في هذه السطور نعيش مع الموقف الأسطوري العظيم لهذا البطل الكبير، فتعالوا بنا لنرى المشهد الختامي لهذا العملاق الكبير.

كان أبو عقيل عبد الرحمن بن عبد الله بن ثعلبة رضي الله عنه أحد السابقين للإسلام في يثرب، إذ ما كاد يستمع إلى آيات الذكر الحكيم يرتلها الداعية المكي الشاب مصعب بن عمير رضي الله عنه بصوته الشجي وجرسه الندي حتى أسر القرآن سمعه بحلاوة وقعه، وملك قلبه برائع بيانه، وخلب لبه بما حف به من هدي وتشريع، فشرح الله صدره للإيمان، وأعلى قدره، ورفع ذكره بالانضواء تحت لواء نبي الإسلام.

ولما قدَم الرسول ﷺ إلى المدينة مهاجرًا استقبله أبو عقيل في كوكبة كبيرة من فرسان قومه أفضل استقبال، ورحب به وبصاحبه الصديق أجمل ترحيب، ولكن تمضي الأيام والأعوام وتصعد روح النبي ﷺ إلى ربها، وبعد أن مات رسول الله ﷺ ارتدت كثيرٌ من القبائل العربية التي لم تكن متعودة على الوحدة، واعتبرت أن مشروع الوحدة انتهى بانتهاء حياة النبي ﷺ، وكان أكثرهم خطرًا على الإسلام بنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب.

استفحل أمر مسيلمة واشتد، فقد اجتمع له أربعون ألفًا من قومه بني حنيفة، وظاهرهم نحو عشرين ألفًا من الأحلاف، فكان جيشه أعظم جيش عرفته العرب حتى ذلك اليوم، وكان في الوقت نفسه، يزيد أضعافًا مضاعفة على جيش خليفة المسلمين الصديق رضي الله عنه، لكن كان على رأس ذلك الجيش البطل الصنديد خالد بن الوليد رضي الله عنه.

التقى الجمعان على أرض اليمامة، فصف مسيلمة جنوده بعقرباء، وجعل وراء الجيش النساء، والأطفال، والأموال، وصف خالد جنوده في قبالة جيش عدوه، ووقف الجيشان يتربصان الأمر بالهجوم الكاسح، وكان كل من الفريقين يرى عين اليقين أن هذه المعركة، إنما هي معركة فناء أو بقاء، اشتبك الطرفان، وقاتل المرتدون بشراسة، وانصب بنو حنيفة على صفوف المسلمين انصباب الصخور، وتدفقوا عليهم تدفق السيل، وكانت كسرًا عظيمًا للمسلمين كادت أن تقضي عليهم، وأزيل خالد بن الوليد عن فسطاطه، ووقعت زوجته أم تميم في قبضتهم، فهموا بقتلها، لولا أن أجارها رجل منهم.

كان أول من أصيب في المعركة أبو عقيل رضي الله عنه بسهم في كتفه شلَّ حركته، فوقف هذا البطل المغوار على قدميه ليسحب السهم من كتفه، فسالت دماؤه كشَلالٍ متفجر، فحمله عبد الله بن عمر رضي الله عنهما إلى خيمة العلاج مغشيًا عليه.

تلقى خالد الصدمة رابط الجأش ثابت الجنان، فصاح في الجيش: امتازوا أيها الجند، امتازُوا ليعلم بلاء كل فريق منكم، وليعرف المسلمون من أين أُتوا، فجرت صيحة خالد بن الوليد حمية المسلمين لدين الله، وأججت أشواقهم إلى الاستشهاد في سبيل الله، ورفعت عن أعينهم الحجُب، فرأوا قصور الجنة مفتحة الأبواب لاستقبال الشهداء، عند ذلك برزت في صفوف المسلمين بطولات لم تخطئ يد التاريخ أجلّ منها وأعظم، وظهرت في جند الله بطولات لم تكن أسفاره أعز منها ولا أكرم.

وكان في طليعة هؤلاء الأبطال أبو عقيل الأنصاري رضي الله عنه الذي سمع من خيمة العلاج صوت معن بن عدي الأنصاري رضي الله عنه يقول: الله الله يا معشر الأنصار، الكرة الكرة على عدوكم يا من نصروا رسول الله ﷺ، عندها فتح أبو عقيل عينيه، وكأن زلزالًا أصابه، فتحامل على ساقيه يريد الوقوف والوصول إلى سيفه، فقال عبد الله بن عمر: ماذا تريد يا عم؟! فقال: ألم تسمع المنادي ينادي باسمي؟!! قال عبد الله: إنما يقول يا أهل الأنصار، ولا يعني الجرحى، فقال أبو عقيل: أنا من الأنصار وأنا أجيبه والله ولو حبوًا.

تحزم أبو عقيل، وأخذ السيف بيده اليمنى، وخرج وهو ينادي بصوتٍ كالرعد: يا أهل الأنصار كرة كيوم حنين، يا للأنصار كرة كيوم حنين، فاجتمع الأنصار حوله، وتراصوا، وتقدموا المسلمين، وتفانوا حتى أقحموا مسيلمة ومن معه حديقة الموت، وكان أبو عقيل عند باب حديقة الموت، وقد قطعت يده من المنكب، ووقعت على الأرض، وبه من الجراح أربعة عشر جُرحًا كلها مُميت، فوقف عليه ابن عمر وهو صريع بآخر رمق وقال: يا عم أبو عقيل، فقال بلسان مُلتاث: لبيك يا ابن أخي، ثم قال لمن الهزيمة اليوم، فقال ابن عمر: أبشر، فقد قتل عدو الله وعدو رسوله ﷺ، فرفع إصبعه إلى السماء يحمد الله عز وجل ، ويثني عليه، ثم لفظ آخر أنفاسه.

عبرة

يا شباب، لا شك أن هذه التضحيات الضخمةَ التي قدمها هؤلاء الصحابة ومن والاهم، والمغامرات الجريئة التي خاضوها مع أولئك المرتدين كان لنتائجها الباهرة أبلغُ الأثر في خضوع قبائل الجزيرة العربية لدولة الخلافة، فإن رؤوس زعماء هذه القبائل طغيانًا يرون بسببه أنهم أعلى شأنًا من ورثة النبوة، ولو أن هذه القبائل بايعت دولة الخلافة وفي رؤوس قادتها هذا الطغيان فإن الأمور لا تنتظم

لدولة الخلافة، ولن تتوافر الطاعة التامة من جميع قبائل العرب على النحو الذي تم بعد حروب الردة في فتوح الشام والعراق.

لقد كان هؤلاء الصحابة الأماجد الذين استشهدوا وشرُفت بهم بطاح اليمامة، والذين بقوا على الحياة بعدما أبلوا بلاءً عظيمًا هم الصخرة الصلبة التي تحطمت أمامها أحلام طغاة الكفار، ومن ورائهم شياطين الجن الذين زينوا ركوب الضلالة، وأعوانهم الذين روجوا بضاعتهم الدنيئة أمام عوام الناس وبسطائهم.

الشهيد المجهول

ضيفنا في هذه السطور، رجل من خيرة الرجال، وبطل من أعظم الأبطال، طوى التاريخ نسبه ولكنه خلد ذكره، ولم يعرف أصحاب السير له نسبًا ولا حسبًا، لماذا؟ لا ندري، هل كان ذلك غفلة منهم إذا لم يكن راويًا للحديث، أم لم يطل عمره، أم كان ممن قال فيهم الرسول ﷺ: رب أشعث أغبر ذي طمرين مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره؟ كل ذلك أو بعضه كان، ولكن الرجل يعرف بأدبه وحسن خلقه وصلاح دينه، ويذكر بما قدَّمه لدينه، ولأمته من عطاء، ومن المعلوم أن الإسلام قد سوى بين الناس في الحقوق العامة، ولم يجعل لأحدٍ على أحدٍ فضلًا إلا بالتقوى والعمل الصالح.

وكم شهد تاريخ الإسلام من أفرادٍ حرموا كثرة المال، ومسحة الجمال، ومع ذلك سابقوا فسبقوا، وسادوا فقادوا، لأن المرء بأصدقيه قلبه ولسانه، ولأن الإنسان بحاله وفعاله لا بشكله وجماله، ولأن الاعتداد عند رب العالمين ليس ببياض البشرة، ولا جمال الصورة، ولا ضخامة الثروة، ولا نسب الأسرة، ولا ذيوع الشهرة، وإنما الاعتداد عنده بطيب العنصر، وسلامة الجوهر، وصفاء المخبر، وقد قال الله تعالى: (يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) (الشعراء: ٨٨، ٨٩).

وكم من مظاهر براقة خادعة، تستر وراءها قبائح مفزعة، وكم من شخصٍ غلبت دمامته على وسامته، ومع ذلك حسنت أعماله فزادت أفضاله، والعبرة ليست بعلو النسب والحسب، ولكن بكرم الأخلاق والأدب، فاعلم يرحمك الله أن مارد كمال النفوس وتفاوت الأشخاص هو التقوى، فمن أراد نيل الدرجات العلى فعليه بها.

وجليبيب الأنصاري رضي الله عنه صحابي جليل أحب الله ورسوله، وأحبه الله ورسوله، وكان الرسول ﷺ وحده هو الذي يعرف قدره بنور النبوة، فيحييه إذا حضر، ويسأل عنه إذا غاب، ويتتبع خطواته المباركة أينما سار، ويتفقد أحواله ويوصيه بما ينفعه في دينه ودنياه، ولا ينسى أحد موقف الرسول الكريم في غزوة خيبر مع هذا الصحابي الجليل، فتعالوا بنا لنتعرف على هذا المشهد الجليل.

لم يمض على زواج جليبيب إلا أيام معدُودات وقيل في نفس اليوم، حتى دعا الرسول القائد ﷺ الناس لخروج لغزوة خيبر معه، فبادر جليبيب إلى تلبية دعوة النبي ﷺ، وجهز نفسه، وودع عروسه، ومضى في صحبة الرسول الأعظم ﷺ، ولما انتهت المعركة بنصر حاسمة للمسلمين قال ﷺ:

هل تفقدون أحد، قالوا: نعم فلانًا وفلانًا، ثم قال: هل تفقدون أحد، قالوا: نعم فلانًا وفلانًا، ثم قال: هل تفقدون من أحد، قالوا: لا، يا رسول الله ﷺ، قال رسول الله: لكني أفقد جليبيب، فطفق صحابة رسول الله ﷺ يبحثون عن جليبيب في ساحة المعركة، فإذا هو قد أردى سبعة من المشركين بسيفه، ثم خر صريعًا إلى جنبهم، وهو مقبل غير مدبر، فرجعوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا: ها هو جليبيب إلى جانب سبعة قتلهم ثم قتل.

فقام إليه الرسول الكريم ﷺ، ووقف عليه وقال: قتل سبعة ثم قتلوه، هذا منِّي وأنا منه، ثم أمر ﷺ بأن يحفروا له قبرًا، فلما أتمُوا حفر القبر، قام إليه النبي الكريم ﷺ وحمله على ساعديه، ليس له إلا ساعد النبي ﷺ،

فوضعه بيديه الشريفتين في قبره، وأهال عليه التراب، والنبي ﷺ يبكي.

عبرة

يا شباب، كان النبي ﷺ لا ينسى أصحابه رضي الله عنهم حتى المغمورين منهم الذين لا يؤبه بهم إذا حضروا، ولا يفقدون إذا غابوا، فقد سأل النبي ﷺ عمن استشهد من أصحابه، وكان في باله جليبيب، فلما لم يذكره أصحابه لعدم شهرته فيهم ذكره لهم وكلفهم بالبحث عنه، فلما رأى آثار بذله طاقته وتضحيته بنفسه في سبيل الله أثنى عليه بذلك الثناء العظيم، حيث حكم له بالاستقامة التامة على منهجه وأعلن الرضا عنه.

أما جليبيب يا إخوة فقد أبى الله إلا أن يرزقه الشهادة في سبيله ليزوجه من الحور العين، فإنه ما إن سمع منادي الجهاد: يا خيل الله اركبي، وكان في هذا اليوم سيدخل على عروسه الجميلة، فتركها، ولم يدخل عليها، وآثر الجهاد في سبيل الله ففاز بالشهادة ليزوجه الله من الحور العين.

روائع الإيمان في حياة الصحابة

يا رب هل قبلت توبتي

بلا شك أن صاحب الإيمان يكون قويًا، وذلك لأنه يلجأ إلى القوى، وهذه صفة من صفات الله عز وجل ، يركن إليه ولا يخاف من أحدٍ سواه؛ فهو صاحب الحماية ومنه الهداية، كما يحرر النفس من سيطرة الغير، وذلك أن الإيمان يقتضي الإقرار بأن الله هو المحيي المميت، الخافض الرافع الضار النافع، فمتى دخل الإيمان إلى قلب المسلم أورث صاحبه قوةً كبيرة، وذلك لأنه يركن إلى الله تبارك وتعالى القوي المتعال، الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، كما أن الإيمان يجعل المؤمن يشعر بالعزة والاستعلاء والمنعة، حقًّا إن العزة الحقيقية تكمن في أصحاب الإيمان، ولقد ربى النبي ﷺ الصحابة على العزة، ذلك أن العز الحقيقي في جوار الله تبارك وتعالى، فلذلك خرج هذا الجيل الفريد على هذه الصورة.

لذلك لم يكن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحمل مسؤولياته حمل رجلٍ مفتون بنبوغه، صلف بمكانه، مستعل بسلطانه، بل كان يحملها بضمير الأمين على العهد، الباحث عن الحق، فلم يكن حاكمًا عادلًا فحسب، بل هو معلم كبير، وصاحب مهارة بالغة في صقل الجوهر الإنساني وبعث قواه، فأي أثر باهر يتركه موقف كالذي سنراه في أفئدة الناس؟ وأي طمأنينة غامرة يملأ بها القلوب حاكم هذا سلوكه؟ ولكن، لم لا يفعل عمر هذا وأكثر، وهو تلميذ رسول الله ﷺ؟

كانت الرحمة في قلب عمر شعورًا جارفًا بالتبعة التي ألقيت على عاتقه، وحس مرهف يحمله على تتبُع أحوال الرعية، والوقوف على أحوالهم، والنظر الدؤوب في حوائجهم، حتى يعطي كل ذي حقٍ حقه من غير إبطاءٍ ولا تقصير، فقد كان رضي الله عنه يمشي ليلًا في شوارع المدينة يتحسسُ الأخبار، ويتفقد الزوار من التجار وغيرهم، فينظر في حوائجهم، وربما يبيت في حراستهم إذا اقتضى الأمر ذلك، ومعه من يعينه من خيرة أصحابه، الذين كانوا لا يدخرون وسعًا في طاعته وخدمته، والقيام بما يكلفهم من غير كلل ولا ملل، حسبة لله تعالى.

وفي يوم قدمت رفقة من التجار إلى المدينة، وكان الفاروق يقوم بجولةٍ تفتيشية في أطراف المدينة، فاصطحبَ معه عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ليتفقد أمر القافلة، وكان الليل قد تصرم، واقترب الهزيع الأخير منه، وعند القافلة النائمة اتخذ عمر وصاحبه مجلسًا على مقربةٍ منها، وقال عمر لعبد الرحمن: فلنمض بقية الليل هنا نحرس ضيوفنا.

يا إخوة عمر الخليفة العظيم جلس ليحرس هذه القافلة، ويحرس أموالها، وهما جالسان سمعا صوت بكاء صبي، فانتبه عمر وصمت، وانتظر أن يكُفَّ الصبي عن بكائه، ولكنه تمادى فيه، فمضى يسرع صوبه، وقال لأمه: اتقِ الله، وأحسني إلى صبيك، ثم عاد إلى مكانه، وبعد حينٍ عاود الصبيُّ البكاء، فتوجه إليها، ونادى أمه، وقال: اتقِ الله، وأحسني إلى صبيك، وعاد إلى مجلسه، ولم يكد يستقر في مجلسه، حتى زلزله مرة أخرى بكاء الصبي، فذهب إلى أمه، وقال لها: ويحك إني لأراكِ أم سوء، ما لصبيك لا يقرُّ له قرار؟ أي لمَ لا ترضعيه؟

قالت وهي لا تعرفه: يا عبد الله قد أضجرتني، إني أحمله على الفِطام فيأبى، فسألها: ولمَ تحملينه على الفِطام؟ قالت: لأن عمر لا يفرض العطاء إلا للفطيم، قال: وكم له من العمر؟ قالت: بضعة أشهر، قال:

ويحك لا تعجليه.

يقول صاحبه عبد الرحمن بن عوف: وكأن عمر قد صُعق، وأمسك رأسه بيديه، وأغمض عينيه، وقال: ويحك يا ابن الخطاب، كم قتلت من أطفال المسلمين؟!

عد نفسه قاتلًا، لأنه أمر أن ينفق التعويض على هذا الغلام بعد الفطام، إذًا أكثر الأمهات يحملن أطفالهن على الفِطام قبل الأوان من أجل أن تأخذ الأم تعويض غلامها.

فلما عاد وصلى الفجر بالناس ما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء، فلما سلم، أمر مناديًا نادى في المدينة: لا تعجلوا على صبيانكم بالفطام، فإنا نفرض من بيت المال لكل مولودٍ يولد في الإسلام من دون فطام، وكان يقول: يا بؤسًا لعمر! كم قتل من أولاد المسلمين؟ ويذكر بعض المؤرخين أنه كان يقول: ربي هل قبلت توبتي فأهنئ نفسي أم رددتها فأعزيها؟

عبرة

يا شباب، ما أجملها من حادثة، وما أعظمها من عدالة، وبذلك أصبح كل مولود مسجلًا في ديوان العطاء، ويفرض له من بيت مال المسلمين، لأَنَّ بيت المال حقٌ لكل مسلم، ولأن المسؤول عنه إنما هو أمينٌ، وقائمٌ عليه، لا يجوز له أن يصرف منه شيئًا في غير محله، ولا أن يمنع منه حقًّا وجب فيه.

كان عمر هذا الصحابي الجليل له ورع لا حدود له، يحاسب نفسه حسابًا عسيرًا، ويشعر أنه كلما كان منزهًا عن أيةِ شبهة، كلما كان أقرب إلى الله سبحانه وتعالى، فها هو يسطر على جبين التاريخ صفحاتٍ مضيئة تتألق روعةً وجمالًا وإجلالًا من الورع والخوف من الله عز وجل، فهذه صورة مشرقة من رحمة الفاروق رضي الله عنه، وشفقته برعيته التي عاشت في ظل خلافته الراشدة.

إن مفتاح شخصية الفاروق إيمانه بالله تعالى، والاستعداد لليوم الآخر، وكان هذا الإيمان سببًا في التوازن المدهش والخلاب في شخصية الفاروق رضي الله عنه، ولذلك لم تطغ قوته عدالته، وسلطانه على رحمته، ولا غناه على تواضعه، وأصبح مستحقًا لتأييد الله وعونه.

الفاجعة الكبرى والصديق

لأبي بكر الصديق رضي الله عنه فضل عليَّ وعليك، وعلى سائر المسلمين، بل وعلى سائر البشر، ألا وهو وقوفه حائلًا منيعًا أمام انحدار العنصر البشري إلى ظلمات الجهل والتخلف بعد انقطاع الوحي السماوي، وانتهاء زمن الأنبياء والرسل إلى يوم القيامة، ولما كانت رسالة النبي محمد ﷺ هي آخر رسالة تُبعث للبشر، أصبح ضياع هذه الرسالة أو تحريفها ضياعًا لمستقبل البشر، والحقيقة أن ذلك كاد أن يحدث بعد وفاة النبي ﷺ لولا أن سخر للبشر رجلًا هو من أعظم رجال البشر بعد الأنبياء والرسل، نعم إنه العملاق العظيم بعد موت حبيب روحه ورفيق دربه، هذا الرجل الذي قال عنه المؤرخون: أنه المؤسس الثاني لدولة الإسلام.

كان الموقف الذي لا يُنسى للصديق رضي الله عنه، والذي عصم الله به المسلمين من الشتات يوم توفي النبي ﷺ أنا أعتقد أنه ما من أحدٍ على وجه الأرض يحب النبي ﷺ كما يحبه الصديق رضي الله عنه، ومع ذلك فإن هذا الخبر، خبر موت النبي ﷺ لم يحتمله أحد من أصحاب رسول الله، فعمر هذا العملاق كذَّبه، وكان الصديق في بعض شأنه في أطراف المدينة يوم تُوفي النبي ﷺ.

فعمر رضي الله عنه حينما علِم بنبأ الوفاة، قال كلامًا وقد اختل توازنه: إن رجالًا من المنافقين يزعمون أن رسول الله مات، وإنه والله ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، والله ليرجعن رسول الله فليقطعن أيدي رجالٍ زعموا أنه مات، ألا لا أسمع أحدًا يقول: إنه مات، إلا فلقت هامته بسيفي هذا.

هذا كان موقف الفاروق عمر، شيء غير معقول، أيموت رسول الله؟!

أما الصديق وهو في طريق العودة إلى مسجد النبي ﷺ سمع النبأ في الطريق،

فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله، ولم يكلم الناس، ودخل على النبي ﷺ وهو مُسجى على فراشه، فكشف عن وجهه، ثم قَبَّله، وقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، طبت حيًا وميتًا، أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدًا، يا رسول الله اذكرنا عند ربك.

ثم خرج وعمر يكلم الناس، فدعاه للسكوت فأبى أن يسكت، وتابع عمر كلامه، فقال الصديق: أيها الناس، فلما رأى الناس الصديق يتكلم أنصتوا، وأقبل على الناس يكلمهم فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال أيها الناس: من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، فهو واقعي وعاقل ومتماسك القلب والنفس، ومَن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، والأصل هو الله، الله حي لا يموت، ثم تلا هذه الآية: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ)(آل عمران: ١٤٤).

فلما تلاها أبو بكر أفاقوا من هول الصدمة، وكأنهم لم يسمعوها من قبل، قال أبو هريرة: قال عمر: فوالله ما هو إلا أن سمعت أن أبا بكر تلاها فعقرت حتى وقعت إلى الأرض ما تحملني رجلاي، وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات، ونجا الله الأمة بسبب ثابت الجأش عند الصديق رضي الله عنه.

عبرة:

يا أيها الإخوة الكرام، بهذه الكلمات القلائل، واستشهاد الصديق بالقرآن الكريم خرج الناس من ذهولهم وحيرتهم ورجعوا إلى الفهم الصحيح رجوعًا جميلًا، فالله هو الحي وحده الذي لا يموت، وأنه وحده الذي يستحق العبادة، وأن الإسلام باق بعد موت النبي ﷺ، فلقد كان موت محمد ﷺ مصيبة عظيمة، وابتلاءً شديدًا، ومن خلالها وبعدها ظهرت شخصية الصديق كقائدٍ للأمة، فإذ لا نظير له ولا مثيل، فلقد أشرف اليقين في قلبه، وتجلى ذلك في رسوخ الحقائق فيه، فعرف حقيقة العبودية والنبوة والموت، وفي ذلك الموقف العصيب ظهرت حكمته رضي الله عنه ، فانحاز بالناس إلى التوحيد: من كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وما زال التوحيد في قلوبهم غضًا طريًا، فما إن سمعوا تذكير الصديق لهم حتى رجعوا إلى الحق.

يا شباب، إن أبا بكر الصديق رضي الله عنه يُعد من قمم صحابة رسول الله ﷺ، بل أعلاهم قدرًا على الإطلاق، صحابي جليل والله لو وزن إيمان الخلق مع إيمانه لرجح، صحابي جليل ما ساء رسول الله ﷺ قط، يعني هذا النموذج الفذ الرائع ألا ينبغي أن نقتدي به، أن نتمثله، ولاسيما وأنتم تعلمون أن لكل واحدٍ منا شخصية يتمنى أن يكونها، وشخصية يكره أن يكونها، فإذا سألت عن الشخصية التي تتمنى أن تكونها، فلا بُدَّ من شخصيةٍ فاضلة تستقي منها، وترتوي مِن معينها، فالمؤمن يتمنى أن يكون من الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، من الذين أحبوا الله، وأحبهم الله، من الذين أخلصوا دينهم لله فأخلصهم الله بخالصة التقوى، نعم إنه جبل الصمود يوم الردة، وعملاق الإيمان واليقين، ثاني اثنين، أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

فاقرأ يا أخي هذا الكتاب بعناية، وقف عند كل مشهدٍ من مشاهد سيرهم، وخذ لنفسك ما تشاء من محامدهم بقدر طاقتك، وعايشهم بقلبك وروحك وعقلك.

(تم الكتاب بحمد الله)


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

فهرس المحتويات..